مهنّا الحبيل

فِكرُ السِّيرَةِ

قِراءةٌ ثقافيّةٌ معاصِرةٌ لِلسِّيرَةِ النّبويّةِ





كانت أحداث السيرة النبوية ومنعطفاتها ولا تزال محطة وقود وتزويد للعقل المسلم المعاصر، تساعد في فهم أحداث العالم وخارطة المجتمعات وذلك عبر إدراك أحداث هذه السيرة ووعي دروسها المهمة.

وفي هذه السيرة رسائل فكرية تُشبع حاجة المجتمع وخاصة طلائع الشباب فيه إلى فهم الأحكام والمواقف، وما يعيشه العالم الإسلامي والشرق من مستجدات فكرية وثقافية، أمام الاجتهادات البشرية لتطوير برامج الحياة المعاصرة في رافدي العدالة والحقوق والرفاه، وجذور هذه المعاني في أصل بلاغ رسالة الإسلام للبشرية.

إن هذا الكتاب هو محاولة لقراءة فكرية تُضيء بعض المسارات لأسئلة المسلمين وغير المسلمين المعاصرة في سماء الفكر ولغة العالم اليوم، وهو قراءة تجعل مدارات الثوابت الشرعية القطعية محل قاعدة للوعي الثقافي، لكن تتوسع متجاوزةً حواجز التقليد الفكري والفقهي، لمحاولة فهم رسالة السيرة وفقاً للمعادلة التي بُعث بها المصطفى -صلى الله عليه وسلم-.



القاهره - المعادي - شارع المعراج
almashriq.books@gmail.com



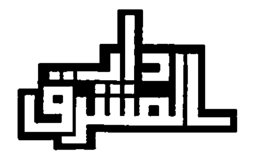
فكرُ السيرة

قراءة ثقافية معاصرة للسيرة النبوية

فكرُ السيرة

قراءة ثقافية معاصرة للسيرة النبوية

مهنا الحبيل



الـفـهـرسـة أثـنـاء الـنـشـر ـ إعـداد دار الـمـشـرق

الحبيل، مهنا
فكرُ السيرة: قراءة ثقافية معاصرة للسيرة النبوية/ مهنا الحبيل.
٢٦٩ص.
١. السيرة النبوية. أ. العنوان.
297

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر
بالضرورة عن وجهة نظر دار المشرق»

الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٧

دار المشرق
القاهرة ـ المعادي ـ شارع المعراج
almashriq.books@gmail.com

المحتويات



وبه نستعين

مقدمة

منذ ثلاثة عقود ترددت على قراءة السيرة النبوية الشريفة ومراجعة أحداثها بتركيز عدة مرات، ومع تقدم العمر وتجربة الثقافة والكتابة، كانت تظل أحداث السيرة ومنعطفاتها محطة وقود وتزويد للعقل المسلم المعاصر، لفهم أحداث العالم وخارطة المجتمعات عبر وعي أحداث السيرة النبوية ودروسها المهمة.

وكانت تزداد لدي دلائل هذه الرسائل الفكرية والتي أجد نقصاً شديداً في وعيها، لدى المجتمع الإسلامي وخاصة طلائع الشباب، والتي تزداد حاجتهم اليوم لفهم الأحكام والمواقف، وما يعيشه العالم الإسلامي والشرق من مستجدات فكرية وثقافية، أمام الاجتهادات البشرية لتطوير برامج الحياة المعاصرة، في رافدي العدالة والحقوق والرفاه، وجذور هذه المعاني في أصل بلاغ رسالة الإسلام للبشرية.

وكنت أشعر دائماً بأن هذه الثروة الفكرية التي تقدمها لنا السيرة النبوية لم تُفهم كما نحتاج لها ولم يُعتنَ بها، خاصة في جوانبها المقاصدية، رغم أنها نصوص وأحداث لرحلة قائد البشرية ورسالة الإنقاذ للمجتمع الإنساني، وليس ذلك اكتشافا منّي، ولكنه موجود عند أوائل محطات الاعتناء بالسيرة النبوية الشريفة في هذا العهد المعاصر، وقد أشار لذلك شيخ المعاصرين الأستاذ عبد السلام هارون في كتابه المهم والمفصلي **تهذيب السيرة النبوية لابن هشام**.

ورغم أن كتاب الشيخ عبد السلام هارون رحمه الله كان رحلة تهذيب وتصويب وتنقيح للسيرة النبوية، إلا أنها كانت محطة مهمة للدراسات المعاصرة، والأمة

عيال عليها اليوم، وتترحم عليه كما على ابن هشام وابن إسحاق رحمهما الله.

وبلا شك إن محاولات هذا القلم المتواضع لوضع خارطة فكرية لوعي ثقافي إسلامي معاصر لأحداث السيرة النبوية تستفيد بشيخي هذا المنحى، كالشيخ المجدد محمد الغزالي المعاصر والشيخ محمد سعيد رمضان البوطي رحمهما الله، وقد وقر في أصل وعي المؤلف شذرات قطوفهما ونزعتهما الفكرية مبكراً، إضافة إلى كتب وباحثين عبرتُ معهم رحلة السيرة من المتقدمين والمتأخرين.

ودفعني لاختيار (فكر السيرة) لا (فقه السير) كما اختار لها الشيخان الجليلان، أن أكون في حلٍ من وضع المؤلف في سياق فتوى فقهية أو حكم شرعي، للشيخين فيه أقدام ثابتة وليس لي ذلك، ونَعتُّ الإصدار بنزعة المؤلف المعتادة للقراءة الفكرية والثقافية المعاصرة.

وهي قراءة تجعل مدارات الثوابت الشرعية القطعية محل قاعدة للوعي الثقافي، لكن تتوسع فكريا وتتجاوز حواجز التقليد الفكري والفقهي، لمحاولة فهم رسالة السيرة وفقا للمعادلة التي بُعث بها المصطفى ﷺ.

هذه المعادلة هي أن رسالة الإسلام ومبعثه الشريف، هي بلاغ الله الأخير للأرض، وميثاقه المنزّل لقاعدة التشريع والحياة الإنسانية المعاصرة، والتي قطعاً جُعل مدار الاجتهاد فيها واسعا، لتتحقّق للبشرية عوامل نهضتها ونجاح الإنسان لبلوغ الحق المزدوج.

ومع الإقرار بضعف الشخص وبضاعته أمام هذه القامات إلا أنه يرجو الله، أن يفتح عليه بكرمه ورحمته، ما يقدم به وعياً جديداً للمسلم المعاصر وللإنسانية تفهم بها هذا الميراث، وسر بلاغه لرحلة الإنسانية الكبرى، وثوب العدالة التي بحث عنها الفلاسفة، فَرشُد رأي بعضهم وانحرف الآخر لفقدانه فهم تاريخ الكون وقصة الخلق وعلاقة الروح بالوجدان البشري.

كما أن وعي تقديرات الأحكام، واختلاف بعض الفتاوى والمواقف، يصب في هذا الاتجاه الذي يحتاج وعياً دقيقاً، يُكرّس عبره المثقف المعاصر خارطة طريق ذات مصداقية لا تتجاوز قواعد الشرع الكبرى ومحكماته في الكتاب والسُّنَّة، وإنما تفهمها بما كَلّف به الشارع الحكيم، بأن للزمن مدار اجتهاد ولذلك وضع الشرع مرونة لفقهه لصالح البشرية وطبيعة تطور شؤونها، وأهم الطرق إليه فهم رحلة مبشر الرسالة الأكبر محمد رسول الله ﷺ.

تمهيد

مركزية السيرة والهامش المعاصر

رغم ورود نصوص متعاقب عليها عن الصحابة والسلف وعامة أئمة المسلمين على الاعتناء بسيرة رسول الله ﷺ، إلا أن واقع تاريخ المسلمين وحركة الإفادة منها كمصادر تشريعية وفهم عميق كان ضعيفاً جداً، وتحوّل في جوانب منه منذ قرون مضت، إلى سرد وجداني لمقامه ﷺ وميراث محبته الواجب عاطفياً، وتهميش معاني هذه السيرة النبوية المباركة ومفاهيمها التشريعية والفكرية.

وليس المقصود هنا الإدانة أو المشاغبة على مسار التوجيه الوجداني لحبه ﷺ كما تطرفت بذلك مدرسة مجافية لمقامه ومنزلته، كما أن هذا الحب والوجدان مهم في التذكير بمقامه وتضحياته للأمة، وحرصه على البشرية، وعدالة سيرته وإنسانيته بين الناس والحيوان والحجر.

إلا أن بعض مسالكها لم يكن على ما يرضاه الله ورسوله، أو حوّل الوجد لرسول الله، لمقام غزل وعشق يستدعي الإيحاء الرمزي لكنه يسرف حتى يصل إلى مستوى من الإساءة لمقامه ﷺ وليس تعظيمه.

بين الجفاة والغلاة

وبين الجفاة والغلاة مقام حب وعاطفة وجد مستحقة، لا تُجحد ولا تنكر بل هي من سمات الوفاء الواجب لعهد رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام، غير أن البوابة المهجورة هنا، هو فقه سيرته وأحداث مسيرته الفكرية، والتذكير بمعانيها، وبمجمل مواقفها وخلاصات أفكارها (المهمة جداً) من حيث تتبع سيرته في حياته، ورسم خريطة مرور الأحكام والأحداث عليها، وتناغمها

الكبير مع نصوص القرآن وتشريعات السُّنَّة، فهي تُعد في مستوى متقدم لمركزية مكانتها في التشريع الإسلامي.

تهميش السيرة كمصدر فكري

وهو ما لا نراه اليوم وإن جرت تدوينات ضمن الفقه وكتب السُنة، وكتب عديدة عن السيرة النبوية كسيرة **الإمام الذهبي والشفا** للقاضي عياض **وزاد المعاد** وغيرهم، لكن الدراسة لها، ومناقشة ما قد يتعارض مع بعض أخبار الآحاد في تسلسل أحداثها، وجمع فقه المرحلة أو فقه الحدث والقضية الاجتماعية والسياسية وتشريعات النبي ﷺ فيها، فهذا ما يندر وجوده إلا ما ذكرناه في المقدمة عن المعاصرين.

ولا تزال هذه المركزية المهمة، لها حاجتها القصوى لفهم التشريع الدقيق للنبوة، وعلاقتها بالجانب الإنساني للناس كما الموقف الديني للحنيفية السمحاء وميراث الأنبياء وسر نسخ الأحكام رغم وحدة بلاغهم وعقيدتهم، وعليه فإن العودة لها اليوم من مسارات الوجوب الفقهي والفكري للمسلم المعاصر، الذي سيجد فيها ما يفاجئه من أحكام وأقضية، من الممكن جدا عكسها على واقع اليوم والاستفادة منها ثقافيا وتشريعيا.

تراتيبية الحدث وتاريخه

ومن ذلك أن السيرة تقدم تراتيبية مهمة للأحداث، نفهم فيها أصل التشريعات قبل موجبات العقوبات، بل وتوضح أن النص الذي يقطع به في صيغة على فرد، قد لا يُعمم على البقية، وأن مفهوم العدالة ـ بل ـ والعفو هو الأصل، فيما الاستثناء هو في تنزيل العقوبة على فرد، وقد يُستثنى حين يُتعقب الأمر ويُقصد الرسول الكريم فيه، كحادثة إجارة أم هانئ لحربي مشرك، وغيرها من مواقف، وهنا نذكر ذلك كمثال لا على سبيل الحصر.

وعليه يتبين لنا مساحة الاجتهاد بين فقه السيرة الجمعي المترابط، وبين فقه النص المقتطع دون معرفة ظرفه، وكلاهما من أصل السُنة ويُقدّران بمعيار الصحة، لكن غالباً ما تشرح السيرة وتُفصّل فيما الاعتماد على الخبر المقتطع وإن أُستدل به، فهو لا يفسّر مدار الحدث ومسبباته، ولذلك يحتاج الفقيه المستبصر للرجوع إلى مقاصد الشريعة، كما يعود المفسر إلى فهم أسباب النزول.

والنبوة هي ميزان مهم لتحديد معالم الإيمان، وفتح مسارات الحياة بين ألوهية الرب ورضاه، وما شرعه لعباده من مساحة خيارات أو تقنين عقوبات، أو مكاره تختلف كثيرا بين اللمم والمعصية والكبيرة أو ما يُكره لغيره، ولا يُمنع منه الناس، بل لا يعاقبوا في الدنيا ببعض المعاصي، ويؤمرون بالاستغفار وحسب، ويُندبون إلى سترها، وامتئناف حياتهم، وذلك مما عُني به في طبيعة الخلق الإنساني، وأنه خطّاء وإن أُمِرَ بتجنب الخطيئة، ولكن وضع له كفل من المغفرة والتجاوز لأصل طبعه.

هذا المعنى المهم في إدراك طبيعة التشريع وفطرة الله في الخليقة، يبرز كثيراً في مفاصل وأحداث السيرة، ويعطي مساحة لفهم الإسلام والحياة، كمسار دفع للفضيلة وفهم للطبع البشري، وليس أحكاماً حدية تُوقع في كل ظرف وعلى أية حالة، فيسيء الناس تفسير تطبيق الشريعة، ومدار تنزيلها في واقع المجتمعات.

وخاصة حين تُحدِث الأمم وتطورات البشرية طبائع وصناعات وبيئات لا تماثل واقع الأقدمين، فتظل الشريعة روحاً ونصاً منهجياً مطلوباً لكل زمان، لكن فقهها في شؤون الحياة وسعتها، مسار يحتاج لوعي متطلبات الحكم، والسيرة إحدى الأدوات الكبرى لوعي هذا المعنى كما سياتي، في فصول الكتاب.

وقراءة السيرة هنا وفق هذا المسلك إحدى مهمات الوعي الواجب إسلاميا، ولا سبيل لفهمها دون تتبع السيرة وموافقات القرآن لها، وفهم دلالة النص ومقصده وظرفه معها، وهي كذلك مصدر للفقه الدستوري لحياة المسلمين وعلاقاتهم الإنسانية، وكيف تُحدد لديهم جسور التواصل مع البشرية وعناصر المشترك الإنساني، ومفاهيم الوحدة الإسلامية للأمة وشعوبها، على تعدد أعراقهم وأصولهم.

الإسلام والإنسان ورحلة العالم

بعد القرآن الكريم وصحيح السُّنَّة النبوية، والتي تضمن جزءٌ منها السيرةَ النبوية، فتعتبر وثيقة السيرة أهم مدونة فكرية تُقدم للبشرية اليوم، خاصة حين يضاف إليها ضعيف الإسناد صحيح المعنى المستفيض في كتب السنن، دون

الضعف الشديد وحكايات الوضّاع، وخاصة حين تقرن السيرة بمناقشات فكرية، وشرح واستدعاء لجوانب الأحكام، ومواقف اتخذها النبي ﷺ تُعزز معنى قصة البعث السماوي لكل أهل الأرض، وازدواجية الروح والجسد، ومعناها البالغ في الإسلام لرحلة الحياة، كمشروع بلاغ لا القتل والصراع، الذي يطرأ بظلم الإنسان أو بردع طغيانه.

ولا يزال الإنسان اليوم في ظمأٍ شديد ونَصب لعدم قدرته أو رغبته بفهم الثنائية التي خلق الله بها البشرية، رسالة الروح والمبدأ الإيماني، ومقاصد الاستخلاف البشري لعمارة الحياة وسعادته فيها، وهو جهل يشمل فئاماً من المسلمين فضلاً عن غيرهم.

المركز الدستوري

والسيرة النبوية هي المركز الدستوري لفهم هذه القاعدة الثنائية، وبالتالي فتح آفاق المعرفة الثقافية والقانونية، ومصالح المجتمع المسلم، ومصالحه مع غيره، وأدوات التسوية ومعالجات فض النزاع، وأصول رد البغي وإزالة التعدي الذي يكمن بالضرورة في صراعات البشر، حين اختبروا بأخذ أحد النجدين.

ولا يوجد نظام رومانسي يستطيع تحقيق العدالة والتكافؤ دون أدوات وقوة خير، لكنها هنا مبنية على العدل النظامي لكل الناس لا نزعة العدل المنحازة، وهو ما جسدته خلافة عمر بن عبد العزيز، بعد استكمال رحلة البلاغ والتشريع وفهم الصحابة في الخلافة الراشدة، رغم انحراف الحكم الأموي مبكراً، ونقضه للشورى بالتوريث.

غياب الفهم وواقع المسلمين المر

وعلى صعيد المسلمين، ورغم عظمة ميراث الفقه الإسلامي، وحصاد اجتهادات الأئمة في قرون، فإن فوضى الاستدلال لا تزال قائمة، وفوضى التكفير داخل المسلمين، وضياع بوصلة فهم التشريع الدستوري للحياة سائد، مما يُعزز حرب الغلو والتخلف معاً.

وساهم في ذلك جاهلية تُلبّس لباس الدين في بعض مجتمعات المسلمين، فتَلوي النصوص وتفرزها لتحقيق أقصى نظرة شرسة، وتقعيدُ عزلٍ وتضييق على الإنسان، وهي تمارس ذات النفاق الاستدلالي الذي تشكو منه في الصف

المميّع للشريعة، لكن لصالح الحكم المستبد أو لنزوات التفسير.

مما يُسهّل الدرب على خصوم المسلمين، الذين تمكن الضلال والانحراف الفلسفي منهم، واختلوا في توازن الروحِ والجسد، وعلا شأن المادة مقابل القيم لديهم، والمصالح المالية فضلاً عن إرث من انحراف ديني وضلال عقائدي ثأري مع المسلمين، فيُسهّل لهم هذا الجهل ضرب أرض المسلمين وتأميمها سياسيا واقتصاديا، بشراكة شاملة من الاستبداد القمعي.

تنظيم السيرة لفقه التشريع السياسي والإنساني

هنا تبرز لنا أهمية دور السيرة النبوية في تنظيم هذا الفقه التشريعي للحياة الإنسانية المعاصرة، وتفصيل جوانبها السياسية والاجتماعية والثقافية وكل الجوانب الإنسانية ذات العلاقة، وأين مساحة الاجتهاد وطبائع الشعوب واختلافها فيها.

كما أنها تَقرن ذلك بالهدف الأسمى للحياة البشرية، ومقاصد البعثة والبلاغ الرسالي للإنسان في الرسالة الخاتمة، وتُقدم للمسلمين خارطة طريق مهمة لفهم دينهم وعلاقته بالحياة المعاصرة لكل جيل، حين تقرأ بتدبر وعمق، لا بهذٍ ووعظٍ عاطفي، وإغفال لنصوص مهمة تكمن حقائقها في الكتاب والسُنة ووعيها المقاصدي.

قانون العالم والتدافع

تتضمن السيرة النبوية ملفات ضخمة، من الحوار ومداولة الصراع والسلم والتسامح والقصاص، والتشريعات الأصلية للعلاقات البشرية والعقوبات حين الفجور والبغي وغير ذلك.

ومن أهمها ترادف تعاقدات المسلمين وعهودهم، في مواثيق العلاقات والتفاوض والتشارك مع غيرهم، كقاعدة مستفيضة، لا يمنعها ورود الانحراف والتجني، من طرف آخر نقض هذا العهد، وأن الأصل تشريع نظام اجتماعي داخلي، وعلاقات مختلفة مع أقطار الأرض.

في حين تبقى مهمة بلاغ الرسالة للعالمين قائمة، لمهام الأمة وهي الهدف المركزي والأصلي، وليس قتال الناس هدفاً ذاتياً، بل وسيلة لدفع الضرر، ولا

إرغامهم على الدين ولا الاستحواذ على أراضيهم، ولذلك تُركت أفريقيا السمراء كلها لزعمائها وشعوبها، حين قبلوا الرسالة أو سمحوا لها بعبور أرضهم من خلال الاتفاق الاقتصادي المقدم كإذعان لهذا المطلب، خلافا لسياسات الغرب الرأسمالي، وإسقاطه لأفريقيا واستعباد أهلها وثرواتها.

الهدف الأسمى لبلاغ السيرة

الهدف الأسمى الذي تبينه السيرة في كل منعطفاتها هو دخول الناس في الإسلام ونجاتهم، وفتح الطريق إليهم سلما، لكن طبيعة النفس البشرية ينزع بعضها للشر، فتقاوم فهم الفكرة وترفض السماح بطرحها، وعليه.. فإن النزعة الحادة المعادية والرافضة لسماع فكرة الإسلام وصد الناس عنها، ومنع وصولها للأرض التي فيها، لا يمكن مغالبتها بالرأي والحجة الكلامية، بل لا بد من قوة تحمي هذا الحق وفصول السيرة تشرح كيف تم ذلك التدرج.

دون أن تمنع هذه المواجهات، حقيقة طبيعة الأصل في البلاغ الرسالي وهو الوسطية المدنية التي مارسها الرسول طوال فترة عمره المكية والمدنية، وهي اليوم منارة أمام الوسائط المعاصرة، والتي قد تحقق الهدف دون الولوج لقوة لم تتحقق فيها الشروط، ولم تصل لأهلية دولة قادرة على مواجهة الصادين عن كتاب الله فيما قد تهزمهم رسالة إعلامية في عقر دارهم.

وإن ترتب على صعود الدول وخاصة حملة الرسالة الإسلامية مدارات استهداف من دول الخصوم، ولكن مهمتها ستكون ردع تقدمهم عليها إن اضطرت، وعبر بناء إطارها العدلي لكل شعبها، لا الانشغال بصراعهم قبل قوة بنيانها العدلي والدستوري للدولة، واستكمال كل الوسائط المدنية الحديثة لتحقيق التقدم الذاتي والبلاغ الرسالي.

رحلة السيرة والبناء الثقافي للقانون الإسلامي

رحلة هذا الكتاب تهدف للوقوف على هذه العناصر عند هذا التسلسل للسيرة واستنباط العناصر الفكرية، ودروسها لشرح مقاصد الرحلة النبوية للمسلمين وغيرهم، ومناقشة ما تكشفه السيرة النبوية من تنظيم مهم للأحداث، ودوافعها وأصل مقاصدها التشريعية، وما تقوم عليها كمنظومة فكرية لا مثيل

لها، في الحياة الإنسانية المعاصرة، وإهداء البشرية دستور الحياة والقانون معاً.

خاصة حين تتبين معالم هذا القانون ومذكراته التفسيرية، وفقاً لذات الحدث وظروفه، وفلسفته في مسار كليات التشريع الإسلامي وضرورياته الكبرى، وليس مغالبة لفقه أو التعصب لإثبات هذا القول أو ذاك الرأي، أو ذاك الفعل الذي بعضه انحرافات عاشتها الأمة في باب المستبدين وقهرهم، وتآمر معها فئام من الفقهاء، وإن سخّر الله لها علماء وحملة فكر جددوا معالم هذا الدين ورسالته، ونفوا عنه إبطال المغالين.

الخلل الاجتماعي والتشريعي في تهميش السيرة

إن مجمل أحداث السيرة النبوية المهذبة هي قصة تشريع صحيحة، توافقت مع التنزيل وكُتب السُّنَّة، وما شذ عن ذلك من موضوعات فهو محدود ونبه عليه العلماء، ولذلك إن العناية بالسيرة النبوية لا تزالُ قاصرةً عن المستوى المطلوب - بل - والواجب لفهم متطلبات الحياة المعاصرة للمسلمين وجدولة توافقاتها وصراعاتها، وتشريعات الدول الدستورية والمجتمعات الثقافية.

وتتعزز هذه الاستنتاجات والخلاصات الفكرية، في ظل ما يتعرض له العالم الإسلامي من بطش خصوم الخارج ومستبدي الداخل، وما يجري من تفتيت إلى معسكرات طوائف ضربت القاعدة السُنية وأهلها وليس جماعات أهل القبلة المسلمين فقط.

وهذا المسار يستطلع ثقافة صناعة الأمة المسلمة كما أرادها البلاغ، وليس الانتساب لها بتشريعات انحرف بعضها عن المسار الرسالي، فتحولت إلى كتلة عصبية تنتمي اجتماعياً لهذه الجماعة أو تلك الطائفة، وفي المقابل من زعم أنه يحمل رسالة صحة الدين وغيره هم من الضالين، فيقع في ذات الإشكال بعلاقته بالدين بعصبية غلو لا حقيقة فهم، ثم تحوّل خطابه القهري وتعصبه، إلى مادة مواجهة وصراع مع العالم الإسلامي ذاته.

الغلو يحمل السلاح

وتعيش الأمة اليوم كارثة مضاعفة بعد أن قرر الغلو حمل السلاح، ومفاصلة الأمة على دينه هو، وليس على الشريعة التي أوضحتها السيرة النبوية، فحمل السلاح على المسلمين، تارة بحجة حمايتهم وأكثرها لتصحيح عقائدهم

بحسب فهمه، وتصفية الرافضين منهم لنموذج إسلامه، الذي لم يرتضِه الله ولا رسوله، وقد رُعِيَت هذه الفتنة لعقود، تحت ثقافة الانحراف وقهر القول مدنيا، واحتقان التعصب تحت سياسة المستبدين الرسميين.

والسيرة النبوية هنا تُغربل هذه المعطيات، حين تحيلها إلى التفسير الفكري والموضوعي، والترابط مع قصة التشريع وأحداثه، وتحاول إعادة تقويم الفهم عن رسالة البلاغ الإسلامي الحق، وليست هذه المادة فتحاً استثنائياً، ولكنها ضمن مسار التجديد المسبوق بأئمة وشخصيات فقهية، وثقافية إسلامية كبيرة، يرجو هذا القلم المتواضع أن يشاركهم وإن قلّت بضاعته.

وما هذه المساهمة البسيطة إلا عودٌ صغير في بنائها الكبير (إذا كتَب الله لها القبول)، وأسأل الله أن تكون من غوث العون لفهم المسلم المعاصر لسيرة نبيه الكريم الأعظم في تاريخ البشرية الطويل، وأن تطرح فهما لا يجاوز الشرع وأحكامه بل يلتزم به وعبر صحيحه.

لكنه يفتح الطريق لما قصد إليه الشارع، وأهمله البعض فقصُرت لدى الجمهور بعض معالم الوعي الإسلامي المهمة، وخاصة لهذا الزمن ومجتمعات المسلمين، فلا حرمنا الله برحمته صلاح النية والعمل وبركته في العاجل والآجل.

توطئة

اخترت التماشي مع أحداث السيرة النبوية الشريفة التي سار عليها الأستاذ عبد السلام هارون في تهذيبه لسيرة ابن هشام، حتى يكون التعليق والقراءة الفكرية ضمن ذات التسلسل الزمني ومعطياته المهمة، لكل مرحلة، وما يمكن أن يلاحظ من تقنين التشريع وتطوير موقف التوجيه النبوي الشريف، والتقديرات الظرفية والزمانية الواضحة، في تعليمات الرسول والرسالة وتثبيت الموقف والحدث أو تصويبه من الوحي، وإبقاء حكمه الواقعي، كما تقتضيه فلسفة التشريع.

مع تثبيت الفكرة الإيمانية أو دوافع العقوبة، ورعاية التسامح بحسب البلاغ التشريعي، وأهمية نتائج تثبيت تلك الوقائع في معنى استخلاص فقه السيرة وفكرها لكل مرحلة، ومعنى إقرارات النبي ﷺ لجملة من المواقف الفردية

المتسقة مع التوجيه العام أو المستثناة والمستأذنة منه، وماذا يعنيه ذلك في مجمل التعاقد الاجتماعي بين المسلمين وغيرهم.

النص المقتبس بحرفه أو بالمعنى

وسيلاحظ القارئ الكريم أنني أُثبتُ في أعلى كلٌ مبحثٍ النصَّ الذي ورد في **تهذيب السيرة** بالخط الغامق، بحرفه أو بمعناه، وإن كنت أعيد التهذيب بتصرف أحياناً، مع المحافظة على المعاني المثبتة والواصفة للحدث، والمصدر في النص كما ذكرت هو **كتاب تهذيب السيرة**، للأستاذ عبد السلام هارون، وقد أُثبتُ نصا مجمعاً من عدة مواقع في **التهذيب** بتعبير الكاتب، لكن دون تغيير لأي حدث أو واقعة وردت في تسلسل السيرة النبوية.

تاريخ الأنبياء ونسب الرسالة

لماذا الجزيرة والأرض العربية؟

(ولد النبي ﷺ في مكة، وفي أحضان المجتمع العربي من قريش وقبائل الحجاز، وهي في ذلك اليوم قبلة لمشركي العرب، ورمزٌ لهم، في كامل الجزيرة العربية، ومواسم حجهم، رغم انحرافهم عن الحنيفية السمحاء، وأحداث السيرة النبوية وقعت في هذه الأرض، منذ نشأته ﷺ، بإجماع كل كُتَّاب السِّيَر، فقد كانت حياته بين ظهراني هذه المنطقة، مع عرب الجزيرة ومنها تواصل مع العالم خارجها).

يبدو هذا السؤال حاضراً بقوة في التعاطي مع أحداث السيرة النبوية الشريفة، لماذا أُختير النبي ﷺ من العرب ولماذا الجزيرة؟

وليس الشام مباشرة، أو جغرافية العالم؟ ومع بقاء أمورٍ قد لا يصل إليها الباحث من حكمة التشريع لكن هناك دلائل مهمة، يمكن فهمها في هذا السياق.

وإجمالاً.. بُعثَ الأنبياء ﷺ، في أمم الأرض وأصقاعها من علِمنا اسمهُ منهم ومن لم نعلم، وكان المدار في بعثتهم هداية العالم للمعرفة الفكرية لخلقهم، وكيف تُحوَّل دلائل الحس التي وجدها الإنسان لوجود الخالق، لعبادته وطرق نجاحه وحصيلته التي سيراها بعد الخلق الآخر يوم القيامة، ولذلك قُبل إقرار التوحيد لمن لم يصله نبي، وأمهل أهل الفترة إلى الدار الآخرة، وأهل الفترة هم الأقوام الذين لم يتلقوا نبيا أو لم يصلهم.

وأول ما يجدر التنبيه عليه أن كل قطعيات وكليّات الرسالة، وإنذارات الشارع، تصب في معنى الوحدة الإنسانية للبشرية، وموازين تفضيلهم بالتقوى

وصلاح عملهم لخدمة الرسالة واستخلاف الأرض، وكل ما يطرأ من مواقف أو توجيهات وردت في السيرة النبوية لم تعارض أبداً هذه القطعية.

وإنما تنظم بعض تعاملات البشر وتُرتِّب الجسور معهم، بحسب موازين قامت بينهم وتنتهي المصلحة بتسخير السلوك المباشر، دون ظلم أو تَجَنٍّ إلى تعميق الفكرة الأصلية للشريعة حتى يهتدوا إليها، كموقف النبي ﷺ في غزوة الأحزاب، وكنظام استقباله لملوك العرب المستعلين بتيجانهم، وكالتعاطي مع مروءتهم بالحسنى وتقدير أهل الفضل بينهم، كونه في الأصل ضمن هدي الرسالة دون تشريع لأي مفرزة عنصرية.

وهو كذلك مدار التنظيم لما يرد في لغة الفقهاء أو فتاواهم فمرده إلى هذه القاعدة، مصالح الناس في مداولة انتمائهم الاجتماعي وطبيعة كل شعب أو كل ناحية، وليس تصنيفاً عرقياً تفضيلياً على الإطلاق.

ولقد وقع هذا الإشكال في الزمن المعاصر وقبله، في قضية تفضيل العرب، بل قد يذهب إلى ذلك من يظن أنها مزية تشريف عنصره وهو بذاته مناهض للفكرة الإسلامية، وتُوُسِّعَ فيها في العصر الحديث في ظل الصراع الذي طرأ بين القومية التركية والعربية وانتشار موازين القوميين في البيئة العربية والأعجمية كل إلى قومه، أواخر الدولة العثمانية وعند قيام الجمهورية التركية الحديثة.

وهو خلطٌ أضر كثيراً بفهم المعنى المقصود من فضل العرب، كونه اختياراً إلهياً لأجل حكمة البلاغ لا لتفضيل عنصر على آخر، وهذه الحكمة هي المعنية بإشارة الرسول الكريم إلى فضلهم، وكذلك كون اللغة وبعض التفاصيل الاجتماعية كانت في محضن هذه اللغة والجغرافيا العربية، فتوجهت الضرورة إلى الاعتناء بهم، وليس فصلهم كأمة قوّامة تصارع البشرية على فضلها العرقي المتداخل بين الناس وتصاهرهم.

وهذا هو الفرق بين رسالة فهم العروبة كشرف لحضانة التكليف الأول للبلاغ ولغة الرسالة، وحب أهلها وبين تحويل الانتساب إليهم مادة مستقلة تستعلي على الأمم أو تصارعهم بناءً على قوميتها، لا بلاغاً للرسالة والعدالة، وقد سجل التاريخ القديم والجديد، تفوّق أعاجم في الغيرة على الرسالة أو في نبوغ مبشرين ملهمين بها من غير العرب، وهي إحدى أهم خصائص البلاغ، أنها لكل العالمين والأسرة الإنسانية.

نسب الأنبياء ونسب الرسالة

(ولد النبي ﷺ لعبد الله بن عبد المطلب، وجده عبد المطلب هو زعيم قريش أشرف بيوت مكة والعرب، وعبد المطلب بن هاشم بن قصي بن كلاب بن مرة وصولاً إلى مضر ومضر من عدنان وعدنان من ذرية النبي إسماعيل ابن النبي أبي الأنبياء إبراهيم الخليل وصولاً إلى سام بن نوح من ذرية أخنوع وهو إدريس وصولاً إلى آدم عليه وعلى ذريته الأنبياء السلام).

وفي اختيار النبي ﷺ من ولد إسماعيل وولد إبراهيم فأخوّة إسحاق ورهط الأنبياء رغم تباعد القرون وآلاف السنين، مغزى لوحدة الرسالات وبلاغ السماء للأرض، بأنها الفكرة اليقينية الكبرى، الإيمان بالله وحده كخالق وعبادته وفهم رسالة الخلق، في كل أطوار الزمن، عقيدة إبراهيمية واحدة جاء بها موسى والمسيح وتتابع عليها الأنبياء، لا يوجد أي اختلاف في الأصل، ونسخ الشرائع وتغيرها، هو لطبيعة خلق الله في البشرية وتطور معارفها ونظمها الاجتماعية في سابق علمه جل في علاه وهو الذي انشأها.

وهنا أهم مفاصل الوعي في مساحة الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، كون النبي ﷺ لا نبي بعده، وعليه فإن الله ترك (كتشريع من لدنه) مساحة اجتهاد تفي ببقية الزمن، ومرونة استخلاص الأحكام وتجديد فهم الدين بعد تثبيت القطعيات الكبرى، حتى تقوم هذه الرسالة بحاجة البشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإنما يصادم هذا الفهم ويحاصر سعة الاجتهاد وتعدده، من جهل هذا المغزى الذي يُعَدُّ من محاسن الشريعة الكبرى (والشريعة كلها محاسن)، وانزوى بتعصبه حتى ضاق الدين فيه، وضيّق على الناس، وحصر المسلمين في جهة أرضه أو ثقافة بيئته، ولم يفهم أن مسار التداول في شريعة الله بحسب سعتها لكل شعب وجماعة بشرية.

ومن طبائع ألسِنة الخلق والبشرية، البحث عن مصالح تشوش على صاحب كل رسالة، أو تُلحقه بمنفعة يصعد بها، ولذلك كان الأنبياء يُبعَثُونَ في أواسط قومهم أي أفضلها، لتقطع الحجج ويركزون على معنى الدلالة المقدمة لهم، وهنا فرسول الله ﷺ السيد في قومه، صاحب الفرص خاصة بعد أن سلّم له المشركون والمستبدون الاجتماعيون كما هو عرض عتبة بن ربيعة عليه، بكل ما

يحتاجه للسيادة والوجاهة والمتعة مقابل أن يترك رسالة البلاغ الإسلامي فرفض.

ولم ينزع لهذه المصالح، وكان ذلك دلالة صدق البعثة، ودلالة صدق المبتعث، وأن موقعه في السيادة الاجتماعية التي يسهل على كل صاحب جاه، كما الضعفاء التعاطي معها، كانت وسيلة لبلاغ الحق والوسطية بين الناس غنيهم وفقيرهم، وليس الثأر من أحد ولا وراثة مستبد في المستضعفين، بل كانت حياته غيمة بين المساكين.

طبيعة العقل العربي والوثنية

نزلت الرسالة على النبي ﷺ في مكة وهي حينئذ قد حوّلها مشركو العرب إلى مركز وثني، رغم بقاء رمزية الحنيفية الإبراهيمية فيهم، لكنّها كانت مشوهة عند غالبهم، فيما بقي عليها رهط كقس بن ساعدة وغيره، الّذي أبَى عقلُه خزعبلاتِ العرب وخرافاتهم، لكن هذه الخرافة كانت سطحية، وليست عقائد فلسفية، وبمجرد إسقاطها يصفو العقل المسلم بفطرته وتتضح له الرؤية، فيما كانت تشويهات كبرى لحقت بالمسيحية واليهودية المحرفة، أو غيرها من الأديان المختلطة بالفلسفة العبثية وتيه الوجدان والغريزة.

وهنا كان إسقاط هذا الحاجز السخيف من الوثنية يؤدي إلى وعي مشرق وواضح، وفهم صلب تُشرق به الرسالة في نفوس العرب ومن ثم في ألسنتهم، فتبلّغ الحنيفية بأصلها المتين ويُعاد التبشير بها إلى العالمين، وهذا بالفعل ما تحقق لدى أولئك العرب، من أبي بكر حتى رِبْعِيّ بن عامر.

وسائط التهيئة ودلائل النبوة

(كان ميلاد النبي ﷺ في عام الفيل، وقصته أن أبرهة بن القليس نجاشي الحبشة أي ملكها في ذلك الحين، ـ والنجاشي لقب يطلق على من يتولى ملك الحبشة ـ الممتدة بين إريتريا وإثيوبيا اليوم، وكان نصرانياً قد بنى كنيسة في صنعاء اليمن، ليدفع العرب للحج إليها، فأبوا ذلك وأحدث فيها رجل من الأعراب غضبا على عصبية العرب لمكة، فقرر أبرهة أن يهدم البيت العتيق، ليؤدب العرب ويصدهم عنه.

وجهز جيشاً عظيماً، وصدره بكتيبة من الفيلة يسوسها حراس من جيشه،

وبدأ رحلته إلى مكة لهدم الكعبة، فتصدى له بعض قبائل العرب في اليمن وهزمهم، لضعف عددهم وعتادهم أمامه، ثم خرج له نفيل بن حبيب من قبيلة خثعم وحلفاؤه من قبائل العرب فهزمهم، وتواطأ معه مسعود بن معتب من ثقيف، أراد أن يصد أبرهة عن صنم ثقيف اللات ويحوله إلى مقصده ببكة، وأرسل معه دليلا يدل جيش أبرهة لمكة، يقال له أبو رغال، «وبه تتمثل العرب إلى اليوم نموذج الخيانة».

ووصل أبرهة إلى مكة وصادر كل أنعام وأموال لقاها في تهامة الحجاز، ثم بعث رجلاً يسأل عن سيد أهل مكة، فدُل على عبد المطلب جد النبي ﷺ فكلمه أنه لا يريد حربهم ولكن هدم البيت، ثم انطلق عبد المطلب مع مبعوث أبرهة، ودخل عليه فكلمه في الأنعام والأموال التي صادرها.

فقال أبرهة: إنه زهد فيه حين كلمه في الأنعام ولم يُحدثه عن بيت إبراهيم وآبائه الأنبياء، فرد عبد المطلب بأن للبيت (الكعبة) رباً سيمنعه، فأمر أبرهة برد الأموال والأنعام المصادرة لعبد المطلب، وخرج عبد المطلب على قومه في مكة، وأمرهم بالخروج إلى شعف الجبال والشعاب توقيا من جيش أبرهة وفِيَلتِه.

ثم أمسك بحلق البيت وأخذ يتوسل دعاءه في رجزه:

لاهُمّ إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك

لا يغلبنّ صليبهم ومحالهم غدراً محالك

إن كنت تاركهم وقلبتنا فأمرٌ بدا لك

ثم انطلق إلى الجبال، وأصبح أبرهة من يوم غدٍ عازماً على هدم البيت والعودة إلى صنعاء، فوجّه الفيلة إلى ناحية البيت وأقاموا كبير الفيلة ليبدأ زحفه، فبرَك وأبى أن يتزحزح، وضربوه ليتوجه للبيت فلم يفعل فوجهوه، إلى اليمن ثم الشام، لينظروا شأنه، وقد بُهت ساسة الفيل وجيش أبرهة، فهرول إلى كل جهة، إلا بيت مكة كان الفيل يبرك ولا يتزحزح.

وبينما هم كذلك أرسل الله عليهم طيراً من البحر مثل الخطاطيف، بحجارة بحجم الحُمّص في منقار الطير، فما رمى به أحدا إلا هلك، ولم يُصب كلهم، وإنما حين أدركوا مآلهم، فروا هاربين، وهلك أبرهة فيمن أصيب، وحمى الله بيته وبيت إبراهيم)

في مقدمات البعثة حصلت بعض الأحداث الكبيرة التي تحمل دلائل فكرية عميقة، فولادة النبي ﷺ في عام الفيل وتدخل الإرادة الإلهية فيه بعد أن عجز العرب، لحماية البيت العتيق، وتتابع الروايات التاريخية المنقولة عن العرب بتوثيق جمعي للحادثة، حتى أن آثار تهيئة الطريق للفيلة لا تزال باقية في منطقة نجران ضمن الحدود السعودية.

فكانت هزة وجدانية للمجتمع العربي والوثني والمسيحي المنحرف حينها، كما أنه كان رسالة للحنيفيين في اليهودية والنصرانية ومن بقي على آثار إبراهيم. حدثٌ ضخم يشهده جنوب العالم ويُتناقل بين آسيا وأفريقيا، في ذات السياق الذي تتراءى فيه دلائل بعث نبي كريم، يُذكّر العالم برسالة البلاغ للسيد المسيح وموسى وأنبياء بني إسرائيل، لتأكيد مقدمات الحدث الكبير، وربطها بولادته في ذلك العام.

وهي في ذاتها رسالة تمهيد وتذكير للعرب العاجزين، عن حماية أكبر رمزية لهم ورثوها بأن الخالق الذي أشركوا معه زوراً بكل غباء، هو من حمى الكعبة والبيت العتيق، وليس أصنامهم وعبادتها الحمقاء، وأن هذا النبي الذي بُعث فيهم بحنيفية إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - جاء مرتبطاً في هذا السياق، فلتستمعوا له جيداً.

لكن المصالح المادية ونظام الاسترزاق على حساب قبائل العرب، والبحث عن التفوق ضد المستضعفين، ومحاربة أي لغة مراجعة ممكن أن يجريها العربي القديم، خشية على تمرد اجتماعي حقوقي، كانت أفكار تسيطر على التحالف المستبد في مكة ورفضه أي تهديد لمصالحه، وهو ما كان حاضراً في قصة عتبة بن ربيعة أحد أبرز زعماء كفار قريش، عند سماعه للقرآن من الرسول الهادي، واليقين الذي شعر به بأنه كلام لا يصدر من بشر.

ولم يكن هذا رأيه فقط بل كان لشخصيات أخرى من قيادات الشرك والكفر بالرسالة، لكنّه كان يحاربها في نفسه، وهي من أوقع الأمثلة على دلالات التعرية القوية التي عرضها القرآن، حيث كانت الآيات تقرأ نفوسهم وتنشرها في الكتاب المنزل في مناقشة عقلية مذهلة، تعتمد أدلة ذلك الزمن التي تستمر صورتها في كل زمن ماثلة أمام الإنسان.

كمطارق ذهنية يُقصد منها حث هذا العقل على فهم المشهد الكوني وسر

الخلق وربطه الطبيعي بمجيء الأنبياء، وفضح المعاندين لمصالحهم وليس لعدم وضوح فكرة الدين لهم حتى ينتبه بقية الرافضين للدين، وبالفعل تم ذلك وتعززت قافلة المهتدين من دار الأرقم حتى فتح مكة.

وهنا كانت قصة الفيل الذي اكتملت به عدة أبرهة أحد أبرز قادة العالم القديم في الجنوب، ومع ذلك هُزم بوسيلة سهلة جدا من نماذج الطير الذي يرونه في سماء الجزيرة، لكن معجزة تسخيرها هي المعنى الفكري والدلالة العقلية، التي كان يؤمن بها كل كفار قريش كحادثة ويأبون ربطها الربط المنطقي الطبعي بالنبوة.

ما بعد المادة ومعجزة النفس والروح

(كانت أخبار الرهبان والأحبار، مما ورد في الكتب والرؤى التي يتناقلها العهد القديم، كرؤيا ربيعة بن نصر، وهي رؤيا مفزعة له وهو أحد ملوك التبابعة، وتفسيرها بقرب بعثة النبي ﷺ وميلاده تتوارد على تلك المناطق، من العالم، وتتوافق مع بشرى بعثته في الكتب المقدسة).

الرؤى المتعددة والتأويلات التي نقلت من العهد القديم، وبشائر النبي الجديد، كانت جزءاً من مقدمات النبوة، وليس المقصود هنا تأكيد كل رواية إسرائيلية أو حكاية واعظ لم تصح، وتثبيتها في السيرة النبوية، ثم تفسيرها فكرياً، فهذا خطأ بيّن.

لكن الأمر هو أنّ لغات الناس وقصصهم في ذلك الزمان ووسائط تناولهم لأحداث العالم، كانت تعتمد على هذه الرؤى وقصص الرهبان، وهي بحسب ما ثبت تتابعت عند العرب والأعاجم، والمشركين وأهل الكتاب، وهي إحدى دلالات بعث الفكرة في نفوس العالمين للحدث العالمي الجديد من السماء، والمرتبط برسالة خَلقِهم، وبأسلافهم من الأنبياء.

وهو تهيئة إنسانية شاملة أوردت السيرة مقاطع من أخبارها، ومع ذلك لم تُجعل ضمن حجج الرسالة لضم المهتدين، وإقناع المعرضين، لكنها ضمن سياقات ما يعيشها الإنسان في يومه وفي ساعته وفي لحظته، إنها سؤال الفلسفة الكبير ودلائل الخلق، ماذا عما بعد المادة؟ ما الإنسان حين يكون مادة فقط؟ قطعة من الأرض والصخر.

إذن ما هي هذه الروح؟ ما هي تلك النفس التي سوّاها؟

من الذي سوّاها؟ من يحركها؟ من يبعثها؟ من يستردها وإلى أين؟

ويعتقد بعض من النّاس أن تفشي ظاهرة الإلحاد في أوساط العالم الغربي الجديد، جزء من آثار العلم التجريبي، وأن الأحلام ومكنونات الروح وتأثيرات النفس هي موضوعة في قالب تفسيري علمي.

وهذا خطأ.

إن الغرب وعبر تجاربه العلمية في الميتافيزيقيا، والبحث عن ماهية الروح، ومع كل تقدمه العلمي وكل تجارب الاستنساخ في التدخل في الخلية المادية، لا يزال يدرك يقيناً أنه لم يصل إلى أي جواب لهذه الروح وأسئلتها.

ولن يصل، لأن الجواب السهل المستفيضة دلالته وهو وجود الخالق الذي أطلق الروح وجعلها سر النشأة هو الجواب، وهذا البعض لا يريد التسليم بالحقيقة العلمية، ولذلك فإن ما يصل إلى العالم من حديث الروح ورسائله ليس خبراً فحسب بل جسراً في ذاته يُذكّره بالحقيقة اليقينية، وهي إحدى معاني انتشار أخبار النبي ﷺ قبل بعثته.

يتيم الإنسانية العظيم

(كان ميلاد النبي ﷺ الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول، ويقول حسّان بن ثابت، وهو من الأنصار حيث المجتمع المشترك مع أهل الكتاب من اليهود، أنه سمع يهودياً ليلة ميلاده ﷺ يصرخ بأعلى صوته: يا معشر اليهود، فلما اجتمعوا إليه قال طلع الليلة نجم أحمد، «وهو هنا إشارة إلى ورود خبر نجم يولد في فلك السماء يربط بليلة مولده كخبر من أخبار بني إسرائيل حسب السياق».

وقد ولدته أمه آمنة بنت وهب يتيم الأب، حيث توفّي أبوه عبد الله وهو في بطن أمه، ورعاه جده لكن بقيت آثار اليتم، التي تجددت وتعاظمت في وفاة أمه وهو طفل، ﷺ، ورعاه بعد ذلك بكل وفاء وحب، عمه أبو طالب).

الولادة الحزينة والاحتفال السماوي

ولد ﷺ كما تقدم في السيرة، في ظروف حزينة حيث كان يتيم الأب، ثم

يتيم الأبوين، وإن كانت دلائل تباشير الأرض لرسالة التجديد والرحمة الإلهية بالبشرية قد بقيت تبعث معانيها.

لكن حجم المعاناة التي عاشها ﷺ، ودروس المباشرة بصعوبات الحياة، وخوض غمار الكفاح لضعف قوة عمه الوفي الأمين أبي طالب، وهذه الشراكة المفصلة والمتطابقة مع حكايات البؤساء ومعاناتهم، كانت تحمل درساً مباشراً وخطاباً موجهاً للإنسانية والمحرومين.

إن البؤساء والمحرومين هم رمزية المشاعر الأولى للتضامن الإنساني، وهم قصة الكفاح للحقوق ومواصلة الدرب، لانتزاع حق الحياة المطمئنة، في عالم البشرية الشرس الذي ينحرف عن الطريق القويم لرسالة الأنبياء.

والأنبياء هم الثلة الطليعية في البشر الذين يحتضنون البؤساء والمضطهدين، وتسقط لديهم الفوارق بل إن فَرق التقوى الإيماني لا يمنعهم أبداً من إنصاف غير المؤمنين بالله، ومد العون لهم ونصرة ضعفائهم ثم عرض الدين عليهم إن أحبوا نجاة الدارين.

وحياة النبي ﷺ وحكاياته وتوجيه القرآن الكريم له، تتواتر مضطردة في أن هذا النبي دائماً في صف الضعفاء والمضطهدين، بل حتى في تفاصيل حياته اليومية يجلس إليهم، ويقصدون داره التي لا تَشبع من خبز الشعير، يُمازحهم ويشاركهم جوعهم، ويقاسمهم فتات خبز الطريق وضيافة المحسنين من أصحابه.

وهذه المشاركة الوجدانية الحياتية من الرسول السمح للبؤساء والمحرومين ورمزية يتمه العظيمة، رسالة ربانية للإنسانية أنه نبي الجميع وراعي الضعفاء والمساكين، غير أن تفاصيل يتمه ورعايته للغنم ومباشرته تحديات اليتم، تقدم لكل الإنسانية معنى شراكة النبي الذي فُتحت عليه الدنيا بمصارعها، وأصر أن يغادرها كما عهده الأول يتيم الإنسانية العظيم ورسول الرحمة المبين.

ودلالة ذلك له وقع خاص في نفس كل إنسان يتأمل بواقعية في سيرته، سواء كان من ذوي المعاناة أو من يرق لهم حين تكون الفطرة سوية، فيستشعر عظيم سيرة النبي الإنسان، ويهتدي إلى مدارات مشاركته الملهمة، فيُقبل على تعظيم الرسول والتفكر في رسالته المنقذة، كما أنه في سيرته يقدم دلالة

مباشرة، أن الرسول الهادي لم يكن أبداً رهن طبقة برجوازية ولا نفوذ اجتماعي إنما كان يصّر أنه أحد أفراد قبيلته البشرية.

وهو جمع عجيب لشخصية هذا النبي فهو من أواسط قوم وشريف وسيد في نسبهم، لكنه شريك للخَلق في بأسائهم، عضو يشارك المجتمع البشري المعاناة ويحب الجميع مساكين وأغنياء، ولكن رحمته بالفقراء أسرع لحاجتهم له ورقة قلبه ورحمته.

رسالة البؤساء وورثة الرسول

ونحن في عالم اليوم وعالم الأمس وعالم الغد، سنجد في كل عهد، حنينا لبؤساء العالم لهذه الرحمة، وسرعان ما ينجذب القلب حين يعلم الأفريقي ابن القبائل السمراء، أو الأمريكي من سلالتهم التي استوردت في حضارة الغرباء، أن هذا الرسول العظيم لم يفرق بين ألوانهم، وكان منتصرا لهم، ليس في رمزية بلال بن رباح ﷺ، بل في صهيب وسلمان ومصعب الغني الذي انضم للبؤساء لأجل رسالة العدالة، وبقية العرب من الصحابة، بل لكل تاريخ الرسالة الاجتماعي.

كما أن احتضانه للبؤساء والمستضعفين، لم يكن تمييزا ضد الأغنياء أبداً، بل هي الروح التي تتقاطر مودة وحباً لشركاء الإيمان والعدالة السماوية، وإنما يغضب ويحزن ويتألم، حين تتسرب معاني الكراهية والتمييز إلى صفوف صحابته أو تمارس على البؤساء لبقية جاهليتهم، هنا يَغضب المبشر العظيم لهذا الظلم، وليس لمن يمنحه الله حياة الغنى والرضى وهو في سرب العدل الأمين.

هنا أيقونة مهمة للغاية، تفسّر وسطية الرسول الأمين بين شرائح البشرية، وشراكته لمعاناتهم، وأن الأنبياء رسل العدالة الاجتماعية كما هم أنبياء التوحيد الحق، وميزان تفوق المؤمن على غرائز الشرك الغبية الظالمة لإنسانيتها.

وهو تأكيد على أن حملة رسالة الرسول تتعدد مجتمعاتهم وكلهم يستهدون بهديه، لكن دون أن يصنع من رسالته ديناً خاصا لذوي الجاه والمال أو المستبدين بالسلطان، فتفتح الآثار المختارة لهم لتزكيتهم، ويصد عن آذانهم إنذارهم عن الظلم أو البغي واضطهاد المستضعفين، فهذا تحويرٌ للدين لا تبليغا له، وهو تشجيع على البغي والتمييز الذي أسقطه الهادي الأمين.

رسالة السماء وشق الصدر

(كانت السيدة حليمة السعدية أمه من الرضاعة، والتي استشعرت بالخصوصية والبركة في نسمة المصطفى حين اصطحبته لدارهم، ولكن الحادثة التي أفزعتها، هي قصة ابنها الذي رأى رجلين عليهم ثياب بيض من الملائكة يأخذان أخاه من الرضاعة محمد رسول الله، ويشقان بطنه ثم يخرجان علقة سوداء، من صدره فيلقيانها، فخشيت عليه فردته لأمه آمنة.

وحين قال له الصحابة: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر. فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بَهْماً لنا؛ إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض، بطستٍ من ذهب مملوءة ثلجاً، ثم أخذاني فشقّا بطني، واستخرجا قلبي فشقّاه، واستخرجا منه علقةً سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرةٍ من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بألفٍ من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم، فقال: دعه، فوالله لو وزنته بأمّته لوزنها).

في حادثة شق صدره ﷺ وإخراج العلقة السوداء، معنى دقيق للغاية، فالأنبياء صلوات الله عليهم يبعثون كبشر بذات الإمكانيات الخَلقية لكل بشر، وهو حجة الله على خلقه بأن ذات المعايير في الخلق البشري ونسمة الروح في كل إنسان وهو يُهدَى النجدين ليختار، اختياراً كاملاً كما هو في النبيين.

ولذلك لم يُخْلَق الهادي خلقاً خاصاً أبداً، ولم يؤت عناصر مادية في خلقه يتجاوز بها قدرة الناس، وإن كانت رعاية الله له قائمة لتهيئته روحياً، ولذلك فإن الملكين لم يقوما بجانبه ولم يُعطياه رصيداً عقلياً وفكرياً، وبقي الوحي يجدد له بلاغه وتشريعاته، وإنما أخذا علقة سوداء من قلبه فطرحاها.

هذه العلقة هي قصة فلسفة الحب والكراهية في نفس النبي العظيم، وهي تحمل معنى روح الرسول إلى الخلق تغضب وتقتص من الظالم، لكن لا تكرهه لذاته، ولا المقصّر ولا الكافر من ذاته، بل لانحرافه فتغضب شفقة عليه، هذه الدلالة أن الرسول الخاتم بُعِثَ بالحب، وحتى الكراهية التي يستشعرها كل

إنسان ممن ظلمه نُزعت منه، ونقل هذا الخبر للبشرية لفهم مقاصد أحداث السيرة وشخصية النبي المحب للبشرية وإنقاذها.

ولذلك غضب وتألم من فعل وحشي وهند بنت عتبة في عمه حمزة، وظلم جلاوزة قريش، وحماقة سفهاء الطائف حين رجموه، وصلف المطارِدين له والمحارِبين له وكذبهم عليه وعلى الله، ولكنه لم يحقد عليهم وعفى عنهم، حينما أدرك أكثرهم الحقيقة.

وفتح لهم كل باب، وكانت بردته تكسو كعباً الشاعر المذنب في حقه، وتكسو معه خلقاً كثير، وأمنه يصل الى من أجاره ومن أجاره أصحابه رجالاً ونساءً، ويهتدون ويجدون قلبه مظلة لهم، إنها بذرة الحب العظيمة وغُسْلُ الملائكة لقلبه، لا ليحمل الرسالة فقط ولكن ليكون مظلة روح وقلب للناس.

احتفال مسيحي ويهودي وترصّد إسرائيلي

(ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام، فلمّا تهيأ للرحيل، وأجمع المسير؛ صبَّ به رسول الله ﷺ (أي تعلق به) فرقّ له أبو طالب وقال: والله لأخرجنّ به معي، ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً، فخرج به معه.

فلمّا نزل الركب بُصرى وبها راهب يقال له «بَحيراً» في صومعةٍ له، وكان إليه علم النصرانية، وكانوا كثيراً ما يمرّون به قبل ذلك فلا يكلّمهم ولا يَعرِضُ لهم، حتى كان ذلك العام.

فلمّا نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً، وذلك فيما «يروون» عن شيء رآه وهو في صومعته، أنه رأى الرسول ﷺ وهو في صومعته، في الركب حين أقبلوا، وغمامةٌ تظلّه من بين القوم، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرةٍ قريباً منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، وتهصّرت أغصان الشجرة على رسول الله، حتى استظلّ تحتها.

فلمّا رأى ذلك بحيراً نزل من صومعته، ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم، صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحرّكم. فقال له رجلٌ منهم: والله يا بحيرا إن لك لشأناً اليوم، فما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟!

قال له بحيرا: صدقت، كان ما تقول، ولكنّكم ضيف، وقد أحببت أن

أكرمكم وأصنع لكم طعاماً، فتأكلوا منه كلّكم، فاجتمعوا إليه، وتخلّف رسول الله من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيراً في القوم لم يعرف الصفة التي يعرف ويجد عنده، فقال: يا معشر قريش، لا يتخلّفنّ أحدٌ منكم عن طعامي.

قالوا له: يا بحيرا، ما تخلّف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام «أي النبي ﷺ»، وهو أحدث القوم سنّاً، فتخلّف في رحالهم فقال: لا تفعلوا، ادعوه فليأكل هذا الطعام معكم.

فقال رجلٌ من قريش مع القوم: واللات والعزى إن كان للؤمٌ بنا يتخلّف ابن عبد المطلب عن طعامٍ من بيننا، ثم قام فاحتضنه وأجلسه مع القوم، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديدا وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته في علم أهل الكتاب ـ.

حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرا فقال له: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما «فرووا» أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما**».

فقال له بحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه. فقال له: سلني ما بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته. ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

فقال لأبي طالب ما هذا بابنك ولا ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا، ـ وكأنما كان يقرأ دلالات من علم الكتاب تتطابق مع هذا الغلام بين يديه ـ، فأبلغه أبو طالب الحقيقة وقال: نعم إنه ابن أخي، قد مات أبوه، فقال: بحيرا صدقت، فارجع به واحذر عليه اليهود).

في قصة بحيرا الراهب المسيحي وراهب ميسرة وقساوسة الإرشاد لسلمان الفارسي وصدق إقرار عبد الله بن سلام اليهودي الصادق وأحداث كثيرة من بشائر ولادته في العهد القديم وترقب بعثته، يتضح الآتي:

١ ـ إن رسول الله ﷺ كان حديث عالم أهل الكتاب، وترقب بعثته، التي وردت في النصوص الأصلية ومناقلات الرهبان والأحبار لبعثته، كتتمة خاتمة

لرسالة الأنبياء ووقَر في كتبهم، لحاجة البشرية لتجديد التوحيد في نفوسها وتشريعات الرحمة ونجاة لها، وللأمم القادمة بعدها.

٢ ـ النبي ﷺ يعلن في بلاغ مبكر ومؤكد أنه دعوة أبيه إبراهيم وبشرى أخيه عيسى الذي جدد رسالة موسى وهو آخر الرسل قبله، وهنا وحدة الرسالة الإلهية للبشرية، كدلالة بتوحيد المصدر والمنهج، والذي لا يمكن أن يكون من قبائل تتواطأ على الكذب على الله، وفي كتبها دلالة يقين لخصوصية الرسالة وصدقها.

٣ ـ وحدة الرسالة في كل الأنبياء تؤكد معنى على مدى آلاف السنين بارتباطها الوجودي في الكرة الأرضية وما خلق الله من البشرية، ووحدة رسالة الأنبياء، وليس صراعا بينهم أبداً.

٤ ـ كل نص لم يُحرّف وكل سفر أصلي وقر معناه في صدر الرهبان من اليهود والنصارى، كان يؤكد هذا المعنى، بعثة الرسول الهادي للبشرية.

٥ ـ كانت مشاعر الحميمية المسيحية أوضح وأظهر، وتباشيرها كبيرة قبل أن تطغى مؤامرات بني إسرائيل عليها، أو الخشية من تثبيت التوحيد ونفي عقيدة الشرك التي عاشتها كنائس وقساوسة، ولم تطغ مصالحهم عليها أو نفوذهم أو تشربت بالتحريف الوثني لرسالة السيد المسيح عليه السلام.

٦ ـ أي أن الإطار الذي بَعثَ فيه المولى ﷻ نبيه إطار جمع وتوحيد وتجديد، وتعاضد بين الديانات السماوية ولكن تشريع الرسول الأمين، كان بلاغ الله للبشرية للتخفيف عنها ودفعها للاستخلاف الأكبر للدنيا، ونشر قوانين العدل حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٧ ـ وإشكالية بني إسرائيل عميقة في مواجهتها وتعنتها ضد مصالح البشرية، وضد وحدة الرسالات السماوية، وليس ذلك لفرز الإنسان اليهودي عن غيره من أسرة البشرية، ولكنه لطبيعة تدخل الإنسان وحسد الحاقدين من رهبان بني إسرائيل الذي دفعهم لتزوير الدلائل، بل والاحتجاج والتضييق على الأنبياء بما فيهم أنبياؤهم عليهم السلام لصناعة مصالح ومتع لهم.

٨ ـ هذه الروح سادت زمناً طويلاً في البشرية، ومع تثبيت تفضيل بني إسرائيل كتفضيل تكليفي لهم كما ورد في القرآن، ليقوموا بحق الرسالة وتحقيق بلاغ التوحيد ونفي عقائد الشرك وحملها للبشرية مقرونة بالعدالة الاجتماعية، فإن هذا التواطؤ المنحرف لعدد من الرهبان حوّله إلى عصيان وقح لم تشهد

الدنيا مثله، وكلف العالم خسائر وحروبا كبرى، رغم تأكيد جرائم اضطهاد الأبرياء منهم من ظلمة المسيحيين والوثنيين، في حقب زمانية متعددة.

٩ ـ لم تأت الرسالة الإسلامية ولا النصوص القرآنية المتعاقبة، لمعاقبة اليهودي أو تجريمه كيهودي، بل حفظت له إنسانيته وحقوقه، لكن الأزمة كانت في توارث البغي والخديعة والتآمر على الرسالة الإسلامية، كما تآمروا على السيد المسيح خشية من أخذ مهمة البلاغ الإلهي الذي حرفوه.

١٠ ـ فتحوّل الانتساب إلى بني إسرائيل عصبية عنصرية لا رسالة دين وعدالة وهداية للبشرية.

١١ ـ هذا المعنى هو الذي جاء في سياقات تحذير بحيرا الراهب لأبي طالب، كما أنه المرتكز الرئيس الذي جعل القرآن يُفرد للبشرية قصة انحراف بني إسرائيل، للتحذير من تفاصيل وأخلاقيات لا يمكن أن يُسجلها إلا من علم آثار هذا النفسية لمن تشربها من اليهود.

وأن أخطر عنصر أن يظن قوم من الخلق، أن الدين لهم وأن بقية البشر مطايا لرفاهيتهم أو تحقيق مطالبهم، وأن ما جرى من ظلم لليهود في العالم القديم، وفي آخر حلقات الظلم لهم في سجون النازيين يجب أن تسدده البشرية المعاصرة التي لا ذنب لها، بل والانتقام ممن أحسن لهم وأغاثهم كالمسلمين واختطاف مقدسهم في فلسطين وطرد أهلها، لنزوة الشعب المختار، والذي خان فثام منه أمانة الله وقتل رسله.

١٢ ـ إذن: فالاحتفال بالنبي كوحدة رسالة تناقلت دلائل البعث عبر آلاف السنين كان موجوداً، وإنما حرّف خشية مصالح بعض الرهبان والقساوسة، ورفضا لدلائل العقل الذي يهدي لتسلسل الكتب السماوية.

١٣ ـ ولعل هذا يُفسر كثرة إيمان القساوسة المسيحيين برسالة النبي الأمين في التاريخ الإسلامي، وقلته في صفوف الرهبان اليهود، ونزعة الشر والهجوم اللاسامي على المسلمين، المنتشرة في لغة الإعلام اليهودي ومن سخرّهم من المسيحيين المتشددين.

١٤ ـ مع بقاء حق الإنسانية مكفولاً لليهود في الشريعة الإسلامية، وحق تسميتهم بأهل الكتاب كأفق عدلي لا تغيّره خيانة الخائنين، وإنما يجري القصاص على الجناة، لظلمهم لا لمعتقدهم.

١٥ ـ ولقد كان موقف ورقة بن نوفل، القرشي الذي اعتنق المسيحية وهو ابن عم زوجة رسول الله خديجة وفرحه ببعثته، وتفاصيل وصفه لمستقبل صراع المنحرفين والظالمين لرسول الله، وأمنيته أن يكون من المدافعين عنه دلالة لما قدمناه في هذا السياق.

وهذا الفصل يبين بجلاء مقصد وحدة الرسالات وتناغمها في البلاغ الإلهي رغم آلاف السنين بينها من لدن آدم حتى إبراهيم وموسى والسيد المسيح ﷺ، إلى الرسول الخاتم الأمين.

المرأة
والرسالة في الإسلام

خديجة شريكة الأنبياء

(عرضت السيدة خديجة الزواج على النبي ﷺ وسلمته تجارتها، وكانت داعما معنويا كبيرا له من أول البعثة، ذهبت معه لورقة بن نوفل لتحدثه ويخبره النبي ﷺ عن دلائل النبوة التي رآها، وخبر ميسرة عن الراهب، الذي استشرف دلائل النبوة، تزوجها واحتضنته وكانت أول من أسلم، ورديفه المعنوي وشريكته تبدي الرأي والمساندة بأحب قلب وأخلصه، وأم بنيه.

يقول ابن هشام:

فبعثت إلى رسول الله ﷺ ـ فقالت له: يا ابن عمّ، إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك في قومك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك. ثمّ عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، كلّ قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه).

في هذا الفصل يظهر أمامنا دور المرأة في الإسلام ومنظور النبي الهادي لها قبل بعثته وبعد بعثته، أساسيات كبرى في حياة النبوة، كانت خديجة شريكة لدعم مسيرة النبوة والبعثة، كل تفاصيل قصص خديجة وعائشة وغيرها، من مواقف تُثبت ما هي المرأة ومن هي، في رحلة الإسلام والإنسان، في تدفق متواتر بأنها شريكة طبيعية، وإنما الخلق البشري رجل وامرأة وما تناسل عنهما.

وكل انحراف وثني أو كتابي محرف، أو ثقافة تخلف بشري لجاهليات متعددة عن المرأة، كان الإسلام يهدمه هدما، ولا يُلقي له بالاً، وإنما أُسست فكرة الصراع بين المرأة والرجل من جديد، حين سعى الغرب لمعالجة إرثه من

التمييز ضد المرأة، فخلق أساسا عدائياً للعلاقة وافترض معالجته، حتى تطرف ودخل في خصوصية الخلق المكملة بين الجنسين، صارع ذاته وهزم أنوثة المرأة، التي هي جزء من حقوقها.

واستنسخ هذا الصراع في المشرق الإسلامي، الذي تأثر من تخلفه عن قيم الدين والحضارة الإسلامية، وتراجع كثيراً عن وعي الشراكة بين الجنسين في الصدر الأول، ثم غطى طبائعه وبيئته الخشنة أو المعتدية على المرأة بثوب ديني غير صحيح، يعزز من مكانة ظلم الرجل وليس حقوقاً مشروعة له.

ولذلك فإن دستور الحياة الاجتماعية والثقافية للمرأة في الإسلام، يحتاج إلى إعادة فهم وصياغة فكر لتأسيس مذكرات قانونية وأخلاق سلوكية، وحقوق اجتماعية تنسجم مع تشريعاته العميقة، كما أن هناك حاجة ضرورية للتفريق بين أنظمة قانونية نجح فيها الغربُ لتحقيق توازن عدلي لشراكة المرأة هو من صلب الشريعة.

وبين طغيان الانحراف والتطرف والشذوذ، الذي يضرب مجتمعات الغرب، وتقعّد عليه مفاهيم شاذة عن فطرة البشرية كالمثلية وغيرها، أو إلغاء مراعاة الأنوثة الأصلية كما الذكورة في طبيعة التجانس البشري، وتحويل العلاقة إلى آلة مادية، وكأنما البشر أضحوا مجرد روبوتات لا أرواحا ومشاعر وضمائر، تسعد بتجانسها الذي يؤسس على اختلاف جينات الذكورة والأنوثة.

خديجة في ميمنة النبي

(وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل ـ وكان ابن عمّها وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس ـ ما ذكر لها غلامها ميسرة، من قول الراهب، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه، فقال ورقة: لئن كان هذا حقا يا خديجة إن محمداً لنبيّ هذه الأمة، وقد عرفت إنه كائن لهذه الأمة نبيٌّ يُنتظر، هذا زمانه).

من قبل البعثة وتفاصيل حياة السيدة خديجة ﷺ، تقدم نمطا مؤكدا على طبيعة احترام الإسلام للمرأة، حقوقها في تجارتها واستقلال قرارها، طبيعة إدارة رأيها، شجاعتها، مبادرتها، نحو النبي، أول من آمن في هذه البشرية، تقدمها لدعمه، تدخلها لمساندته رعايتها له، وكل ذلك تم التأكيد عليه كتعظيم

خاص لها من لدن الرسول الأمين، وتأكيد على مساحته التشريعية، وأضف إلى ذلك السلام الإلهي العظيم الذي بُلّغ لخديجة.

لقد زكّى الإسلام مواقف خديجة وطبيعة شخصيتها، وثبّت شراكة المرأة في أعظم مهام عاشتها البشرية، وقبل البعثة جاءت قصتها في اختيار النبي ﷺ في معرض المدح وصراحتها في الرغبة إليه، كأحد الصالحين في مجتمعها.

كم أن رأيها وقولها وفهمها، تم تعزيزه بالقرآن، وعقلها المتقدم كان يساير الوحي في فهمه وهي تعلن له: (كَلا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ)

وذلك حين جاءته أمارة البعثة وجلجلتها الروحية الشديدة وتأثيراتها عليه.

وكان مقامها في الإسلام مقام مدح وتعظيم، ثم هذه الدقة في الوعي، سبب مبادرتها لابن عمها المسيحي، في فهم عميق لجسر العلاقة بين الحنيفيين، ثم تهيئة المنزل للرسول الذي يوحى إليه من السماء، ومالا تطيقه أجساد البشر إلا بتأهيل الأنبياء ورعايتهم، ومساندة الرسول العظيمة في تلقي المهمة، كل ذلك كانت به خديجة أمة وحدها.

أي أنها كانت المجتمع الإسلامي الأول، والذي يساند بقوته المعنوية وفكره رسول الأمة وهادي البشرية، وزُكي عقلها وزُكي رأيها وزُكيت روحها كأعظم النساء والبشرية في العالمين.

إذن: فالمرأة هنا شريك متقدم سبق الرجل كأبي بكر وعلي رضي الله عنهما، لخصوصية قربها من الرسول ﷺ ولم تُستثنى بالتأخير مطلقاً، وهو ذات السياق الذي مضت به الرسالة مع النساء المؤمنات، من أم عمّار (الشهيد الأول في صدر الإسلام) وإلى أسماء بنت أبي بكر، إلى رأي أم سلمة إلى الصحابيات المتعددات، وجدالهن في حقوقهن، بل إلى طبيعة شخصيتهن في المجتمع الأول، الذي حضرن فيه بشدة.

ولأن الشريعة متقدمة على الزمان والمكان، فكانت وصايا الرسول ﷺ للعناية بالنساء، والتحذير من ظلمهن تتواتر حتى ساعاته الأخيرة في الدنيا، وهو ما بُليت به البشرية والأمة الإسلامية ذاتها ونُحِل على الدين ما ليس منه.

إن طبيعة العلاقة بين المصطفى وبين السيدة عائشة من حيث شراكتها في الرأي وقوة تعبيرها، مع حب وود وتعظيم قلبي، لا يوصف للنبي ﷺ واحترام وأدب لا تفسده الممازحة، ولا رسائل الحب البيّنة بينها ﵂ وبين الرسول الأمين، يؤكد هذا المعنى البليغ لمكانة المرأة.

بل إن السيدة عائشة ظلت تؤكد في مروياتها على مفاهيمها نحو المرأة، وترد بشدة على تفاسير تقرن بحديث رسول الله ﷺ يفهم من ظاهرها النيل من المرأة، وتُزاحم الصحابة بقولها، حميّة على الدين دون تضليل أو قمع من مجتمع الراشدين.

مسألة نقص العقل والدين

لقد كان المنحى العام للمرأة هو هذه الشراكة الطبيعية المتواترة كنصف المجتمع للخلق البشري، وفتح ميدان شراكته، ولكن هناك طبيعة للخلق في التكوين الفسيولوجي للبشر، لضمان التكامل بين الذكر والأنثى، يفهم في السياق الكلي لمكانة المرأة وشراكتها.

ولا يوضع كنصوص منفصلة، يهوي بها واعظ غبي لم يفقه الشريعة، أو متطرف لائكي يجتزئ نصوص ودلائل الرسالة في حديث، أو حديثين من الآحاد، ويُلغي مساحة ضخمة من النصوص الأخرى وتطبيقاتها الواسعة في السيرة.

وهنا نطرح مفهوما مهما جداً، وهو أن ما تميزت به الرسالة الإسلامية وحجيتها على سلامة الوحي بالمعنى، بعد قيام الحجة البالغة للوحي القرآني على مدى التاريخ البشري، هو التمحيص الدقيق لنقل السُنة، وفلسفة الجرح والتعديل، والتي تقتضي منع أي تسرب للتحريف الذي ورد على أديان أخرى، لكنه هنا قد يُحيّد لدى بعضهم بعض الأحاديث الصحيحة لضعف السند فيما اتفق معناه مع صحيح ما أُسند، أو مع كليّات الشريعة.

وعليه فإن نقض كليّات الشريعة وكبرى يقينياتها، بظاهر نص من أحاديث الآحاد، مخالف لقاعدة التشريع الكبرى، وحسم الحِفاظ على صحة الوحيين، صحة مفصلة ومجملة، نصا ومعنى يرد عليها التفسير، وصحة للنقل والمعنى العام لما ورد عنه ﷺ مع اختلاف الراوي بين هذا اللفظ وذاك.

وقد لا يُردّ النص من أحاديث الآحاد، إذا خالف كليات الشريعة وإنّما يُفسّر ضمنها إن كان له تفسير، مع أن من عناصر رد الحديث لدى الحفّاظ مخالفته لأصول الشريعة، وأنه قد يَرِدُ على الراوي تبديل لفظ بلفظ موهم، وفي يقينه أنه اللفظ المنقول، دون أن يدرك خطأه، والحقيقة أن التأمل في هذه المرويات، يعطي دلالة واضحة بأنه لا غضاضة فيها لو فهم أكثرها في هذا السياق.

وإن ما ورد عن النبي ﷺ في نقص العقل، جاء كتوضيح وتحفيز للرجال لفهم جانب الخلق الآخر لدى الأنثى وهو غلبة العاطفة عليها، كما هو حظها من التعبد الديني، في أيام الطمث، فلا يَنقص من أجرها أمام الرجال شيء.

ولكن خصوصية التكوين للمرأة، تقابِل خصوصية تكوين للرجل، فالنقص في الإدراك عند اشتعال العاطفة وارد جداً ومدرك حسيا، ولا يعطي فضيلة تقوى للرجال، كما أنه لا يُقصي المرأة من شراكة رأيها وموقعها، وإنما يُقدّر هذا الأمر بقدره، حين يؤسس نقل المعلومة والشهادة عنه وعنها.

وكل الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية، للصدر الأول وما أعقبه في عهود الراشدين، تثبت هذه الشراكة وحيويتها في مجتمع المسلمين، وإدارة حياتهم، وتبعا لذلك تشارك المرأة بحضورها في هذه المعاهد والمواقف والمناصب.

لكن ليس من باب الإلزام ولا الجبر ولا القهر العاطفي لإثبات ذاتها بل حسب حاجة المجتمع وتنوعه الفطري، كما أن رسالة المرأة لواجبات الأمومة والزوجية، لم تُلغِ أبداً في تاريخ الصدر الأول حقها في الرأي السياسي والشرعي ومنزلتها الاجتماعية، ولم يُنظر إليها على أنها قاصرة عن الرجل أو المرأة ذات المنصب.

التكامل الآخر بين الرجل والمرأة

خديجة البعد الاجتماعي والتكامل العاطفي

كل علاقة النبي ﷺ بالسيدة خديجة كما السيدة عائشة، تقدم نموذجا رائعا من حميمية العلاقة بين الزوجين وذوق العشرة ووجدان الوفاء الذي لا مثيل له، في سيرة النبي ﷺ ولك أن تتصور كيف يكون موقف المجتمع من رجل أهدى

لصديقة زوجته الراحلة وفاء لزوجته، فهو اليوم لا يُقبل عند كثير من مجتمعات المسلمين، وقد يؤوّل خطأً فيما هو من فعله ﷺ.

وهو منتهى الأدب والذوق وأرقى درجات الأخلاقيات والوفاء، ولم يتراجع عنه حتى مع احتجاج السيدة عائشة رضي الله عنها، وبقي وفيا لها ولكل رمز حملته خديجة.

(ولما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها. قالت فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا. فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها)

لقد ظل قلب رسول الله وفياً حنوناً لذكرى السيدة خديجة، يعظّمها لدرجة إطلاق صهره المشرك، الذي أرسل لفدائه عقد خديجة المهدى لابنتها وابنته زينب، حين قدمته زينب لفدائه في أسارى بدر، لكنه قرر أن يحيل الأمر لحساسيته إلى شورى المسلمين، فأقروه وأطلقوه وحينها انضم ابن أبي العاص بعدها لركب المسلمين مختاراً.

هذا الجمع بين المرأة الشريك العقلي والوجداني والعاطفي، والمراعي لمساحة الأنوثة المقابلة للرجل، يمثّل قمة فلسفة التشريع الاجتماعي ومصالح المنزل والمجتمع والأمة حين يتحقق، لكنه تكامل شامل لا يجوز الإخلال بطرف منه والتركيز على طرف آخر.

هل عُزلت المرأة في عهد الرسالة؟

هذه الحيوية في تداخل المجتمع الإسلامي وشراكة المرأة والرجل في نظام العفة، والتقوى الذي يَترك مساحة للضمير، وإن وقعت معاصي تعامل معها بفتح باب التوبة لكليهما وتجنب العلن، إلا من وضح فعله أمام ما يمثل تسربا جليا للرأي العام وضُمِن أنه ينتشر بين الناس، فجعل عليه قصاص وحُصِّن تنفيذه بالشبهات.

بحيث يُضمن أن من رأى واقعة إخلال غير أخلاقية بين الجنسين واضحة تماماً، فليتحدث إلى الطرف القانوني ولا يُشهّر، فإن لم تكن واضحة فيُلزم

بالصمت أو تقعُ عليه هو العقوبة، لتناول أعراض أشخاص ربما وقع بعضهم بالفعل في الفاحشة لكن الشرع أسكته عنهم، وحفظ سرهم لعفة المنزل والمجتمع.

أمرٌ مذهل في دقة التشريعات لضمان استقرار المجتمع وسلامة علاقاته، وسكن بيوته حتى لو ضم في داخله بعض التجاوز، فيما شُدد على الضمير الإيماني، أي أن الفلسفة هنا واضحة جلية لا تطارد الناس ولا تكشف سترهم، وتترك لهم مساحة للتوبة فيما هو معصية جلية، فما بالك في المختلف فيه من صور وطبائع البيئات بين المسلمين.

ولم تكن فكرة العزل القهري موجودة أبداً، ودلائل السيرة واضحة في هذا الشأن، لا يُغيّرها لي أعناق النصوص وابعاد نصوص أخرى، هناك مساحة من الاختلاط المحرّم تم توضيحها، لكن ليس في فقه الشريعة كل لقاء بين الجنسين في عمل أو في مسار اجتماعي أو غيره، ما ينص أنه اختلاط محرم، فكيف حين يوصف من يمارس ذلك ضمن قوانين مجتمعه، بأنهم عصاة ويشهّر بهم ويطاردون.

إن جزءً من إشكالية العلاقة بين المرأة والرجل في العهد الإسلامي المعاصر، نتيجة اتجاهها للتفسير التلموذي المنحرف الذي يُشيطن المرأة، ورُبّيَ الناس من منابر بعض الوعاظ، على هذا التفسير التلموذي فظنوا أنه الإسلام، وهو خطأ بالغ وفي هذه الحالة قد تُبلى بعض المجتمعات من جرّاء العزل القسري على كل أُنثى في مساحات الحياة بثقافة مضطربة، يصعب تقديرها، وتصعب معالجتها، لكونهم اتبعوا طريقة بني إسرائيل في فرض التشريعات التي لم تشرع، فتعقّد حالهم وتعقدت مساحة المعالجة.

وبكل تأكيد إن هناك صورا اباحية فظيعة تنتشر في مجتمعات غربية وبين بعض بلدان المسلمين، تُسقط حق المجتمع، في الاحتشام الواجب، المعالج للغرائز، والذي يحمي المجتمع من فوضى الإثارة الجنسية، وتثوير المشاعر بين الذكر والأنثى وهي الصيغة الخطرة في فكرة إسقاط الحشمة والعفة.

والدفع الذاتي لاختلاط إلزامي يجر المتاهات، وهو مدار الانحراف الذي ضرب الكنيسة المسيحية أمام ضغط غريزة الجنس في العهد الغربي المعاصر،

والتي سميت حقوقا، وهي في الحقيقة آثام تهدم العلاقة الحميمية المفتوحة بين الزوجين، وتشعل المجتمع بغرائز لا قيود لها.

والأصل أن التوازن في فقه الشريعة وعلاقة المرأة بالرجل الذي تضج به السيرة، مسارٌ معتدل يضمن انسيابية فطرية، وقضاء مصالحهم المشتركة، واتباع الآداب لدعم المجتمع قبل الوصول إلى مرحلة العقوبة، وهو ما يتفق مع طبيعة الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها.

الإنسان الرائد ومرحلة البعث

الأمين الصادق الذي عرفته مكة

(كان النبي ﷺ موضع ثقة قريش ومحط أمانتها وأسموه الأمين، وحين بنيت الكعبة بعد هدمها لإصلاحها مما تعرضت له، من الأجواء وطول العهود، رضيت قريش بكل قبائلها محمدا رسول الله قبل بعثته حكماً في شأن الحجر الأسود وشرف وضعه في ركنه، بعد أن اختلفت فروعها في ذلك، وكانت لا تتهمه أبداً في رأيه، ولا في صدقه.

يقول ابن هشام:

إن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ـ وكان عامئذٍ أسن قريش كلها ـ قال يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه. ففعلوا، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: «**هلم إلي ثوباً**» فأتى به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال: «**لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً**» ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بني عليه).

مع تواتر أخبار النبي ﷺ في مصادر أهل الكتاب والتي فصلنا فيها سابقا، فإن تهيئة أخرى أو مرادفة جديدة لطبائع الأنبياء وأخلاقياتهم كانت تزدحم في مكة.

مكة ومصلحها الاجتماعي

لقد تعاقبت السير وأخبار الرواة وكل ما نُقل عن العرب، دون أي مصدر

يقدح في الروايات، حتى غدت مسلمة تاريخية فضلاً عن تأكيد نصوص الوحي، أن النبي ﷺ كان مركز القدوة للتسامي الاجتماعي والأخلاقي والإصلاح بين الناس.

وكان مظنة الخير في كل مجتمع مكة المدني، بل والأعراب الذين يقصدونه، فهو محل الثقة للودائع وحسن التعامل مع كل الشرائح، ونبيل المروءات وسيد الصفات الذوقية، وأكبر من ذلك محل الرأي الرشيد والسديد، لمجتمع مكة رغم كل صناديدها الأكابر.

الأمين يحسم خلاف الكعبة

وكان ﷺ محل التوجه المباشر والتسليم من أهل مكة لحسم الرأي، وحين دخل عليهم في ظل نزاع قريش بعد إعادة بناء البيت العتيق، رضوه فوراً وارتاحوا لكونه سيحسم، واطمأنوا إلى ذلك، رغم أنه من أحد بيوت الزعامة والمنافسة في قريش لفرعه الهاشمي.

لكن حجم ما عايشته قريش معه طوال أربعين عاما قبل بعثته، كان يؤكد لهم عدالة توجهه وإنصافه، فجَمَع أركان قريش في ردائه ليكون لهم شرف الرفع للحجر الأسود، في مهمة الختام لبناء البيت الحرام، وبيديه وضع الحجر في ركنه العظيم.

أي أن ذكره بين الناس المجمع عليها، بل وتزكيته حين صاحوا رضينا محمدا، كان بلاغا حجة للمؤمنين بصدق الرسالة وعلى المكذبين، لأجل عنتهم وتكبرهم على الحق.

المساهمة الإيجابية في مجتمع الكفّار

لقد حملت سيرة النبي ﷺ دروساً عديدة في أن الموقف الإسلامي الأول وحياة الأنبياء، لا تختلف قبل البعثة عن المصلحين الاجتماعيين الكبار، لكنّها وهذا هو الإشكال الذي طرأ على تفسيرات بعض المستشرقين، ليست بديلاً للنبوة ولا مظلة لها، وهذا مستفيض في الدروس التفصيلية، وفي نزول الوحي وقطعيات تحديه الكبيرة، وفي الفرق بين المصلح وحدود عطائه وبين الأنبياء ورسالة بلاغهم، وخصوصية البلاغ للدارين.

والجمع للنبوة ولخيرية الإحسان لتكون جسور ود وتواصل بين المجتمع البشري وحصيلة حسنات للمحسنين، في الدار الآخرة حين يتقدمون لدرب الإيمان الكبير، لا يمنع من أنه ﷺ كان قائدا اجتماعيا مصلحا قبل البعثة، لتكون شخصيته ضمن المهيئات للمجتمع، لمعرفة حسن سيرته وسلوكه بين الناس والتفكر فيما أُنزل عليه وبعث به.

الاتفاق المدني مع الكفّار

وهذا يقودنا إلى مسار مهم، وهو ما دور المسلم في مجتمعات الكفّار؟ ثم.. ماذا لو قبل أي مجتمع أن يشارك المؤمنون الحياة الاجتماعية معهم؟ ويحافظون على صلاتهم ويُسمح لهم بعرض دعوتهم، ماذا يعني قول النبي ﷺ: **«يا ويح قريش ما ضرهم لو خلوا بيني وبين الناس»**.

الناس كل الناس، يسمعون دعوته، ويتفكرون فيها ويختارون أو يرفضون، إنه مبدأ عميق وعظيم، وكانت دلائله تترى في حياة النبي ﷺ عند كل من أرسل إشارة لقبول هذا التوافق، غير أن المشركين عاملوه حربيا، وشنّوا كل بأس عليه وعلى أصحابه، ولم يعطوا للناس فرصة.

فماذا لو قبل مجتمع كافر من المسلمين هذا التوافق؟ فما هو دور المسلمين فيهم، وفي خدمة المجتمع المشترك الذي قبل بهذا العهد المدني؟

هل الحكم محاربته من الداخل، وهل يعامل من قَبِل بالتوافق بذات الفقه الذي شُرّع للحربي الشرس على المسلمين؟ بالطبع لا.

فهذا مسار مختلف ومعاكس بين الحربي المشرك، والمدني الكافر المتوافق مع المسلمين.

هذا الإعلان في مقولته ﷺ يا ويح قريش، وكل مفاوضات النبي ﷺ المباشرة أو من خلال أبي طالب، كانت تنزع لهذا السياق، لكن قريشا لم تقبل، لأن لديها شعورا بأن حركة الدعوة ستتمكن وتأخذ مدراها، لأنها تُنصف المحرومين وتعلي العقل والتفكر، وتمسح الصلف عن القلب فتنتشر معالم روحية، يتهمونها بالسحر والشعوذة، لأنهم لم يستطيعوا هزيمتها فكريا، فحاربوها بالسيف، وهي تمد لهم سعفة النخيل المقابل في أرض العرب لغصن الزيتون، لبلاغ النبيين وهم يرفضون.

ومؤكداً أن للنبي ﷺ منهجا مع المعادين الشرسين الظالمين، لكن ذلك لا يُلغي سمات هذا الخطاب للتوافق وحقائقه، وإن تكرر في أي زمن، ولا يوجد مطلقا دليل ينسخ هذه القاعدة من كليات الدين والتي سيأتي في السياق ما يؤكدها.

الروح وحمل المهمة العظمى

(روت السيدة عائشة ﵂: أن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من النبوة الرؤية الصالحة، فكان لا يرى رؤية إلا جاءت كفلق الصبح، وكان قبل ذلك يخرج إلى التحنث والتعبد في حراء، فيمكث شهرا كل سنة، قبل بعثته، وحين جاءه جبريل ﵇ بالوحي، كان ذلك في حراء)

لقد كان تواتر مشاعر التحنّث أي التعبد في روح النبي ﷺ مساراً طبيعياً لروحه الرافضة لخرافة الشرك والفطرة التي تشعر بالإيمان بالخالق، فتزداد لديه مساحة التعبد الذاتي، دون إرشاد محدد، وهي تهيئة لرسالة كبيرة، يحملها الأنبياء وهنا هي أعظم ما حملوا، فهي مذكرة بهم كلهم، وهي خاتمة البلاغ لنجاة البشرية.

وكنْهُ الروح التي تحدثنا عنها، هو معيار مثل هذا التحمل لما يلاقيه الأنبياء صلوت الله عليهم، ولذلك كان يتردد على حراء، ويتمتم بعبادته، التي تملأ روحه المؤمنة بالله دون أن يدرك مقصد النبوة القريب، وحين يتنزل روح القدس فجأة عليه، في حساباته وتضطرب مشاعره، فإنها تلك اللحظة الخارقة التي لا يمكن تصورها بين لقاء مبعوث الخالق القدوس ورسوله إلى البشرية.

وروح القدس يأخذ به بجد، وتتابع حتى يُسرّى عنه التسرية الأولى، وينقل لنا تفاصيل ذلك، لكون الصدق والحقيقة هي معيار قصة الرسالة ومبعوثها، بكل أريحية، ودون تكلف، فالبلاغ الذي حُمّلَ لرسول الله، فيه من الحجج ما يقيم كل عقل على جادته.

فقط.. يتفكّر ويتدبر ويعقل الإنسان، إنه غيب غير منظور، لكن دلائل وجوده في كل مشهود، وقصة خَلْقِهِ، في نسمات خَلقه:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩].

من أنشأها؟ من سوّاها؟ جواب حاسم، لا يوجد في الكون رسالة تشرح تفاصيله إلا في القرآن الحكيم، لتستدل آيات الذكر بآيات الخلق وتكتمل ببساطة عميقة وقوية قصة الرسالة والخلق.

لكن هذا المدد الروحي، هو التهيئة لطاقة عظيمة يبذلها الأنبياء، فيما لا يُطلب من بقية البشر، إلا التفكّر في دلائل النبوة والقبول بقرار سعادة الدارين، ومعالجة المحن والتحديات من خلالهما.

وفي الميراث الأزلي، عدالة السماء ستُعطي وتبارك على الأرواح المضطهدة، وكأنما مر بها ساعة من نهار بل أقل من ذلك.

إن دلائل وجود الخلق الآخر الذي جعله الله لمكافأة المؤمنين ثم محاسبة المقصرين، رتلا من الزمن بحسب ما يراه الإمام ابن تيمية، حسب نقل ابن القيم، ونقل عن متقدمين وان بسند فيه ضعف، وموافقة لعلماء متأخرين، والله فعال لما يريد، وأنه خلود دون خلود، كما تقتضيه أسرار عدالته، في حين يدوم نعيم المحسنين، إنما يأتي الإيمان به تبعا للمقدمات العقلية والروحية وحجة الوحي، فحين يؤمن الإنسان بهذه التراتبية، بعضه بصورة بسيطة وبعضه بفلسفة عميقة، يؤمن بما نقل إليه وما استشعره من عدالة الله خالق الأرض والسماوات.

والأرض اليوم كما كانت من قبل، لم تجد ولن تجد تكاملية منطقية كما هي المعادلة الإسلامية، ودقة فهم الشارع للإنسان ومشاعره وغرائزه وأسئلة عقله وقلبه.

وانحراف فئام من المسلمين، عن مقاصد الفطرة، يعود لتركهم فكرة الحق البسيطة وبيان نصوص التنزيل العميقة، كما أن قضية تحريف الوعّاظ، لصورة الدين هي مرادفة لتحريف بعض الرهبان والكهّان كما جاء في تحذير النبي ﷺ.

وما يصدر منهم لا يردّ به على الدين، بل على حماقة المزورين أو غبائهم، كما أن مصير الناس وحجم الإيمان الذي يقبله الله في قلوبهم، دون مرحلة الشرك البيّنة القطعية في داخل النفس.

ليس إلى أولئك الوعّاظ، بل إلى الله ورسوله، والراسخون في العلم يؤمنون به، وبما أُنزل عليهم من رحمة ربهم، فحاشاه أن يكون رباً للانتقام، بل ربُّ العدالة كتب على نفسه الرحمة، وإنما ينتقم من المسرفين بقدر ما أثخنوا في عباده الصالحين.

الرهط الأول
وأول مجتمع للنور الإسلامي

مع أن النبوات متكاملة متفقة المعتقدات والأصول، وأن المؤمنين بها أمة واحدة، لكن ما طرأ على البشرية من تحريف للحنيفية عبر وسائط الإرهاب المادي لدول مستبدة بظلمها وكفرها بالخالق، حاربت ميراث الأنبياء الذي أمر الله بتجديده، فكانت البعثة في مكة مع النبي ﷺ أذانا من الله ورسوله للمؤمنين بتشكيل نواة المجتمع النوراني الأول.

ومع إسلام أبي بكر الرجل الأمة في ميزان البعثة، وعليٍّ الفتى الفدائي العظيم، وجملة من أصحاب رسول الله من أواسط المجتمع، معهم رهط من المستضعفين فيهم بلال، وسمية أول شهداء البلاغ الإسلامي في المعمورة وابنها عمّار بن ياسر وزوجها ياسر، وكان البناء الروحي متينا وحجم التضحية كبيرا، وكان المحرومون المعذبون، هم صفوة الفداء.

وأول قيمة زرعها الإسلام بعد التوحيد، تعظيم وحدتهم وإخائهم، بين عبد وحر، وإسقاط الفروق ودمجهم في الكتلة الإيمانية، وكان أبو بكر هو القائد الطليعي لإنقاذ كل من يستطيع من إخوته الجدد، سِوى أن ضريبة الفداء والتكرمة الأولى كانت تزحف للمحرومين، والرسول يمر بهم وهو يعتصره الألم، فليس من سبيلٍ لنجدتهم المادية، وقد أوضح لهم بحب وجلاء ما سيواجهون، فاختاروا الله ورسوله وحرية الكون الكبرى، وكانوا فداءً لها.

وأن تكون طليعة الفداء من المحرومين المعذبين في الأرض، ومن النساء المسلمات، هي دلالة أن هذا الدين بليغ، في معادلة الحقوق قريب من المستضعفين، يُصدّرهم في قصة رسالته، ولهم عند مشهد السماء أعظم المنازل والقربات، كما أن الدعوات الصادقة أمام بغي الظالمين، لا يمكن أن تتحقق دون نزف الشهداء، وإن كان ذلك ليس مطلباً ما دام هناك فرصة للنجاة وسنفصله في موضعه بعون الله.

البناء التأسيسي لأول تجمع إسلامي

(ورد في السيرة: أن النبي ﷺ كان يجتمع مع أصحابه في دار الأرقم بن أبي الأرقم، قبل الجهر بالدعوة، وذلك مخافة بطش المشركين، فيجلسون إلى رسول الله يتعلمون أمور دينهم ويتدارسون أمرهم مع بأس كفار قريش).

دار الأرقم وتكتل المسلمين الإداري والسياسي

لقد كان ميلاد البعثة النبوية في ظروف حصار تاريخي، وتنكّب لبشائر النبوة في رسالة موسى وعيسى، من كثير من الأحبار والرهبان، وشراسة مواجهة أعلنتها قريش من أول معرفة، وهيمنة عالمية بين ديانة مغرقة في الشرك والخرافة وهي المجوسية التي ترعاها دولة فارس، وبين الروم الذين حرّفوا معالم رسالة السيد المسيح، وانزوى الصادقون من الرهبان والقساوسة إلى أديرتهم يتعبدون الله، وينقلون لمن يستطيعون أصول الحنيفية في رسالة المسيح.

وأمام ذلك البغي المباشر، كان هناك ضرورة لصناعة مجتمع إسلامي، منفصل عن هذه الهيمنة المستبدة، التي لم تراع قيماً ولا مواثيق عهود إلا في مواقف قليلة تحركت فيها نخوة من قريش وأحلافها، خشية العيبة عند العرب، وهي مواقف إذا ما قورنت ببعض البغي الذي يعيشه المسلمون من جراء الاستبداد المتطرف وذراعه الأمني، قد تكون أفضل حال للمسلمين في العهود المتأخرة.

لكن الحملة بالجملة كانت صارخة العداء والبغي، قاسية ظالمة للمستضعفين ومن ليس له جاه أو توازن أو مال، فيردع البغاة عنه، حسب أعراف قريش والمناطق العربية.

فعمِل النبي ﷺ على تكثيف التعاليم الرسالية لهذه الصفوة لحمل البلاغ الكبير، وحاجتهم للرابطة الإسلامية الموحدة، وقد كانت بعد ذلك نواة المجتمع ونواة تأسيس الدولة الإسلامية، وإطلاق جغرافيا البلاغ للرسالة النبوية.

الجماعة والمجتمع المسلم بعد النبوة

هنا تبرز لنا قضية مهمة، وهي أن الرسالة بدأت بتكوين هذه الجماعة المؤمنة بالله ورسوله، ومهمتها العظيمة، فهل هذا يعني تأسيس جماعة بذات التقعيد الشرعي، أو مقاربته بعد انتشار الإسلام وانتشار مساحته في أقطار الأرض، ثم تعرض المسلمين لنكبات كبيرة وبغي من مؤسسات حكم، وتفكك المسلمين أو تقصير أخلاقي وسلوكي، سهل اجتياح أرضهم.

حول استنساخ الحركات الإسلامية: فكرة الجماعة المؤمنة

هذا الدرس هو أحد مسارات مراجعة السيرة النبوية وفهم دلالاتها العميقة، ومن المُسلّم به أن إنجاز أي مشروع أو هدف أو خطة لأي فئة من الناس، يحتاج إلى تنظيم إداري يجمعهم ويرتب مهامهم، وينسق آداءهم، وهو كذلك في أي مشروع إسلامي، كما أن طبيعة البشر أن تتكتل مع بعض وتنسجم وتتحد في المشروع أو المدار الذي اتفقت عليه.

بين جماعات الفكر وجزر الصراع

وكان مبكراً في العهد الإسلامي بروز جماعات تعتني بمسالك الفقه ودلالاته، والتي رُسّخ أكبرها في المذاهب الفقهية الأربعة، ومذهب داوود الظاهري، ومذاهب مختلفة من المسلمين، كما أن جماعات التربية الأخلاقية، هي كذلك حين تشكلت في طرق للتربية الروحية للتصوف، بعضها التزم بمعايير الشريعة، وبعضها تناوشه الجهل والمصالح، فانحرفت به الجادة.

جماعةٌ من المسلمين لا جماعةَ المسلمين

أي أن تأسيس أي جماعة تعتني بشأن إسلامي هو أمر طبيعي، لا يلام الناس عليه، لكن المشكلة هي أن تطغى مساحة التكتل فيعتقد كل طرف منها أنه على الحق الظاهر وأن بقية المسلمين على باطل، أو يجب أن يكون بقية المسلمين في معية الركب لهم، دون غيرهم من الناس.

وهكذا تتحول ميزة التعدد الفقهي والروحي والتربوي والفكري والدعوي، إلى جزر معزولة متصارعة، لا مسارات وعي وفقه وتأصيل ومناقشة يستفيد منه المجتمع المسلم ودول المسلمين ومجتمع الإنسانية الكبير، حين تكون معاهد علوم لمئات السنين، تناقش وتوضح وتصحح، والناس عيال على هذا التراث.

السياسة ومصالح المجتمع المسلم

وحين يدخل العنصر السياسي أو التفكير به.. يزداد الضغط في هذه التكتلات، فتتحول الفكرة مع الوقت إلى أنهم جماعةُ المسلمين، لا جماعةً من المسلمين، وتنسحب مواقفهم في أتون الصراع السياسي، لتتحول وكأنها صراع بين مجتمع مسلم، وآخر غير مسلم وإن كان هو مجتمع مسلم بغالبيته، مع أقلية جوار.

وليس المقصود هنا، تحديد النقد لجماعة بعينها وإن كان الإخوان وقعوا في هذا الخطأ، مع أن الإمام حسن البنا كتحليل فكري لا رؤية عن التنظيم، هو أحد أبرز رواد التجديد بالتبشير الإسلامي.

وهو التجديد الذي فتح آفاقا للفكر الإسلامي المعاصر مع د. مصطفى السباعي، وميراث حركة الإحياء الإسلامي التي سبقتهم، في تتالي من عرب وعجم، خلال المائتي سنة قبل سقوط الدولة العثمانية، وبعدها.

وقد أشار البنا بذاته بوضوح إلى هذا المفصل وقال نحن جماعةٌ من المسلمين لا جماعةَ المسلمين، لكن هذا المعيار لم يكن واضحا بالقدر الكافي عمليا، وفي التدريب السلوكي، والممارسة السياسية لبعض نماذج الإخوان.

لكن القضية ليست مرتبطة فقط بهذه الجماعة أو تلك، بل تتلبس بها عمليا وإن لم تقلها جماعات كثر، وهي زاوية وقعت فيها بعض المدارس السلفية، فضلا عن مفهوم السلفية الطائفية، التي خلقت في ذاتها أفكاراً ثم مجتمعاً ثم قوةً وصارعت المسلمين عليها، معتمدة على تفسير خاطئ لحديث الجماعة المختصة بأهل السنة، دون غيرها.

ومرة أخرى نقول إنّ مسالك التخصص وجماعات الدعوات المختلفة، بما فيها جماعات صوفية، لها ما يناسبها من أدوار ومراجعات وتذكير فقهي، لكن المشكلة هي في اعتقاد احتكار الحق ومنابذة بقية المسلمين دونها، أو الاستعلاء عليهم باسمها، وعلى مدرسة أهل السنة، فضلاً عن أهل القِبلة.

إذن درس دار ابن أبي الأرقم الذي اجتمع فيه رهط النبي ﷺ وتكتله الإيماني، يؤخذ بالعزائم لتحقيق مدار وهدف مدرسة هذا الشيخ والجماعة، وليس بالتشريع الخاص بها فيُلبَس حكمها على حكم جماعة المسلمين في عهد سيد المرسلين.

السياسة والدعوة

وهناك ظروف واسعة ومختلفة تمر بها أطراف الأمة وشعوبها، في المعمورة، تُكيّف أحكامها بحسب الظرف الذي تعيشه، لكن دخول العنصر السياسي حسّاس جداً على هذا المفهوم، ومباشرة النشاط السياسي عبر تشرب قاعدة الجماعة المسلمة، يؤثر على العلاقة بين الجماعة الدعوية والمجتمع المسلم، الذي تعيش فيه.

والتجربة القاسية التي مرت بها المجتمعات العربية المعاصرة، تقدم دلائل على تمكن هذا الشعور، وهو أن موقف الجماعة الدعوية - أيّ جماعة دينية كانت - السياسي هو موقف المسلمين، وموقف غيرها هو موقف غير المسلمين، وهذا يثبت إشكالية خوض العمل السياسي في المجتمع المسلم عبر هذه الازدواجية، والتي قد تقوم على اجتهادات خاصة وأفكار ومصالح مشروعة أو ممنوعة للتكتلات السياسية، وليس أحكاما إسلامية قطعية.

في المقابل فإن أحكام العمل السياسي أو مفاهيمه أو مشاركة المجتمع المسلم، أو مجتمعات الأقليات وغيرها، له ميدانه الواسع في السيرة النبوية في مفاوضات النبي ﷺ وفي وثيقة المدينة، وفي عقود حلفه ورسائله وغيرها، ومساحة الاجتهاد واسعة، وليس كما يُظن، وهي هنا تطرح للمجتمع المسلم في هذه الدولة أو تلك، لا جماعة الدعوة الخاصة، وتنظر فيما يصلح شأن بلادها وكل مجتمع.

لقد أَسست حركة العباسيين دعوتها للبيعة للرضى من بني العباس، واتجهت لتأسيس جماعة تأخذ شرعيتها، دينيا دون المسلمين، بحجة رد العدل الذي ضيعه بنو أمية، ولكنها وبإجماع المؤرخين، تحولت إلى استبداد وظلم أسوأ، بعد جولة انتقام دامية أخذت مسمّى الخلافة.

ولم تكن خلافة على منهاج النبوة مطلقاً، بل استبداداً، وإن حوى زوايا ومنعطفات إيجابية، وهذا الفصل ليس مجالا للبحث في إيجابيات الدولتين الأموية والعباسية وسلبياتهما، لكن في التأكيد على خطورة استخدام الجماعة في إطار سياسي دون مجتمع المسلمين اتكاءً على فهم رسالة دار الأرقم في صدر الإسلام.

وزماننا اليوم أحدث مسارات مختلفة وتجديدا واسعا في جزء كبير منه، هو من مشتركات الإنسانية، والتنظيم لصناعة ميثاق التوافق بين مواطني كل دولة أو الحقوق العامة لأبناء الأمة، ليس فيها ما يخالف الشريعة، فكيف إذا كان الصراع أو التنافس السياسي بين المسلمين أنفسهم، فهنا يتوجب أن يكون الجسم والهيكل السياسي موجها للجميع كاجتهاد سياسي، وليس كبلاغ ديني يفرز المسلمين في دينهم بحسب الانتماء إلى هذا المشروع أو ذاك.

إن الصلَف والعنف والإرهاب الذي تمارسه قوى التجبر في المؤسسات

الرسمية، والتي عانى منها أجيال من المسلمين، بعضها في عهود متقدمة وازدادت بعد تشرذم وتقسيم الشرق الإسلامي، هو بغي وظلم بيّن، لكن ذلك لا يؤَسَّس له كيانٌ سياسيٌّ خاص، مُحصّنٌ دينيا دون بقية المسلمين، بل يُطرح في دائرتهم الإسلامية الكبرى، ومواطنة دولتهم وأمتهم، وبحسب أصول التنافس الشريف دون تكفير، حين تتاح له فرصة لطرح مشروعه الشامل للمجتمع.

وتطرف أي قوى مناهضة للإسلاميين وبغيها عليهم، لا يُسقِط هذه القواعد الأصيلة في الاستنباط وفرز الحكم عن الفتوى وعن الاجتهاد في فهم السيرة النبوية وفهم تنظيمها الراشد الأول وخصوصيته النبوية، المبعوثة لكل البشرية.

الإعلان العام
لتبليغ الرسالة والكفاح المدني

انتهاء مرحلة البناء للدعوة الخاصة

مكث النبي ﷺ سنوات يؤسس لمحضن الدعوة، وبناء القناعة الإيمانية الكاملة والتوجيه الروحي للمجتمع المسلم الأول، الذي التزم كلياً بالتوجيه الإلهي والإرشاد النبوي، حيث لا يمكن أن يُصنَع جيل الإسلام الأول في ظل مواجهة وردع مباشر من المعتدين على حرية البلاغ، لخطاب الرسالة الإسلامية.

استقصاء شامل لكل أسباب البقاء

وكان ذلك ضمن رسائل متتالية مهمة، بأن خط صناعة جيل الرسالة يأخذ بالأسباب المادية مع حسن توكله على الله، فهنا كل وسائط تجنب المواجهة بُذلت، بل وسعى الرسول ﷺ لإقناع قريش بأن يتركوه يبلغ رسالته وليس له من الأمر شيء، لكن دون أن يتنازل عن أيٍّ من مفاهيم الدين وقواعد الرسالة.

إن خلق مستوى من المصادمة في وضع غير متكافئ، لا يوجد ما يؤيده مطلقا، نعم هناك مساحة متاحة للفرق بين حجم القوتين في فريق الإيمان وفريق الطغيان، لكن لا بد من وجود قاعدة لهذه القوة المؤمنة، وليس إلقاءً بها في كل صراع.

لكن الأمر يتحوّل إلى الكفاح المدني لتحقيق رسالة البلاغ، حتى ولو كلف خسائر وآلاماً، ففي النهاية دعوة الله وخطاب الرسول للإنسانية لا بد أن تعبر هذا الحصار، ولذلك أذن الله لرسوله ﷺ بالجهر بالدعوة بدلاً من خصوصية

المخاطبة، حيث لم تكن الدعوة للإسلام سرية بالمعنى الحرفي وإن كتم نفرٌ إسلامهم، لكنها مخاطبة خاصة وشخصية في بداية البعثة.

وحين تشكلت النواة وقوي عودها الإيماني، أعلن رسول الله ذلك، واتبع توجيه الحق بإنذار عشيرته الأقربين، ثم كل قريش وكل الناس، وهذه تُرّد إلى أن دعوة الداعي لمجتمعه الخاص، لدى العرب تعتبر شفافية ووضوحا، قبل أن يطلب من الناس قبول الرسالة الجديدة، كما أن في أصول النظام القبلي المهيمن تعتبر تراتيبية مسؤولة ليتبلغوا الخطاب، وينزع من حجتهم أنهم لم يسمعوا به.

الوصول إلى المنابر يزعج الطغاة

وبرغم سابق علم الله أنهم سيصمّوا سمعهم عن صوت الحق والبلاغ المبين، إلّا ان كل وسائط المخاطبة طُرحت عليهم في مرحلة الجهر بالدعوة، ومع أن قريشا بدأت حملتها بمطاردة المسلمين مبكراً، إلّا أنها كانت تخشى من وصول خطاب النبي ﷺ إلى العلن، فقد كانت تعلم جاذبيته الطبيعية بحكم تسلسل أفكاره وسهولته وقربها للمشرك الوثني العربي، الخالية من هرطقات الانحراف الفلسفي.

رغم كل الخرافة المهيمنة، لكن عقلانية البلاغ، وأصول فكرة الدين البسيطة، تصل مباشرة إلى شغاف الأعرابي، وهم من كل القبائل في محيط مكة، وبالتالي الخشية من انتشاره لما وقر في قلوبهم من أنه الحق، وكثرة المنتسبين إليه، تعني لهم تهديد مصالحهم، فاستنفروا طاقتهم لحرب هذه المرحلة.

أبو طالب: السد المنيع

(يقول ابن هشام: مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فإما أن تكفّه عنّا وإما أن تُخلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً وردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه)

ظل أبو طالب سداً منيعاً أمام كل المحاولات الشرسة للنيل من

المصطفى ﷺ والتزم النبي ﷺ بهذا الحصن المنيع ضمن النظام الاجتماعي القوي في قريش وقبائلها، أي أن رسول الله لم يرفض هذا الدعم، بل سُرّ به وظل يثني على عمه الوفي (أبو طالب)، حتى بعد موته.

التعاطي الحقوقي مع الآخر

وهو في حد ذاته جزءٌ من قواعد التعاطي مع الأنظمة الحقوقية للمجتمعات، والاستفادة من القوة الحامية لها، رغم الاختلاف في الدين، كما أنه تعظيم لشأن القرابة، وفتح الجسور معها، ما استطاع الإنسان المسلم لذلك سبيلاً، وإن كانت قرابة مخالفة للمنهج، وتقدير ذوي المروءة وشكره لا منابذته، والتضييق عليه لعدم إسلامه أو حمله لفكر منحرف.

استخدمت قريش في وفود متعددة كل وسائط الترغيب والترهيب، لإقناع أبي طالب، وتزامن ذلك مع إطلاق حملة إعلامية شرسة ضد النبي ﷺ وتثبت الروايات دلالة اختلاقهم الكذب، وإيمانهم الداخلي بأنه ﷺ ليس ساحراً ولا كاهناً ولا شاعراً ولا مجنوناً، وإنما المقصد صد النّاس عنه، وتشويهه.

قوة الحق للكفاح المدني

(واستمرت قريش في الضغط على أبي طالب، يقول ابن هشام: فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا للذي كانوا قالوا له - فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته، فقال رسول الله ﷺ: **«يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته»**.

ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام، فلما ولّى أي خرج - ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: **«اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً»**).

وفي لحظة ألم تاريخية، شعر منها النبي ﷺ بحجم الضغط الذي يمارس

على أبي طالب، انطلقت عبرته الحزينة الصامدة صمود الجبال، فهو النبي لا كذب، بأنه لن يترك بلاغ رسالة الله لخلقه، ولو وضع الشمس والقمر في يديه كناية عن فداء فوق التصور من طاقة التعذيب، ازداد بعدها أبو طالب قناعة ورسوخا، في صدق ابن أخيه وأعلن تجديده عهد حمايته بلا حد ولا زمن مادام حياً يرزق.

نظام الطغاة يستفز حمزة للحياة الجديدة

(يقول ابن هشام: إن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ.

ومولاةٌ لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه، راجعاً من قنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم.

وكان أعز فتى في قريش وأشده شكيمة فلما مر بالمولاة وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام، وجدهُ هاهنا جالساً فآذاه وسبه، وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ.

فاحتمل حمزة الغضب لِما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، مُعداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟

فردّ ذلك عليّ إن استطعت.

فقام رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً، وتم - أي - ثبت - حمزة رضي الله عنه على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ.

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه).

أدركت قريش ما الذي يعني تعزيز ممانعة النبي ﷺ بقرابته، فأطلقت حملة على شخص النبي ﷺ لإضعاف موقفه، وفي هذه اللحظات الصعبة، وقد كان عمه الأصغر حمزة محايداً، فكانت هذه الإساءات طريقاً إلى إبصار الحقيقة التي يحملها ابن أخيه، ورغم أن البوابة للإسلام حدباً على ابن أخيه، لقبح إساءة قريش لكنها تحولت بعد ذلك، إلى عهد إيماني قرأه بعقله وروحه فأبصرت نفسه الحقيقة.

إن حصول حركة الكفاح المدني، وهي هنا مصطلح نعني به المغاير للعنيف والعسكري، على قوة دعم هي من عناصر الدعم المطلوبة لحملة الرسالة والبلاغ الإيماني، وهكذا كانت قوة حمزة كفارس شجاع جريء غضوب تخشى منه قريش، فكانت محطة تقوي المجتمع الإسلامي الأول.

المفاوضات الكبرى والمُحاوِر العظيم

قال ابن هشام:

إن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيداً في قريش ـ قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنّا وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون.

فقالوا: يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه.

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السِطة ـ المكانة ـ في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم، فرقّت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال له رسول الله ﷺ: «**قل يا أبا الوليد أسمع**».

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريدُ بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً ـ حديث الجن ـ تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك

الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه، أو كما قال له.

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: أفعل. فقال رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ ❁ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ❁ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ❁ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ❁ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ١ ـ ٥].

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليه في ما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد.

ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك»).

تواصل فزع قريش وبدأت من جديد حملة إغراء، فذهب عتبة بن ربيعة وفاوض النبي ﷺ في حوار تاريخي، يُثبت كم قعّد النبي مساراته وأركانه وآداب الحوار، كوسيلة متى ما سعى إليها الآخرون أو أفسحوا لها الطريق، ورغم الوقاحة الضمنية في خطاب عتبة، وكأن النبي ﷺ يسعى لمصالحه الشخصية، إلا أنه لم يقاطعه ولم يتلفظ كلمة سوء واحدة نحوه، ثم استأذنه بكل أدب وذوق: هل فرغت يا أبا الوليد، فاسمع.

كان النبي ﷺ يدرك أن الخطاب القرآني أمام العربي الجاهلي، لا يوجد له مثيل ولا نظير مطلقا، في هز وجدانه من الداخل فهو يعرف أن لا كلام للعرب يشبهه يقاربه، فضلا عن معانيه التي كالمطارق تهز الوجدان، فيُدرك أنها رسالة الخالق لا حديث إنسان.

فتأثر عتبة حتى ناشد النبي ﷺ السكوت، أي أن الحوار انتهى إلى إقرار ضمني نهائي بأن الرسول أقام الحجة على مخالفه بالحوار ودعاه إلى الخير، لكن قرار الباطن الظالم، الذي أدرك الحقيقة تولى عنها، فما على الرسول من سبيل وقد اختار عتبة بين النجدين.

لا مواجهة ما دام للسلام سبيل

واستمرت المحاولات لتتحول إلى جماعية عبر مفاوضات لصناديد قريش

مع النبي ﷺ وعروضهم المكررة والمعززة بكل إغراء، وهو يقول لهم ليس لدي إلا الإسلام والدعوة إليه، فإن تقبلوا فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم، أي لا إعلان حرب ولا مواجهة، دعوني على هذا السبيل السلمي إن رغبتم في خير الدنيا والآخرة.

المخالفون لهدي النبي وحواره

لا يوجد أعظم من هذا النموذج، في الحوار الراقي المسؤول المنزوع منه حظ النفس وشراسة الرد على المسيئين، وإنه لمن المؤلم اليوم أن تُبتلى الأمة في بعض من يرتدي ثوب الدعوة، وهو أبعد الناس عن أسلوب الحوار وأدبه، وسلامة النفس فيه، ومحبة الخير لمخالفيه، وقد ذَكَرت السيرة أن النبي ﷺ بعد ما قبُح رد المشركين، قام متألما لما كان يرجو من إسلامهم، فلم يكن هدفه إقامة الحجة بل قناعتهم وفوزهم أو الوصول إلى اتفاق معهم، هو لصالحهم وصالح الرسالة.

القمع خيار الطغاة

وحين عجزت قريش عن كل إغراءاتها، أطلقت غرائزها المسعورة واعتقلت عقلها، وحوّلت قلبها إلى حجر، فبطشت بالمسلمين المستضعفين، وأجرمت بكل وسيلة فيهم تنكيلاً وتعذيبا.

ولكن عمق صيحة بلال أحدٌ. .أحد، وقرار المجتمع الإسلامي الأول تثبيت علانية الدعوة، والبلاغ إلى كل الأرض كان صخرة تكسرت عليها وسائط القمع، فثبت العهد الجديد بفداء المستضعفين وكفاحهم السلمي الإسلامي، وخسرت قريش المعركة، وكان أوان عهد جديد لدعوة الله إلى العالمين.

اللجوء الإنساني
للمجتمع الإسلامي

قمة البغي وحيوية القرار

مع إعلان الجهر بالدعوة وأمانة البلاغ للبشرية بالرسالة الإسلامية، شعرت قريش بالهزيمة الفكرية والإعلامية والاجتماعية القاسية، على مشاعر الطغيان والكِبر على الناس، التي حققت لهم مصالح اقتصادية وجاهاً اجتماعياً ضخماً، هو أحد معايير التفوق عند العرب.

ومع أن النبي ﷺ لم يلزمهم مطلقا بالتخلي عن الجاه ولم يُسقط عرفاً له مكانته وقيمته لو قبلوا هذا الدين، إلا ما كان فيه مظلمة وظهور بغي على الضعفاء، فضلاً عن صيانة توحيد الله ونبذ خرافة الأصنام التي حرفوا فيها الحنيفية السمحاء.

إلّا أن نظام الطغيان الكافر في قريش، والتي أبت مجرد السماح له ﷺ ببلاغ دعوته، وهم وشأنهم، حتى يقرر المجتمع العربي خياره مع الرسالة، رفضت كل هذه المساحة، وأصرت على هزيمة المجتمع الإسلامي وإذلاله، ولأن الذُل أمرٌ معنوي لا تكافئه الماديات.

فأضحى قرار الجهر بالدعوة بعد كل المآسي وتحمل المجتمع الإسلامي تبعات الكفاح المدني، هزيمة غصت بها قريش.

الطغاة يخشون منابر الحرية في أي مكان

خاصة أن هذا العمل، يعني وصول البلاغ إلى مجتمعات خارج مكة، ودائما الطغيان الكافر أو المستبد، يخشى من وصول صرخات الحق، وفكر

الحرية من مجتمعه إلى خارج حدوده، وكأنه إيذان بهزيمة نظامه الأخلاقية.

فطفق نظام الطغيان الكافر يعذب المسلمين بلا حدود، بل وبجنون وهستيريا، فيضطرهم دون الموت لتعظيم الحشرات كآلهة وتعظيم أصنام اللات والعزّى، وهي دلالة هزيمته، حيث يُصّر الطغاة على ذكر صنمهم الحجري أو البشري أمام، المجتمع الحر، للتنفيس عن غُبنهم ولاستشعار نصر مزيف.

فيأذن النبي ﷺ لصحابته، ويطلب منهم أن ينطقوا بما يضطرهم الطغاة إليه، لسلامة أنفسهم ولن يضرهم شيئاً ما دامت الأرواح مطمئنة بالإيمان، ومع كل ذلك.البغي فان شعور الهزيمة يستمر مع الطغاة من عهد قريش حتى آفاق المعمورة ومجتمعات العالم، فالسكينة المؤمنة بالحرية والرسالة الإسلامية، تبدو أقوى معنويا بمراحل، من الطاغية الذي يُمسك بالسلاح، ويبطش بالمستضعفين، ومع ذلك هو مقبل على الحقيقة بسلاح الروح والحق.

النبي القائد لا يقف عن الحراك

ورغم حجم الحصار الذي يُنفّذه نظام الطغاة الكافر، ورغم محدودية الإمكانات المتاحة للخروج من حصارهم، في مكة وحولها، ومعرفة النبي ﷺ بقوة التأثير الإقليمي لقريش على مناطق وقبائل العرب في الجزيرة، إلا أنه لم يقف أبداً أمام حقائق الجغرافيا التي يراها أهل مكة ولا الحجاز.

بل تجاوزها في عملية حيوية فعّالة تُظهر كما هو هذا النبي العظيم حريص على المؤمنين رؤوف بهم، وكيف يشرّع لأمته التحرك في كل مسار لتحقيق معادلة إنقاذ لا تُخل بمبادئهم، وليس الوقوف عند ترديد معاني الصبر وأجره، وترك السبب لمغادرة أرضه.

العدالة السياسية استراتيجية تقاطع إسلامي

وهنا يقرأ النبي ﷺ النظام السياسي المحيط بالجزيرة، ويختار نظاماً محدداً، السمة الظاهرة فيه واضحة كما نص عليها ﷺ وهي العدالة السياسية، إضافة لجذور التحنّث المسيحي، الذي بقيت جذوته لدى الأحباش الصادقين وخاصة النجاشي، وإن سقطت كنيسة الحبشة وبطارقتها، في أتون التحريف الشركي.

لكن معلم العدالة واضح في التوجيه النبوي، فإن فيها ملكاً لا يُظلم عنده

أحد، وقس على ذلك في عالمنا اليوم، فإن فيها نظاماً أو رئيساً أو برلماناً متنفذاً لا يُظلم عنده أحد، إن دلالة الموقف في الشريعة، من حجم تعظيم العدالة السياسية، تبرز من أول مفاصل السيرة، وتعترف بها لأنظمة ليست مسلمة، وتُرسي مبادئ شراكة معها وحلف حقوقي رغم اختلاف البيئة، بل والمصالح، ورغم وجود تشريعات دينية مخالفة للهدي الإسلامي المبين.

المطاردة الأمنية للمجتمع الإسلامي

(يقول ابن هشام:

لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد.

وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام).

كان قرار ندب النبي ﷺ أصحابه للهجرة للنجاة بأنفسهم ورسالتهم، ضربة أخرى لقريش وطغيانها، فمع فقدان أي قدرة ردع وغياب كامل لأي توازن، تحرك المجتمع الإسلامي وصنع له لجوءاً إنسانياً وأرضاً، تستقر فيه أرواح المؤمنين، فضلا عن معنى الهجرة الاحتجاجية، التي تكشف طغيان قريش ونظامه الشركي.

وكان التضايق من هذا العنصر حاضراً في مرافعة عمرو بن العاص قبل إسلامه مع النجاشي، ولضرب هذا الملجأ ومنع أي متنفس إنساني للمسلمين، قررت قريش بعثه في هذه المهمة الأمنية التحريضية ودورها المخابراتي، وكأن المسلمين بالفعل قد وجدوا ظل الحياة، بعد رعاية النجاشي، واستقرت أمورهم.

مخابرات طغاة قريش والسعي لتسليم الأحرار

والعجيب أن وسائط النظام الطاغي لكفّار مكة كما هو في زماننا هذا، كان منتشرا فيه الكذب والتحريض الإعلامي، وشراء الذمم من البطارقة

والمحيطين بالرشاوى المادية، فيما كانت وسيلة المجتمع الإسلامي الحر، الرأي والحُجة والدليل والبرهان العملي، والمقارنة الأخلاقية بين قيمهم ومجتمع الطغاة لكفار مكة.

فكانت جولة الحوار حاسمة لهزيمة المشركين والطغاة أمام نبلاء المسلمين.

(جاء في **التهذيب**: قال جعفر بن أبي طالب لملك الحبشة: «أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنّا على ذلك حتى بعث الله ﷺ إلينا نبيّاً ورسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفَافَهُ.

فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

- فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل من الخبائث.

فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: فاقرأه علي فقرأ عليه صدراً من (كهيعص).

فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم، ثم قال لهم النجاشي إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون)

وكانت اختيارات سيدنا جعفر بن أبي طالب، دقيقة ملهمة، حين استدعى الرابط الروحي المقدس ومشترك الرسالات وقصة الميلاد العظيم للسيد المسيح وتلاه في آيات مفصلات، هزّت ديوان النجاشي فبكى خشوعا وبكت بطارقته.

استغلال مخابرات الطغاة للخلاف العقائدي

«فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم، فقال له عبد الله بن أبي ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ لا نفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، ثم غدا عليه من الغد فقال له أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه، فأرسل إليهم ليسألهم عنه.

فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟

قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائنا في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه قال لهم:

ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عودا، ثم قال: والله ماعدا عيسى بن مريم ما قلته ذا العود».

كان عمرو بن العاص ودهاؤه في خدمة هدف الطغيان ذلك الحين، فأراد أن يقلب الأمر، ويستدعي مفصل التحريف لدى البطارقة الذين آمنوا بالتحريف ولم يكن ذلك عهد القساوسة الصادقين.

فعاد يطرح في غده، بعد تواصل جديد فيما يظهر مع ذوي المصالح من البطارقة، فيدعو النجاشي لسؤالهم عن السيد المسيح، وماذا يقول المسلمون فيه، وهو يريد أن يذكروا الاعتقاد الصحيح لدى المسلمين والنصارى، والذي حرف إلى التثليث، فالصدام مع عقيدة التثليث، ضمان للحملة الأمنية ضد المسلمين، لوضعهم في مواجهة البطارقة وتحت ضغطهم على النجاشي.

التوحيد عقيدة الوحدة للمسيح ومحمد

هنا انفردت مواقف الحق ومبادئ الرسل التي حملها أصحاب النبي ﷺ فلا مجال للمهادنة ولا للمجاملة، فطرح جعفر القول محيلاً إلى ما جاء عن الخالق الرازق الذي بعث الأنبياء وفطر الأرض ومن عليها: (نقول فيه ـ أي السيد المسيح ـ ما قاله الله ورسوله: عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول).

إنه التوحيد في قمة بلاغه العقلي، أمر الله للروح في بشر من أمٍّ طاهرة، أدرك النجاشي زلزلة القول الحق، فصدق على كلامهم، ونخر أباطرته احتجاجا على إسقاط التحريف، وإعلاء شأن السيد المسيح وأمه العذراء في مجلس ملك الأحباش ومرجعية الكنيسة الكبرى في أفريقيا وتوابعها.

النجاشي العادل يُفشل المخابرات

وفوراً أمر برد هدايا الطغاة وأمّن المسلمين، ولكن هذه الكلمة والإيمان الحق، حركت قوى تنتظر كشف ظهر الكنيسة للنجاشي، وتسخير فتاوى التضليل للرهبان والأحبار كما يجري في كل دين، لإسقاط نظام العدالة وإقامة نظام باغٍ بحجة صحة الدين، وهو تزييف للدين وليس تعظيماً لحقائقه، وخاض النجاشيَ حرباً عسكرية مع الانقلاب ومن دعمه من الكنيسة وانتصر، وكأن الله قد جعل بركة رعايته للصفوة المسلمة، نصراً سياسياً وفكرياً لصحيح عقيدة المسيحيين.

ولذلك كان إيمان النجاشي بالنبي ﷺ إيذاناً بأيمانه بالإسلام، فالتسليم لدعوة الرسول هو تسليم ذاتي بصحة دعوة الأنبياء وبشرى المسيح وصدق الحديث عنه، ولذلك كُرم النجاشي تكريماً تاريخيا من النبي ﷺ وعُظم شأنه، دون أن يكون ملتزماً بأحكام محددة في بيئته، وإنما مؤمن بالله ورسوله، عادل في شعبه والغرباء.

الصحيفة الظالمة والطغيان الاقتصادي

واستمرت قريش في طغيانها تُسقط كل مبدأ، فنشرت صحيفة تتعاهد فيها على الطغيان ومعاقبة الإنسان، في أمر فطري بين الناس، وهو الطعام والمصالح الاقتصادية، اتخذت قريش هذا المشروع لتجويع المسلمين بل وكل من ناصرهم، نشرت هذه الصحيفة في البيت العتيق الذي رفض وثيقة البغي حين أكلتها دابة الأرض.

وبالفعل تعاهد واحتشد النظام الكافر المحارب للعدل، وجوّعت قريش أبناءها وأرحامها في لعنة تاريخية عليها، ومع قساوة التعاهد الطاغي، فقد انضم بنو عبد المطلب المشركون إلى شعب أبي طالب تضامناً مع الهاشميين المحيطين برسول الله، ومع من انضم إلى النبي ﷺ.

وهي دلالة أخرى لوجود مساحة واسعة وكبيرة بين الإنسانية مسلمها وكافرها، عند قيم العدل أو التسامح، وليست القضية كما تُبت في نفوس البعض بأن العلاقة بين الكافر والمسلم علاقة قتال وصراع، كلا ليست كذلك وسنفصل في موضعه بعون الله.

الجسور الإنسانية في نظام الطغاة

(يقول ابن هشام:

ثم إنه قام في نقض تلك الصحيفة، التي تكاتبت فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب نفر من قريش ولم يُبلِ فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو، وذلك أنه كان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، فكان هشام لبني هاشم واصلاً، وكان ذا شرف في قومه، فكان يأتي بالبعير، وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلا، قد أوقره طعاماً حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه، ثم ضرب على جنبه، فيدخل الشعب عليهم، ثم يأتي به قد أوقره بزا، أو برا فيفعل به مثل ذلك.

ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب فقال: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم.

أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدا، قال ويحك يا هشام فماذا أصنع؟

إنما أنا رجل واحد، والله لوكان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها، قال: قد وجدت رجلا قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال له زهير: ابغنا رجلا ثالثاً.

فذهب إلى المطعم بن عدي فقال له: يا مطعم، أقد رضيت أن يهلك

بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه؟

أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً، قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانيا. قال: من هو؟ قال: أنا، فقال: ابغنا ثالثاً، قال: قد فعلت، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: ابغنا رابعاً.

فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحوا مّما قال للمطعم بن عدي فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال: ابغنا خامساً.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمى له القوم.

فاتعدوا خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حُلة فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

قال أبو جهل ـ وكان في ناحية من المسجد ـ كذبت والله لا تشق قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كتبت، قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به، قال المطعم بن عدي: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك، فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، تُشُووِرَ فيه بغير هذا المكان قال: وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم.

وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة، فشلت يده فيما «يروون»)

صراع أخلاقي مع قانون إرهابي

نظام كفار مكة الذي ارتكب هذه الجريمة الأخلاقية، ظلت تُحرك أطرافاً

منه تأنيب الضمير، وتقريع المروءة العربية لهذا الخزي المبين، وفعلا تحركت قيادات كافرة وتعاضدت ونفذت خطة محكمة لإسقاط الوثيقة، وهي دلالة أيضاً على أن استخدام الأعراف الاجتماعية والدولية، لتحقيق العدالة للمسلمين وغيرهم جزء من سيرة العلاقات الإنسانية بعد البعثة النبوية.

تعزيز الاستهداف الشخصي للنبي

تعاظَم طغيان قريش على النبي ﷺ فهم يرونه لا تهتز له راية ويمشي بينهم، ويطوّف بالبيت العتيق ويُظلل أصحابه بدعوات رحمته، وكل رأي يفسح عنهم شيئاً من العذاب، ويصمد وإياهم في الكفاح مستهدين بنور الله للمجتمع الإسلامي ورهطه المضحي الوفي.

وباتت أقوال الطغاة القبيحة لنظام كفّار مكة، تترى على الرسول الهادي وتغرق في بهتانها وسخافتها، ولكي يعلم العالم والتاريخ البشري قصة النبي المركزية للرسالة السماوية، وأخلاقياته وطغيان خصومه، حتى وصلت هذه الرسالة إليهم في عهدنا وحتى يرث الله الأرض ومن عليها في نهاية العالم، أُثبِتَت هذه الحوارات والرد على المشركين وكفى اللهُ نبيَّه المستهزئين.

فأضحت من دلائل النبوات، فهذه دعوته وهذه رسالته وهذه قيمته بين الناس أجمعين ولا يزال رحمة للعالمين، هذا النبي العظيم تتدخل الرعاية الإلهية لتقطع كل لسان ويدٍ تَسَفَّهَ عليه، فتبت يدا أبي لهب وتبت كل يد وقحة مجرمة، يأبى الله إلا أن يثبت للعالم عجزها، فإما أن تُهدى حين يعلم الله الصدق في قلبها، وتُبصر الحق رغم صلفها.

أو يُرَدُّ بأسه عليه فلا ينال من رسول الله شيئاً، والحضور الروحي، وتتابع بلاغ الوحي الإلهي، ومنزلة الرسول الهادي، هو الحجة المعنوية الممتدة إلى كل زمان، فهو يعلو والموتورون يخسرون.

ومع حقارة طغيان المشركين، إلا أن الله عزّ وجل منع سب آلهتهم، حتى لا يجرؤ خطاب سفهاء البشرية لنشر سب الخالق فيما بينها، وهو أمرٌ نراه يطغى حين ينحط المجتمع البشري أخلاقياً، فينتشر بينهم، فيما المجتمع الراقي لا تجد ذلك منتشراً لديه ولو نسب بعضهم إلى غير الإسلام.

كما أن من حِكم هذا الأمر الإلهي هو كسر الحواجز وتنحية المشاعر

العاطفية حين يَسُب الداعي إلاه الشخص الضال، فتهيج عاطفته وتُسقط عقله، وهو أيضاً مدعاة للهدوء والسلوك العقلاني لرسالة الحوار في التوجيه الرباني.

عمرُ الإسلام وتوقيت الانضمام

(وجاء في التهذيب عن بن إسحاق:

وكان إسلام عمر فيما بلغني، أن أخته فاطمة بنت الخطاب ـ وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ـ وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر.

وكان نعيم بن عبد الله النحام من مكة رجل من قومه من بني عدي بن كعب قد أسلم، وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فرقاً من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه، يريد رسول الله ﷺ ورهطا من أصحابه، قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا.

وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق، وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين ﷺ، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة.

فلقيه نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً.

أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم، قال: وأي أهل بيتي؟ قال ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما قال فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها طه يقرئهما إياها.

فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التي سمعت؟

قالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفّه عن زوجها، فضربها، فشجها.

فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً.

أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتبا، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له: يا أخي إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر.

فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها طه فقرأها فلما قرأ منها صدراً قال ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، فلما سمع ذلك خباب، خرج إليه فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب.

فالله الله يا عمر، فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب.

فرآه متوشحاً السيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: «**ائذن له**».

فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حجزته أو بمجمع ردائه ثم جبذه به جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يا بن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة، فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله.

فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم).

في غمرة الطغيان والمطاردة، ومن داخل صفوف المشركين وصلفهم، وفي لحظة بأس هوجاء، يدخل عمر على أخته المؤمنة بكل غضب فيسألها وهو يتقد جمرا، ليهددها في إسلامها، ضربها عمر على وجهها الطاهر، وقلبها الصامد وإيمانها العقلي الروحي الذي لا يتزعزع.

هُزِمَ عمر فانهارت تلك الشخصية أمام دم ومدامع الأخت الربانية.

ما هذه الروح التي تشتعل في صدر عمر، من يحرك وجدان ابن الخطاب، ينظر إلى أخته: إليَّ بهذا السِفر، آيات الذكر، يريد عمر تلاوتها وهو لم يعرفها ولم ترَ ناظريه.

رسالة وجدانية قوية من أخته ووجهها الدامي، نعم لكنك رجل مشرك قم وتطهر، تطهر لأن هذا الإسلام نورٌ يا عمر وروح وحياة، لا بد من أن تفصل بينها وبين ركام الضلال.

وعمر يسأل ثم يفعل؟

فيتطهر ثم يتلو: ﴿طه ۞ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١ ـ ٢].

لحظات وطه والقرآن يملآن صدر عمر، يسكنان وجدانه، يقودان روحه، هذا هو القرآن بين عيني، فأين طه الأمين نبي الحق والمستضعفين؟

أحقاً يا عمر!!

عمر بن الخطاب يريد الإسلام في غمرة حصاره وأوان مظالمه ومطاردة منتسبيه، ولأن عمر في ذاته قصة كبرى، في تاريخ الرسالة لخصوصية صحبته من النبي العظيم، وما قدم لهذا الدين وعدالة المسلمين، فكانت قصته دستوراً يحكى بين العالمين.

إنها الساعة التي لم يحسب له المسلمون، ولكن الله وقّتها بعلمه ورحمته وحكمته، وقد أطلع على إقبال عمر رغم وحشة سيرته، لكن تبقى لله نسائم ورسائل ومدارك يجعلها بين عباده لا تفقهها النفوس.

فها هو ابن الخطاب يتقدم لدار الأرقم، فيفزع الجمع ماذا يريد عمر وهو من صناديد الكفر في قريش، يتقدم حمزة لمواجهته، فيأبى رسول الله ﷺ

دعوا عمر لي..

دعوه

يأخذ به ويشده أما آن لك أن تسلم يا عمر؟

فهتف قلبه ولسانه

أشهد أن لا إله الّا الله وأشهد أنك رسول الله.

تهلل وجه النبي الصابر المحتسب، ويحتفل المسلمون بفجر جديد ياعمر، فجر لحياتك وفجر لرحلة أمة نبيك والصحب الأمين.

رسالة الإسراء
وحدة الرسل والعالم السماوي

بين يدي الحدث الكبير

متى يرتد المرتد؟

جاءت قصة الإسراء والمعراج بين ظرفين عصيبين لتاريخ الرسالة، وهي حدث ضخم جداً، تطلب تحدياً إيمانياً كبيرا للنفوس المؤمنة التي تمسّكت بمفهوم الرسالة المتضمن للغيب أصلاً، ومعالم شهوده، وذكّرت السيرة ارتداد عدد ممن أسلم، حين بلّغ الرسول ﷺ قصة إسرائه إلى بيت المقدس ثم السماوات العلى في ليلة واحدة.

دون توضيح هل بقوا على الردة أم تراجعوا، بعد صدمة الحملة الإعلامية لقريش، والتي أسقطها أبو بكر، أم استمروا على الردة؟ وهل كان بعضهم ضمن مسلمة الفتح وهو المرجح؟ لأنه لم يُرْوَ لنا مطلقاً أن النبي ﷺ انتقم من ردتهم واستدعاهم.

والحديث عن الردة وحكمها تخللته نقاشات معاصرة عديدة، وخاصة لمن يرى أن القتل لازم، ومن يرى التفصيل المهم في هذا المسار، والتذكير بخيار الكفر والإسلام القطعي في الرسالة وهو الأصل، غير أن المسألة التي غُفل عنها ودلائلها واضحة في الشريعة، وفي فقه عمر بن الخطاب لأحكامها، لم تُتناول في الجدل المعاصر بما يكفي.

المرتد المفتون بإسلام مزعوم

إن أي عقاب يوقع على المتجريء، لعمل وإعلان موقف مناهض لأصول

الشريعة، بل ومحرض عليها، يؤخذ في سياقين، السياق الأول في جانب تحقق الشرط في هذا الجاني والمتهم، ففي الردة ورفض الإسلام، ينظر هل فقه أصلاً هذا الإنسان أو الشاب دينه، ووعى إسلامه؟ أم أنه عاش ظروف تضليل صعبة، وقُدم له الدين في نماذج من المرتزقة، والظلمة تأمره وتنهاه باسم الإسلام.

وهي قمة السوء والقبح في سلوكها، وفيما تمثله من ظلم اجتماعي وممارسة سلوكية، بل هي بذاتها أحد أسباب رفض الدين والتدين، ولذلك حَجمُ وعي الشاب أو الشابة أو الشخص هو مفصل عن ماذا ارتد وما هو الإسلام الذي بُلغ به حتى تقوم عليه الحجة.

ولماذا لم يَرَ عمر أن من يسرق في عام الرمادة يتوجب فيه الحد الشرعي، وإنما يتوجب في غيره حين تكتمل الشروط؟ الجواب ببساطة أن عمر، لم يَرَ أن هذا الحد الذي يؤمن به ويقيناً في قلبه، قد شُرّع لهذه الحالات من الضعف والاضطرار، ويقاس على ذلك اضطراب الفهم الكبير في نفسية المرتد.

ولذلك فحكمه الأول ليس تنفيذ حد لم يستوجبه، بل تبليغ الإسلام الذي بعث به الأنبياء، لا تحريف شيوخ دين ولا سلطة مستبدين، تجعل الدين مطيتها لقهر الناس بل وتفسره هي لا علماء الشريعة المستقلين، فتُفتح آفاق نفوسهم على مشهد ظاهري لعدالة اجتماعية في الغرب، وحقوق دستورية، تعجل لديهم قرار التخلي عن رابط الإسلام.

وفي كل الأحوال، فإن التعامل مع مثل هذه الحالات توجب فقهاً دقيقاً، ووعياً متزناً، وقدرات ثابتة لفهم الظرف، وليس الخضوع لحملات تحريض، هي مخالفة لمتطلبات البلاغ الإسلامي لعصر الرسالة الراشد.

أما السياق الثاني، إن كانت الردة عملاً اجتماعياً إعلامياً فكرياً موجهاً لضرب المجتمع واستقراره النفسي والفكري، وصادر عن أيديولوجية صراع، بعد فهم تام لحقيقة الإسلام، فهي هنا عمل عدائي شرس، وإنما يكون ذلك حين يوظف ويوجه في سياق هجومي متتالٍ واضح لا تفسير له، وليس حواراً منهجياً وطلب الرد على استفساراته، أو مرحلة الشك الوجودي التي يتعرض بعض الشباب اليوم، هنا تُنْظَرُ منازل العقوبات وظروفها بحسب اختصاص الحالة لا الرضوخ لمشاعر انتقام شعبية موجهة.

كما أن واقع المسلمين اليوم، واضطراب أوضاعهم هو بحد ذاته معزز

لفوضى التفكير، والتي تتعرض لاستثمار ضخم غير نزيه، من الكنيسة واصطياد المتشككين، لحالات تبشير موجهة، أو شك وجودي ثائر، وهي وسائط تحتاج لغة العقل والتفكير.

ووضع الشاب في مسؤولية قرار متابعته لخطابه المشكل، أو المسيء في تفسيره، وأن الواجب عليه احترام تدين المجتمع حين لا تتكامل صورة قناعة عنده عن الإسلام، وهناك مضبطات قانونية تساعد المجتمع على تكريس قانون حماية الدين، فيُحمى المجتمع المسلم بخطاب الفكر والحوار والقانون الأخلاقي الرادع معاً.

الإسراء بين ظرفين

(يقول ابن هشام:

مضى رسول الله ﷺ ومضى جبريل عليه السلام معه حتى انتهى به إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء، فأمهم رسول الله ﷺ فصلى بهم، ثم أُتي بإناءين، في أحدهما خمر وفي الآخر لبن، فأخذ رسول الله ﷺ إناء اللبن فشرب منه، وترك إناء الخمر. فقال له جبريل: هديت للفطرة، وهديت أمتك يا محمد، وحرمت عليكم الخمر.

وصعد به إلى السماء والتقى النبيين ودنا وتدلى بقرب من الحضرة الإلهية لسماع البلاغ المقدس، «لا نعرف كنهه، ولا سبيل لذلك لكون المخلوق لن يعي دلائلها الحسية أبداً» ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة).

أتت رحلة الإسراء في وقت عصيب يواجه فيه النبي ﷺ حملات عنف لا تتوقف، ومنهج قبح مبرمج يتقصده، أما الظرف الثاني فهو قرب رحيل أكبر داعمين له في بعثته ﷺ، وهما السيدة خديجة رضي الله عنها وعمّه الوفي أبو طالب، وكأنما العهدة السماوية، جاءت له ﷺ لتغذية تدفقه الروحي وتعلقه اللدُنّي، الذي يغنيه عن أهل الأرض، وتسليته والمسح على قلبه بلقاء الملأ الأعلى وإخوته النبيين.

رسالة العالم السماوي

ولكن رسالة الإسراء والمعراج أيضاً، جاءت برسالة مهمة جداً، صريحة

مع البشرية، تربط دلائل الإيمان العقلي، بما تدلل عليه، وهو الغيب غير المشهود والمصير المورود حتما، فلا بُدّ للبشرية أن تُذَكَّر بأن ما آمنت بدلائله من شهود الله المعبود، وتعاليم الرسل، تؤكد لها حضور هذا الملأ الأعلى والعالم السماوي، وأنها حتما راجعة اليه.

فيجب على هذه البشرية بل وخطاب العقل والنفس فيها، وتنظيم حياتها، ألا تُغفل قضية الوجود المركزية، وخاتمة الرحلة البشرية، نعم إنها الأرض والخلق والدنيا، لكن وراءها ما هو أعظم وأكبر، وما ينتظر أن يرِد الناس إليها يقينا عاجلاً، أم آجلاً، وهذا العالم السماوي ظل ترداده حاضراً في رسل أهل الكتاب، متداولا في معاني أسفارهم، فجاء الإسلام ليوضحه بجلاء وينقل مشهده، بالنبي البشري الأمين من أسرة الإنسانية ذاتها يبلغها العهدة السماوية.

أبو بكر ومعادلة العقل المؤمن

(يقول ابن هشام:

وذهب الناس إلى أبي بكر، فقالوا له: هل لك يا أبا بكر في صاحبك؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة. فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه، فقالوا: بلى ها هو ذاك في المسجد يُحدث به الناس، فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك.

فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض، في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه.

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، أَحَدَّثتَ هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟

قال: **«نعم»**. قال: يا نبي الله، فصفه لي فإني قد جئته ـ فقال رسول الله ﷺ: **«فَرُفِعَ لي حتى نظرت إليه»** ـ فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر، ويقول أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله، كلما وصف له منه شيئاً قال: صدقت أشهد أنك رسول الله، حتى إذا انتهى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: **«وأنت يا أبا بكر الصديق فيومئذ سماه الصديق»**).

ورغم التحدي والاستعلاء الكبير الذي أتت به قريش لأبي بكر، جاء رده حاسماً قوياً، مقعداً بالمعادلة العقلية الإيمانية، فانهارت حملتهم أمامه وكأنها

لم تكن، قال لهم أبو بكر بسهولة، إن إيمانه بالغيب، الذي يراه عبر دلائله الحاضرة في الكون، هي ذاتها تَرد عليكم.

فقد آمن بالله الخالق وآمن بأنه أرسَل له نبيَّه، وقدّم نبيُّه دليله إليه بقرآنه، الذي يوحى عليه من السماوات العلى، فإن تصطفي السماء بأمر خالقها المُوجِد نبي الله ورسوله، فهذا أمر تبعٌ للإيمان الأول، فبهتت قريش وخسر الذي كفر.

وحدة الرسالات وأخواتها

وهناك أمر مهم آخر في قصة الإسراء والمعراج، أن هذا الوجود له قصة متناغمة واحدة، من دلائل خلقه إلى رسائل أنبيائه، قصة إيمان واحدة مترابطة لا أديان متفرقة، ووحدة موضوعية، لأركان الدين العبادية والعقدية، ولذلك كانت لقاءات النبي ﷺ مكثفة بإخوته الأنبياء، حميمية في مشاعرها، كان مع أبيه آدم وأبيه وأبي الحنيفية السمحاء إبراهيم، ومع أبناء الخالة عيسى ويحيى هكذا نعتهم النبي ﷺ مع أخوتهم.

دين واحد وعقيدة واحدة، للرب المعبود الموجود المنافية ذاته وصفاته، عقلاً وفكراً وعلماً فيما يسعه البشر أو يدركه تصورهم لأحوال المخلوقات، فلا يَرِد السؤال عليه وعلى ذاته سبحان القدوس ذي الملكوت، لعجز العقل البشري عن كنهه.

وهناك يلتقي موسى، عند تشريع الصلوات، نعم موسى النبي شريك في توجيه أخيه محمد، إلى التبتّل أمام الملأ الأعلى لتخفيف شروط العبادة مع كثافة الأجر، ويُنقل لنا ذلك ويصوّر بيانياً، لأن الله الرحمن الرحيم يريد الخير لعباده والسعادة بأدنى الدرجات من التكلفة، نعم موسى كان هناك وعيسى والنبيين من قبلهم، وهي رسالة مجلجلة إلى أهل الكتاب من أهل السماء:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

إنه الإسلام الذي جاءت بأصوله الرسل فلماذا يا أهل الكتاب، لا تواصلون رحلة الإيمان وتصححونها؟

هنا أحد أهم دروس الإسراء والمعراج وبلاغ الله فيها، لوحدة الرسالة

السماوية، وإن حاملها اليوم محمداً ﷺ في لغة سلام وحب بين الأنبياء، فمن قبل من أهل الكتاب اليوم وأمس وغدا فقد قبل عهد الله ورسوله من قبل، ومن صد، فقد صدَّ عن الهدى والنجاة.

رحلة الطائف.. لمن يُضحي النبي؟

(روى ابن هشام:

لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح.

فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: هو يمرّط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف وقد قال لهم: **«إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني»**، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم ذلك عليه، فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حَبَلَةٍ من عنب فجلس فيه).

بعد حلقة التضييق المتكررة عليه، بادر النبي ﷺ رغم كل الرسائل السلبية المحيطة به، ورغم كل عناصر الإحباط والمواجهة، بالبحث عن مقر للدعوة والرسالة، وحينها انفتح ﷺ على المجتمع العربي، وإن كان غلب على تقديره، بحسب مراجعة السيرة ومراسلاته وهجرة الحبشة، أن فرص التجاوب قليلة جداً، خلال هذه المرحلة.

فتوجه ﷺ إلى الطائف، وكانت أقرب موقع لمكة تحمل مجتمعا ديمغرافيا

مستقلاً عن قريش، وإن قويت الصِلات والعلاقات، وعمدة هذا المجتمع يقوم تشكيله على قبيلتي ثقيف وغطفان، فكان الرد قبيحا سيئا، ولم يكن قبيحاً فحسب ولكن أسقط أعراف العرب في تقدير الضيف وحفظ حقه وسره.

وأثخنت سفهاء ثقيف في رسول الله مطاردة ونيلاً عنيفاً، حتى أدْمَوا قدميه الشريفتين، وهي لحظة تهتز لها الدنيا ويغضب لها الملأ الأعلى، لكن رسول الله العظيم الذي أحزنه فعل السفهاء والنظام الكافر في الطائف، كان في غمرة الرضى والأسى في زمن واحد.

لقد كان يتحمّل الصعاب الكبرى لأجل بلاغ دعوته، وإنقاذ البشرية برسالته، وهي رسالة إلى حملة الفكر ودعوات التصحيح والتجديد، بل هي إلى الناس كلهم من يلقى أذى وتحريضاً، أو تسفيهاً في حياته، فإن رسول الله أكرم الخلق على ربه، وجد أكبر إذاية معنوية مرت على بشر، وحصاراً اجتماعياً ومطاردة، ولكن الله نصره، وهو الذي تعبده بكل سبب متاح، لاختراق الحصار وأسوار المناهضين العتاة.

إنه النبي العظيم المشفق على إنقاذ البشرية، المحتفي والمرتجي لأمة التصديق، في صلواته وخشوعه.

حائط المشركين والفتى المسيحي

(فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي، تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عدّاس فقالا له خذ قطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ.

ثم قال له كُل فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال باسم الله ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد فقال له رسول الله ﷺ: «**ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس وما دينك؟**».

قال نصراني وأنا رجل من أهل نينوى فقال رسول الله ﷺ من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى، فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي**»، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه).

وحين ألجؤوه إلى حائط أي (بستان) عتبة وشيبة ابني ربيعة القرشيين، تحركت فيهما مشاعر عطف، برغم كل العداوة التي يحملانها للنبي ﷺ، هل لأن سفهاء الطائف غدروا بمروءات العرب، واستضعفوا الضيف (وهذا الضيف من قريش)؟ ربما.

المهم أنه في طريق الدعوات يسخر الله للمصلحين من ذوي العصبية الاجتماعية أو غيرها، من يرق في موقف أو مناسبة، فما على المستضعفين من تثريب حين يستفيدون منه.

وفي هذه اللحظات، يرسلان له غلامهم النصراني يقال له عداس يخدم عندهم، ورغم كل الأسى إلا أن النبي الرحيم يحاوره بكل ذوق وأخلاق، ثم يبعث في نفسه رسالة الصلة بين الأنبياء التي تجمع عيسى ومحمد وموسى وكل الرسل.

أخذ عدّاس الفكرة، فمثل هذه العلامات لا تأتي عرضاً، ولا تصل لهذه الأحياء من مشركي العرب، فأدرك أنه النبي، وأكَبَّ عليه يقبل يديه، إنه ريح النبوة ومشكاة السماء تطارده الطغاة والسفهاء وهو رسول السلام والرحمات.

نظام الكفر والمصالح المشتركة

كان من الواضح أن بلدات العرب المختلفة حول مكة وغيرها، وإن استقلت ذاتيا، حيث لم يكن للمندوبين الساميّين لفارس والروم - وهو شبيه بالانتداب الإنجليزي المتأخر لكن بنموذج مختلف -، في اليمن وفي جنوب الشام أثر في تسيير الأوضاع المحلية والإدارية، إلا أنهم كانت لديهم مصالح مشتركة مع قريش، فقد تحولت الأصنام إلى مراكز سياحة دينية تؤسس على الخرافة في أقصى سخافتها وقبحها، فتُحولها إلى موسم اقتصادي.

ولذلك تواطأت تلك النواحي مع ذات معادلة قريش في رفض البعثة والتضييق على الرسول، لأن الحرية الايمانية تهددهم أيضاً، وهو له معنى في زمننا الحاضر، خاصة حين يصفو الدين الإسلامي في بلاغه، ويشرق في تعاليمه الحقوقية والدستورية للشعوب، فيخشى الطغاة من تحرير قيود الشعوب والمجتمعات، ويتعاقدون على محاصرتها.

وكان من الواضح أن البعد السياسي لكل نظام، هو من يملك مفاتيح

المسار الاجتماعي وتناقل الرأي فيه، ولذلك كان النبي ﷺ يسعى لهذا التأمين السياسي المحلي الذي تمتلكه كل قبيلة عربية، أو تحالف يجمعهم في نطاق جغرافي واحد، يسيطر عليه قرارهم.

ولكن النبي ﷺ لم يقف عند مناطق هذه المصالح ولم ينهزم لها، بل لم يدعُ الله عليها وقد خيّر بإهلاكها، بل واصل الطريق إلى فجر الأمة والإنسانية الجديد.

إلى العرب من جديد

المجتمع العربي والمنعطف التاريخي

منذ دلائل الرسالة الأولى كان واضحاً، أن المجتمع العربي هو مجتمع التكليف الأول لهذه الرسالة، ولذلك توجه النبي ﷺ لملاقاة وفود العرب، في موسمهم الأكبر (الحج)، الذي ظلوا يمارسونه ويعظمونه، كبقية للحنيفية الإبراهيمية، مع كل التحريف الضخم الذي أحدثوه.

وتخصيص النبي ﷺ العرب كقاعدة أولى للتكليف، ليس اجتهادا بل أمر قطعي، من لغة القرآن وجغرافية البعثة، ومحيطها العربي الحتمي، وهو تكليف لا يخصهم بفضل قومي، إلا من خلال شرف حمل الرسالة، وهو تكليف زمني وممتد.

زمنيٌّ حين يحملون الرسالة إلى إخوانهم الأعاجم المؤمنين بها، وبعد أن أوصلوها إليهم، فأضحوا معهم سواءً بسواء في حملها، وبلاغها للإنسانية، وممتد لأن القرآن عربي ورسول الله عربي، وغالب صحبته الراشدة عرب، وإن أحب الرومي والفارسي والحبشي وأحبوه جنباً إلى جنب مع العرب.

وهنا توزيع جغرافي كوني دقيق، حين يُكلف الله العرب في مهمة التشريف الأولى للإسلام، ويُعطيهم مهمة كانت لأقوام قبلهم من بني إسرائيل وغيرهم، حيث لم تخلُ أمة إلا وفيها نذير علمناه أو جهلناه، نبياً مرسلاً كان أو مجدداً بعهده، كالخضر عليه السلام.

وإن كان إسماعيل جدّاً للعرب، سوى أن رسالة محمد ﷺ رسالة خاتمة للعالمين، فيها من التكليف والتشريع والبلاغ العام لكل جغرافيا الأرض، مالم يكن في نبوة إسماعيل عليه السلام، وإن بعث لتجديد دعوة أبيه ومساندته، وهو أبو الأنبياء ومحمد الهادي الأمين من ذريته.

متى ولدت أمة العرب

إننا ونحن نتابع قراءة السيرة النبوية الشريفة ونحلل معانيها، يتبين لنا بوضوح، أن أوضاع العرب (قيمهم، سلوكياتهم، نظامهم الاجتماعي، وضعهم السياسي والثقافي) وإن حمل بعض القيم والمروءات وأخلاق الكرم، وقوة العهود، إلّا أنهم لم يولدوا كأمة مطلقا قبل بعثة النبي ﷺ.

فقد كانوا قبائل شتّى، لكن الدعوة الإسلامية صنعت منهم، أمة رائعة ملهمة، مضحية مبادرة تحمي رسول الله وتحمل أمانته، ممن آمن به لا من صد عنه، فالتكلف الذي جرى في التاريخ العربي المعاصر، والذي أصّر على تقديم العرب كأمة حضارة وثقافة وأن الإسلام مكمّلٌ لها لا صانعاً لروحها - وليس مقصدنا أمة ديمغرافية كشأن أي قوم في جغرافيتهم - وإنما أمة الفكر والخُلق والتغيير الإنساني، وهي كلها مسارات أتتهم من الرسالة ومن قيمها العظيمة، فدعوى خلق أمة قومية دون أمة الرسالة التي ولد معها العرب، دعوى ساقطة بالتفكير والمراجعة البسيطة.

وعليه فإن كل صراع قومي، مع أو ضد العرب، فقد قام على فكرة خاطئة لا يوجد لها سند في الدعوة الإسلامية، وأما مسارات التشرذم والصراع الجاهلي الذي عاد في فئام من العرب، منذ نهاية الخلافة الراشدة، حتى صراع العدنانيين والقحطانيين من اليمن إلى الأندلس وما تلاها، فهي سِفرٌ من انحراف وضلالة غبية، لا يُحتج بها على رسالة العرب الإسلامية، ولا حضارة دينهم المشرقة.

الرسالة تخترق الحصار

لم يترك النبي ﷺ مساراً لبذل كل سبب واجتهاد يحقق مداراً لصالح الرسالة إلا وأخذ به، وهو أحد الأدلة الكبرى على فتح باب التحرك للدعوات الصادقة لاستثمار كل منبر متاح، لا يترتب عليه بالضرورة تبني الرسالة كلها ولا تطبيق الشريعة، كما يعتقد البعض.

فهنا التعامل مع تحالفات ونظم إنسانية متعددة، وليس تمثيلاً لنظام إسلامي تكاملت صورة تطبيقه، هذا لو كان التصور في هذا الزمن المعاصر قد اكتملت

رؤيته، وليس في مجال التدرب وتجارب الفشل والنجاح، وضعف ممثليه السياسيين، وضعف البنية الثقافية للرأي العام لمجتمعات الدول الإسلامية.

التاريخ وأبو بكر

وهنا توجه النبي وصاحبه لموسم القبائل، ومرة أخرى يبرز أبو بكر، وعند كل منعطف ومفصل، كان فيه أبو بكر حاضراً مشرقاً، من أول البعثة حتى قبض الله رسوله إليه، حتى جُعل مسار رد المسلمين لوعي إسلامهم إليه بعد وفاة النبي الأمين، فثبتت الرسالة مع أبي بكر.

ونحن هنا نشير إلى كيف تجسدت هذه الشخصية وعطاؤها وودها وفدائيتها للنبي ﷺ، حتى كان صاحبه الخاص، وسبق كل الناس لحماية مفاهيم الإيمان الكبرى، ومضى وهو خليفة فيهم متواضع بينهم، لا مستعليا بإرثه ولا بما قدمه.

من يستبعد الشيخين يستبعد الإسلام

إن من يعتقد أنه من الممكن صياغة إسلام يستبعد أبا بكر وعمر، فهو ببساطة يبحث عن زمن لم يسجله التاريخ، ويضلل نفسه، ويستعدي مشاعر عاطفية بائسة، تجعل معركتها، مع أكبر بوابة رفدت النبي ﷺ وقدمت دلالة كبرى وكيف تعمُر نفوس البشر بطاقات نفسية ووجدانية عظمى كمثل الشيخين.

إنه من المؤسف والمروّع، وكما سيأتينا في سيرة أبي بكر الأخرى، أن تحقق في المسلمين فتنة لمئات السنين، فينشر عند فئام منهم كراهية أبي بكر وعمر كعقيدة دينية.

ولماذا وما هو الداعي؟

وهب أن لأبي بكر أخطاء وهو ليس معصوما، فأين تذهب صحبته ورفقته، ووده لآل بيت النبي، وكيف تحول اجتهادات اجتماعية بين السيدة العظيمة الزهراء رضي الله عنها، وبين أبي بكر إلى صناعة منهج عقائدي، يقول للعالم ويقول لذريته في مئات السنين، أن أصحاب رسول الله الخُلص كأبي بكر وعمر، تلك الثلة الرائعة في أجمل صفحات البشرية، خونة للدين ومتآمرون عليه!!

كيف؟

ولا يوجد في القرآن والسيرة الصحيحة إلا كل ما ينقض هذا القول، هل آن للعهد الزمني المعاصر، أن تنطلق حركة مراجعات كبرى منهم، تخرج هذا القسم من المسلمين من هذه النظرية الكاذبة المشحونة بعاطفة كراهية، تحرمهم من وعي رحلة الصحابة العظيمة وشراكتها مع الرسول ﷺ فيكون معتقدهم متماشيا، مع هذا البعث الروحي والسند التاريخي، وإن بقي مقام آل البيت، في موضعهم العالي، (وإن تجاوز البعض فيهم) لكن لم يلِغ في حق أصحاب رسول الله وخاصته في الأمة.

حملة الفجر بين القبائل

طفق أبو بكر يتولى المهمة الدبلوماسية الكبرى، يطوف على أحياء العرب في مواسمهم، ولأول مرة وبعد حملة إعلامية شرسة نالت من النبي ﷺ من آلة قريش وبعثت بها إلى قبائل العرب، بدأ العرب يستمعون منه، لا يسمعون عنه، وأبو بكر حثيث الخطى، قوي في مُقدمة حديثه ومتنه وخاتمته.

ومنذ اللحظات الأولى اتضح أن الرسالة تحقق اختراقا في جدار الفصل الجاهلي، المحارب لحرية العرب والبشرية ونجاة عقولهم ومستقبل دنياهم ومصيرهم، وطبيعة العربي تبحث عن الغنيمة فظلت، في هذا الاتجاه تفاوض النبي ﷺ، فيبحثون عن مصالحهم، والدعوة لا تعرض غنيمة، ولكن تطرح حمل بلاغ تنوء بالناس، ولكن فتح الله لهم قريب.

وهكذا حياً بعد حي يقترب النهار من حملة الفجر، يثرب وبنيها، ويصل الرسول إلى حيّهم بل إلى بعث حياتهم، فهل يُبعث النور في معسكر أهلها، ويحملون أكبر رسالة للعالمين.

المجتمع اليثربي
والعهد الإيماني

الأنصار والموعد التاريخي

(جاء في التهذيب:

خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

فلما لَقِيَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ لَهُمْ: «مَنْ أَنْتُمْ؟» قَالُوا: نَحْنُ الْخَزْرَجُ. قَالَ: **«أَمِنْ مَوَالِي الْيَهُودِ؟»** قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: **«أَفَلا تَجْلِسُونَ حَتَّى أُكَلِّمَكُمْ؟»** قَالُوا: بَلَى، فَجَلَسُوا مَعَهُ «فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ ﷺ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الإِسْلامَ وَتَلا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ».

وَكَانَ مِمَّا صَنَعَ اللهُ تَعَالَى بِهِمْ فِي الإِسْلامِ، أَنَّ يَهُودَ كَانُوا مَعَهُمْ فِي بِلادِهِمْ، وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَعِلْمٍ، وَكَانُوا أَهْلَ شِرْكٍ أَصْحَابَ أَوْثَانٍ، وَكَانَتِ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ قَدْ عَزُّوهُمْ بِبِلادِهِمْ، وَكَانُوا إِذَا كَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ، قَالُوا لَهُمْ: إِنَّ نَبِيّاً مَبْعُوثٌ الآنَ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ نَتَّبِعُهُ فَنَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ، قَالَ: فَلَمَّا كَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أُولَئِكَ النَّفَرَ وَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: يَا قَوْمِ تَعْلَمُونَ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَلنَّبِيُّ الَّذِي تَوَعَّدُكُمْ بِهِ الْيَهُودُ، فَلا تَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ، فَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ وَصَدَّقُوهُ وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الإِسْلامِ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّا كُنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا، وَلا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، وَعَسَى اللهُ أَنْ

يَجْمَعَهُمْ لَكَ، فَسَنَقْدَمُ عَلَيْهِمْ فَنَدْعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ وَنَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَجَبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فَإِنْ يَجْمَعْهُمُ اللهُ، فَلا رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ).

لم يكن النبي ﷺ يعلم ما ادَّخره الله له في سابق علمه من خصوصية المجتمع الذي سيحمل مهمة تأمين الرسالة والرسول ودولة البلاغ الإسلامي، فقد كان يتعامل بالأسباب المادية المشروعة له، ويتوكل على الله عزّ وجل في توفيقه، مؤمنا برعايته العظمى وتسديده.

فطاف على القبائل يعرض عليهم عهد الرسالة للعرب في محضنها الأول، حتى وصل إلى اللحظة التاريخية في أحياء يثرب ضمن موسم العرب الأكبر، في حجهم، وفور لقائهم كان هناك أساس تفهم واستعداد نفسي، ربما لطبيعة المجتمع اليثربي وانفتاحه الأكبر بكثير من مجتمع مكة القرشي وصلف نظامها الكافر.

ولكن العنصر الثاني المهم جداً (والذي أشرنا له في فصول سابقة) هو الخلفية الثقافية لدى المجتمع العربي البسيط، المعتنق للشرك، عن الرسالة السماوية من مواليهم، أي حلفائهم اليهود العرب، وهو أول ما بعثه رسول الله ﷺ في فكرهم، حين التقى رهط الخزرج الأول.

أمن موالي يهود؟

هكذا سألهم فأثار فيهم حديث الأنبياء الذي يُنقل إليهم، والنبي الجديد الذي تتوعدهم به يهود، لوروده في أسفارهم، ومع ذلك الكثير من قصص وأخبار وروايات أهل الكتاب مرّت بعارضة المجتمع اليثربي الجديد، فأدرك شيئاً من قصة الخلق والرسالات.

ويثرب ـ أي ـ المدينة المنورة النورانية، والأحساء المسماة قديما البحرين، هما من أسلما لله طوعاً، دون أي بعث لقوة تحمي بلاغ الرسالة، ودون أي عنت، والمشترك المتحد بينهما، هو الانفتاح الفكري والثقافي، وتمكن رسائل أهل الكتاب بينهم، قبل البعثة، وقد ورد أنهما كانا خيارين لموطن بعثته ﷺ واختار الله له المدينة التي فازت به، وفازت الأحساء بذكرها في القرآن وثناء نبيّها، إذ أسلمت لله طوعاً، وثبتت مع طيبة حين ارتد بعض العرب.

نبي السلام والوحدة

ومن أول العرض النبوي استقرت الفكرة المؤمنة المشرقة في نفوس الخزرج، وكان لافتاً للغاية، أن النفر من الأنصار ﷺ استشعروا فوراً، ما تعصف به الجاهلية في أحياء العرب والقتال الغبي واستباحة الأنفس، وما تعيشه يثرب من شقاء في ظل هذا الصراع، الأحمق وفقدان النفوس، وهو ما عبّرت عنه كلمتهم قبل انصرافهم بأن يجمع الله بالنبي ﷺ أحياءهم المتصارعة.

وشعروا فوراً أن هذه الرسالة رسالة سلام ووحدة وطمأنينة بين الأوس والخزرج، كما أنها رسالة أمل بين كل عربي وعربي مزقتهم ثقافة العصبية، وأهدرت مئات الآلاف من دماء أبنائهم، فيما جاءت رسالة الإسلام والإيمان لتنقلهم لروح من الوحدة والطمأنينة وحمل الخير إلى أنفسهم وإلى الناس، وتوجيه الفداء لأجل الرسالة في منزلة الشهداء عند الله وعند الإنسانية، لبلاغ الرسالة المحمدية.

تثبيت التصديق وحمل الرسالة

وانتهى الاجتماع بعد وعي الثلة الأولى من الأنصار، بأركان الرسالة والبلاغ، وذلك اليقين الذي وقر في قلوبهم، لصدق هذا النبي العظيم، ومن ثم تم الاكتفاء بهذا اللقاء في هذه الجولة، وتُركت لهم مهمة تبليغ مجتمعهم، دون ترس أمني ومطاردة من نظام الطغاة الكافر، الذي تعيشه مكة، فكان ما هو فوق المؤمل حين بعثت دعوة الرسالة في أجواء حرية لا تقهرها الدكتاتورية.

الفجر يشرق في المدينة

(فلما قدموا المدينة إلى قومهم، ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشى فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ).

دلائل دقة الفكرة التي ذكرناها، هو أن وصول الوفد الخزرجي الأول وعودته إلى يثرب، تَتابع فيه إسلام الأنصار أوسهم وخزرجهم، ولم يُحِل العداء بين الحيين، إدراك حقيقة هذا الدين وإشراقه في نفوس المسلمين الجدد، فلم يبق بيت من بيوتهم إلا وقد وصلته الدعوة.

ومراجعة المرحلة الزمنية لتواصل النبي ﷺ مع الأنصار تظهر لنا حجم الدقة التي اعتمدها، ووضع الجدول الزمني وعدم التعجل، وترك قضية القبول وقرار الالتزام برسالة الإسلام تتوثق في نفوس الأنصار، رغم الوضع الصعب في مكة.

فوفقاً لجدولة السيرة فإن النبي ﷺ التقى الخزرج وثلتهم المؤمنة في موسم الحج، من عامهم ذلك، ثم التقى وفود الأنصار في العام الذي يليه لبيعة العقبة الأولى، ثم العام الثالث لبيعة العقبة الثانية.

وتتابع التصديق بينهم، وكانت مهمة البلاغ واضحة في تنقية آثار الشرك وتصفية الروح والأخلاق، والنقاء من طبائع السوء التي فرضها المجتمع العربي الجاهلي، فأخذ النور يتجلجل في المدينة ويشتاق إلى لقاء الرسول العظيم.

لماذا بيعة النساء؟

(روى ابن هشام الحوار الذي دار في بيعة العقبة الثانية بين رسول الله والأنصار:

فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**». فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعنّك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر).

في عام واحد تحوّل رهط يثرب الأول إلى مجتمع مسلم بين أظهرها، فوفد إلى النبي ﷺ كممثل لهذا المجتمع فعزز رسول الله رابطته، وأرسل فيهم مبشر الإسلام المضحي بغِنَاه، الشاب الوسيم، الذي تخلى عن زينة الدنيا، لأجل بلاغ الناس وإنقاذهم وتوصيل كلمة الله إليهم، فكان مصعب بن عمير رضي الله عنه مقرئ المدينة وسفيراً بينهم.

وبايعهم ببيعة النساء، والمقصود أنه ﷺ بايعهم على الإيمان والتصديق وأداء العبادة، كما بايع أخواتهم من نساء مكة. حيث لم يكلف المجتمع اليثربي المسلم، بمهمة قتال ولا دفاع عسكري عن النبي ﷺ بقرار منه.

وهكذا أمضوا عاماً كاملاً دون أي إلزام لهم، بحماية النبي ﷺ في مكة،

ولا القيام بأي دفاع عسكري عنه بعد بيعة العقبة الأولى، فكانت هذه المرحلية الدقيقة قمة في التخطيط، وفي المساحة التي يمنحها النبي ﷺ للمجتمع الجديد.

ويترك له مسار تمكن ذاتي حتى تقوى قناعته وينضج الظرف حوله، وهو درس لمن يسلق الزمان والمكان لمجرد دخوله إلى مجتمع غريب، أو وصول خطابه الإسلامي إلى مرحلة تمكن أولى، لم تستكمل شروطها، ولم يعرف هو شخصيا ومجتمعه الخاص طبيعة الواقع ولا متطلبات الثبات في هذا الواقع أو المجتمع الجديد.

بيعة العقبة الثانية النضوج المكتمل

كان نجاح مراحل التعاطي مع المجتمع الجديد، مذهل في حجم الانتشار وفي طبيعة الإيمان بصدق الرسالة، وهو تبع لقوة بلاغها في النفس البشرية في ظروف الحرية، وأيضا ضمن دقة تقسيمه ﷺ لمهام المجتمع الإسلامي الأول وحاجته لوعي البلاغ والفداء من أجله، واكتمال التهيئة الاجتماعية والفكرية، لبناء النظام الإسلامي الأول.

وهنا يبرز لنا أمرٌ مهم، وهو هذا التكتم وترك الضجيج الإعلامي والمبارزة بالقول وتحقيق هذه المرحلة في سرية تامة، بين البيعتين، بل وبعدهما، حتى تفشي ذلك الخبر، في توقيت قدره الله لبدء تأسيس دولة الدعوة.

فقدِم للأنصار وهم في قمة التطلع لتأكيد احتضانهم للرسالة، وشوقهم للرسول، حينها كان المجتمع واضح المعالم، منظم الحضور الاجتماعي يرشح نقباءه وفق تراتيبية المجتمع العربي، لكن بأخلاقيات النظام الإسلامي، فبايعهم النبي ﷺ هذه المرة بوضوح على حمايته وحماية الدعوة.

بين العباس وعهد الأنصار

ثم من قريش كما روى ابن هشام تحدث العباس كعصبية حماية للنبي ﷺ:

(كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج، إن محمداً منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحاق

بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده).

مرة أخرى يلتقيهم النبي ﷺ في موسم العرب الكبير، ويتجنب أي تجمع يرصده طغاة مكة أو حلفاؤهم، ويتعامل مع الموسم الاجتماعي العربي في حينه، وفي هذا اللقاء التاريخي، يتقدم العباس عم النبي ﷺ لطرح مرافعة صريحة وإعذار بين مجتمع الأنصار، وقد طرح ذلك وهو على شركه، الذي لم يمنعه قوة رعايته للنبي ﷺ.

طرح العباس على المجتمع الإسلامي الجديد، حقيقة التحديات وطبيعة ما سيتعرض له النبي ﷺ، وأنه وثلة المؤمنين به وثلة المشركين المتضامنين معه وعلى رأسهم المطلبيين، لن يسلموه، ولكنه قرر الانضمام إلى المجتمع الإسلامي الجديد، فهل هذا المجتمع مستعدٌ لتقديم الضمانة.

ترك النبي ﷺ العباس يقدم مرافعته ويعرض موقفه، وموقف الحلف الحقوقي الاجتماعي دون أي رد ولا تدخل، وبرزت حينها روح قوة الإيمان التي تسري في عروق مجتمع الغد المسلم، وحملة رسالة الإنقاذ للأمة العربية الجديدة، بأنهم واعون كل الوعي لمثل هذا القرار ملتزمون به ماضون عليه.

(فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان، فقال يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «**بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**»).

غير أن اعتراض أبي الهيثم بن التيهان رضي الله عنه أوقف الزمن لحظات، في منعطف مصيري، وفي ظني أن تبسم النبي ﷺ في إجابته، كان تبسم المغتبط من هذا العهد الوجداني التاريخي للأنصار، وفهمه لدوافع أبي الهيثم بن التيهان من انتزاع القرار.

كان اعتراض أبي الهيثم بالحديث نحو رسول الله، حين قال: ماذا لو أظهرك الله يا رسول الله بعد أن نابذنا اليهود؟ حيث يدل على ما وقر في قلوب المسلمين الأوائل الخشية من غدر اليهود لفهم طبيعة الغيرة الشرسة من تبني

العرب المشركين للرسالة السماوية فيتحرروا من الوثنية، وأن اليهود يميلون لمنابذتها، رغم أن الأصل أن يصطفوا معهم فيها، وكان الحديث في ظاهره عهدا لا يطلب مباشرة من رسول الله أدباً معه.

لكنه في الحقيقة كان دثاراً وجدانياً عميقاً يتقد في نفس أبي الهيثم التيهان كما هو في الأنصار، بأن تبقى المدينة مأرز رسول الله، ومنزله وعاصمة الرسالة، وهو شوق وجداني وإيماني معاً، حظي به الأنصار في هذه اللحظة ووجدوا من رسول الله كل وفاء، فبكت أرواحهم فرحا وغبطة، من ذلك اليوم حتى يوم حنين وهم يرددون رضينا برسول الله قسما وحظاً.

إن علاقة النبي ﷺ بالأنصار والمدينة قصة حب ووفاء بين الإنسان والجغرافيا، لا تعادلها أي قيمة معنوية في تاريخ الإنسان والمكان بين البشرية، وهذا هو أحد أسرار الارتياح الروحي الذي يغشى كل نفس، تقصد مدينته، طيبة الطيبة بمصطفاها العظيم.

الخطاب الحر والدفاع المسلح

وفي هذه البيعة تم إبرام التضامن العسكري والدفاع عن الرسول والرسالة بوضوح، من قبل الأنصار، حين يستهدف النبي ﷺ أو رسالته فيهم، ولم تنص على الخروج خارج حدودها، وهو ما ظهر في مشاورات غزوة بدر التي سيأتي إيضاحها بإذن الله.

وهنا يتبين لنا بصورة لا لبس فيها، أن مجتمع الرسالة الإسلامي، استنفذ كل طاقة وجسور، لتحقيق اتفاقات وأحلاف لتبليغ الرسالة، وضمان سلامة خطابه المدني، لكن برز جلياً طبيعة الرد العدواني لنظام طغاة مكة ومن شاركهم من هذا المحيط، والذي فاض عداؤه إلى مهجرهم للحبشة.

قوة الدفاع وحق الرسالة

وفي تاريخ الإنسانية، يتبين لنا أن قوة الدفاع عن الحق ضرورة مطلقة، وأن البغي العنيف والظلم لا تردعه كلمات البلاغة والحقيقة، مالم تُحمَ وتواجه نزعات الشر في البشرية، التي يُمثل بعضها قمة الوحشية، حين ينحرف ويغالي في عقيدته، أو في عصبيته، وأن هذا الصنف المسيطر على مصائر مجتمعات

وشعوب، الرافض لكل منبر حر يبلغ الدعوة بين الناس، لا يصلح معه إلا تأديبه، وتحييده عن قرار البشر وفكرهم.

انتهى اللقاء التاريخي وأجيب العباس بكل وضوح وجلاء بأنه العهد.. العهد، وأجاب رسول الله نفوس الأنصار، أنا منكم وأنتم مني، بل الدم.. الدم والهدم.. الهدم.

فاطمأنت ثلة المؤمنين إلى جوار خير الثقلين، وقبل الانصراف نظّم النبي ﷺ البناء الاجتماعي المدني والسياسي، واختار اثني عشر نقيبا هم مرشحون في أقوامهم، كبرلمان وقيادات ممثلة للمجتمع الإسلامي الجديد، وشركاء الرأي والإدارة التي يطلبها رسول الله ويحيل إليهم المشورة.

المتمرد الشرير والجنّ المؤمنون

وروى ابن هشام حادثة جرت في طريقَ الطائف للنبي ﷺ:

(ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى وهم فيما ذكر لي سبعة نفر من جن أهل نصيبين فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا).

كل ما بلغنا عن النبي ﷺ وما جاء في كتاب الله العزيز، أنه نبي للثقلين والتقى موفد الجن الذين آمنوا في مكان يقال له النصيبين.

والإيمان بوجود خلق آخر، مُسلّم عقلي حين تقرأ مؤسّسات علم الغيب وأن لله خَلْقاً آخر، بل وكَوناً دُونَنا في مجرّات أخرى، لا ندرك معاهدهم ومعالمهم، كطبيعة كل نظام كوني خُلِقَتْ فطرته مستقلة عن الأخرى، وما مهمة البشر إلا فهم دلائل العقل من حولها ويقين رسالة الأنبياء واتباع هديهم، واستخلاف أرضهم لمصالحهم.

ومن هذا الخَلق الشيطان، الذي كان من الجن ففسق عن أمر ربه، ولله في منحه مساحة تمرده، حكمة لتثبيت إيمان المؤمنين، أمام وسوسة الشياطين، وهي قصة عميقة الحكمة في رحلة آدم وصراع الشيطان، الذي مُنع من أي سبيل مادي قهري أو عقلي على الناس، ولكن كيف يوسوس ويصور، تلك رحلته

التي يقضي فيها تمرده قبل عقابه الأزلي، لغيرته وكراهيته لإيمان الناس بالله الموجِد المعبود.

خبر العقبة ينتشر

يقول كعب بن مالك أحد الصحابة الذين حضروا البيعة:

(فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعتُه قط: يا أهل الجباجب - والجباجب = المنازل - هل لكم في مذمّم والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم فقال رسول الله ﷺ: **«هذا أزب العقبة هذا ابن أزيب** - أي الشيطان - **أتسمع أي عدو الله أما والله لأفرغن لك»**.

ثم قال رسول الله ﷺ: **«ارفضّوا إلى رحالكم»**، فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا فقال رسول الله ﷺ: **«لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم»**).

ولذلك كان إبليس اللعين عدواً لهم ولنجاتهم، دون أن يملك سببا ماديا يكيد لهم به، وهنا حضر في يوم العقبة التاريخي بعد اكتمال المرحلة، وكان مبدأ التسريب بصرخته، وسواء تسرب خبر البيعة إلى المشركين من الشيطان لتوقيت أراده الله أو تتبعهم بعد ذلك حين استقصوا الخبر.

فإن النتيجة واحدة وهي بلوغ المشركين الخبر، عندما تقصوا عنه في حيهم وأحياء الانصار، وهو يُشير إلى أنهم لم يبادروا عند صرخة الشيطان، وإنما بعد ما أصبحوا، ولعل ذلك من عهد النبوات حين يُبلغ النبي ﷺ بتسرب الخبر.

ونلاحظ هنا أن النبي ﷺ حال تسرب الخبر، وعرض الأنصار واستعدادهم للمواجهة العسكرية، رفض ذلك وأكد لهم البقاء في حال التكتم، وهو ما تحقق بالفعل، وانتهت جولة الجدال بين مشركي المدينة ومكة بأنه لا يوجد تأكيد لذلك.

نفير العرب من منى والتاريخ

ونفرت القبائل إلى أوطانها ومنهم الأنصار، وسَلِموا كلهم إلا سعد بن عبادة بعد توثق المشركين من الخبر، ومع ذلك تم تأمينه ضمن جوار العرب

الذي تبادله مع جبير بن مطعم والحارث بن حرب، فاستنصرهم وفق هذا النظام، فوفّوا له وعاد إلى المدينة.

وهو تأكيد على مساحة استثمار النظم الحقوقية والتحالفات الاجتماعية السياسية، لمصالح المسلمين.

ومن هنا يتبين لنا إنهاء هذه المرحلة كما خُطط لها كليا، لكن الله أراد لمرحلة الدولة الجديدة البدء، وذلك بشيوع الخبر بعد تكامل البناء لتحفيز الهجرة الكبرى.

العباس والنبي والعلاقة المدنية مع الكافر

كيف نقرأ هذا الدعم الضخم والرعاية الكبرى بين العباس وابن أخيه رسول الله ﷺ وهو في حال صفة الكفر، كما أكد على ذلك، في تشديده على الأنصار، وكيف كانت علاقة المطلبيين وبنو هاشم به في تضامنه، وهل كان ذلك حكرا على المُطلبيّين أم أنه تكرر في صور تحالف وجوار متعدد، بين مسلمين ومشركين، وهل استمر ذلك طوال رحلة الدعوة أم أنها نماذج محدودة، هل هو خاص بالنبي ﷺ، أم عام لأمته، وتشريع لرسالته ولبلاغ البشرية.

كل استعراض سيرته ﷺ ومحكم الكتاب العزيز، تؤكد أن هذا منهج عام وتشريع شامل، لا خصوصيّة ولا استثناء، وليست مما ينسخ من الأحكام.

إن العلاقة بين أطراف الإنسانية (المؤمن والكافر) فيما علمه الله من قبل، لم تُنظّم في السلوك العلني ولا في الأخلاقيات، على مواجهة ولا منابذة للأشخاص، وإن شرعت منابذة السلوك أو الفكر المنبثق عن الكفر، لكن الأصل في التعامل بينهما هو العهد المدني التعايشي، الذي يفتح الباب لتطور أخلاقي وسلوكي، قد ينتهي إلى إسلام هذا الرجل أو تلك المرأة.

فكيف تُشرع المواجهة بين المسلمين وغيرهم ابتداءً؟

وخلط ذلك بما ورد وثبت في السيرة عنه ﷺ ومحكم آيات القرآن، في أحوال الكفر الحربي، أو جدال ذوي البغي والوقاحة، المفترين على الرسالة بقبح لفظهم ودعايتهم، ليشمل كل كافر، هو تحريف لأصل الدين ومحكماته.

والبوابة الإنسانية هي الباقية وهي الأصل في العلاقة، ترتفع وتنخفض بحسب الإحسان والإساءة، وعلى المؤمنين كفلٌ من حق الجوار والرعاية وإنصاف المظلوم ورعاية المحروم، ففي كل كبد رطبة أجر، ولا يجوز أن تُفرض مشاعر وسلوك حربي وأجواء عداء مع شخوص لا تؤمن بالإسلام لمجرد كفرها.

وطلب من المسلمين توثيق عهودهم وتراحمهم الخاص بينهم، الذي يقوم على العدل والحق ومحبة المؤمنين ولا يُقر مطلقاً ظلم الكافرين بينهم، ولا يقبل ولا يُسلّم لظلم الكافرين وتعديهم على المسلمين، كما أنه حرم البغي والظلم بين المسلمين ذاتهم، الذين عاشوا مراحل صعبة بينهم، منذ انقضاء عهد الرسالة الأولى، وكانت سببا رئيساً في تمكن الكفر الحربي منهم، وتفريقه لهم.

ومن دروس رحلة العباس في كفره، أنها لم تمنعه أن يدعم النبي ﷺ بكل ما أوتي من قوة، بل ويصدق معه ويذب عنه وهو ما يتكرر في رحلة الحياة لمسلمين مع أصدقاء أو معارف أو أقارب من غير دينهم، ولذلك فالإنصاف والتقدير وردّ المعروف هو المشروع وهو المطلوب معهم في كل زمان ومكان.

فأين ذلك ممن يعتمد الحرب ومباغتة الناس بها على كل كافر، كيف ما كان وأين ما كان، ويسقط كل عهد وكل عرف؟

ما هو هذا الدين الذي زعمه، دون نهج رسول الله وسيرته، كيف تأتي رسالة لدعوة الناس إلى الدين وإنقاذهم، وهي تُشرّع مباغتتهم وقتلهم، كما يفعل الغُلاة البغاة الطغاة، إن الطغيان قد يأتي من نظام مستبد، وقد يأتي من صناعة عقيدة دون عقيدة المسلمين، تمتحنهم بها وتشرّع قتالهم لأنهم لا يؤمنون بعقيدتهم، وليس عقيدة الإسلام وحنيفيّته السمحاء.

الدولة الإسلامية
والنظرية العلمانية

لماذا الدولة الإسلامية؟

لماذا يؤسس النبي ﷺ دولة الرسالة؟ ولماذا يُهيئ لها ولماذا يقودها سياسيا واجتماعيا وروحيا؟، وما هو الفرق بين دولة الدعوة، ودولة الخلافة حين ترشد بمنهج الراشدين، وبين دولة السلاطين وبين دولة الأمة، ودولة القطر المسلم؟

قضايا معاصرة مهمة توضحها لنا معالم السيرة النبوية لو تأملنا فيها جيداً، ولقد شُوِّهَ هذا المصطلح كثيرا، من خصوم المسلمين ومن حماقات أو جهل من استخدمه، ولكن أول ما يعنينا أن النبي ﷺ وبحسب النقل القطعي مارس مهام القائد العام للدولة، كرئيس لها وليس فقط كنبي بين أظهرها، وهي قضية حين تُقرأ ببساطة، تؤسس لإسقاط مركزي للنظرية العلمانية في فهم الرسالة الإسلامية.

لكن كيف يكون ذلك فيمن بعده ﷺ؟ وكيف تتجسد دولة الخلافة الراشدة ومن هي؟ وما مسؤوليتها وطبيعتها؟ ومتى تكون خلافة راشدة، ومتى تكون سلطانا يضم بيضة الأمة ودولتها، ولكن لا يقوم فيها العدل الذي أمر الله به؟

هناك فرق كبير

فدولة الخلافة لا تطلق إلا على من يقوم بشروطها، من حيث العدالة ورضى الأمة لا قهرها وتوريثها، ولذلك لم يرضَ السلف إلا لعمر بن عبد العزيز بمصطلح الخليفة الراشد، وكذلك الحسن بن علي قبله ومعاوية بن يزيد، لكن

الأخير لقصر مدته وورعه الشديد أُسقط من حسابات المؤرخين، خاصة أن اجتهاده بالتنازل عن الحكم لبغي والده وخطأ جده، تحول لاستئناف بني أمية حكمهم لا حكم الأمة الراشد.

أما انتقال الأمة لحكم سلطاني باسم خليفة أو بدون منذ العهد الأموي، فهي هنا دولة أمة جغرافياً، تجمع أكثر المسلمين وشعوبهم حين تقوم على هذه الجغرافيا والديمغرافيا، ولكن ليس لهم عصمة ولا حق تشريعي، بل العدالة السياسية هي المعيار، والتي سنوضحها في القسم القادم.

الخلافة العادلة والدولة المعاصرة

ونحن نصل إلى مرحلة تأسيس الدولة الإسلامية الأولى في عهد الرسالة، نحتاج أن نعرف شروطها في عهد النبوة وما تلاها، ونقوّم ما دار من نقاشات واستدلالات عاشها المجتمع الإسلامي المعاصر، تحت ظل آمال الوحدة الواجبة، وشطّت بها أفكار التنفيذ لدى بعض الجماعات، في استدعاء الخلافة لصالح هذا المشروع السياسي، أو ذاك وفرض أي نموذج متاح لهم ثم جعله جهة التحاكم والتشريع، مما دفعهم لرفض أي أدوات تحقق العدالة السياسية التي صنعتها النبوة والعهد الراشد.

العدالة السياسية والدولة الدستورية

أحد أهم الإشكالات في وعي شريحة من الشباب الإسلامي، وتحديداً التيار المحافظ اليوم، وما يمنع فهمه الدقيق المطمئن لخوض التجربة الديمقراطية أو القبول بها هو شكوكه في موقفها من الوحدة الإسلامية، وواجبات التضامن التي نصّ عليها القرآن الكريم وصحيح السُنّة وتواترت معانيها كثابتٍ قطعي لا مجال للتشكيك فيه، وأسست عليه دولة الرسول ﷺ.

وهو مفهوم طبيعي لحماية كل مجتمعٍ إنساني، وتشريعات تضامنه ورعايته الذاتية، ليُحقق العدل له ولمن التحق بذمامه ولكل مظلمة تَرِد إليه في هذا العالم الإنساني.

والوحدة المنظمة المفضية لتحقيق العدالة للأغلبية والأقليات وردت في أحكام ومفاهيم، يُغطّيها النّص الشرعي قبل الخطاب الفكري، وخاصة في وثيقة المدينة، التي سنتناولها.

لكن أول أساس يُناقش فيه هذا المفهوم الخاطئ هو: ما هو صورة النظام الدستوري الديمقراطي الذي يتصوره الشاب المحافظ؟ فهناك إشكالية عميقة هنا في الفهم، فهذا النظام الدستوري هو الذي يكفل للمواطنين من الأديان والطوائف الحق الدستوري الوطني وأن مسار فهم دفع الجزية في الشريعة التي وردت في تنظيم الحروب، إنما يؤسس على مفهوم الشراكة في المواطنة من حيث المساهمة في الدخل الاقتصادي، مع الحاجة إلى فهم هذا المجال بعد انصرام الحرب والمواجهة العسكرية.

أي أن هذا الإنسان المنتمي للدولة الأممية أو الدولة القطرية، أضحى بعد هذه المواجهة مواطناً، من أبنائها وعلى ذلك كان تعاطي الدول الإسلامية من الأمويين إلى العثمانيين يقترب من هذه الصورة، وأضحت هذه الجماعات البشرية من الأديان شركاء مواطنة شاملة يُستثنى منها الرئاسة، مع التأكيد بأن جوانب من الظلم كانت نتيجة استبداد عاشتها هذه الدول أو سوء تفسير خالف الفقه الراشد.

الرئاسة حق طبيعي للمسلمين

واستثناء الرئاسة للمسلمين في بلدانهم حق طبيعي للمجتمع القائم أصلاً على رابطة الرسالة الإسلامية أو تأسست أقطاره لهذه المجتمعات المنتمية للدين الإسلامي، ورغم كثرة الجدل وتوسّعه حول الحق الدستوري للرئاسة لغير المسلمين في الوطن العربي.

إلّا أنّ هذا الأمر في الغرب وخاصة في الممارسة العملية له لم يُخرق وبقي موقع الرئاسة لدى الغالبية الدينية وهي في أوروبا وأمريكا الدين المسيحي، ولذلك فحلقات الجدل ليست مهمة عملية في التقنين الدستوري بقدر ما هي بضاعة للمناكفة مع الإسلاميين.

حقوق غير المسلمين
لا تعارض رابطة المسلمين

إن الفكرة التي تستقر لدى بعض الشباب الإسلامي من أنّ هذا التضامن الحقوقي يؤثّر على الرابطة الإسلامية، خطأٌ أصلي في فهم النّص، كما أن اعتقاد أن تأسيس العقد الاجتماعي الدستوري لهذه الدولة أو تلك يعني منع التضامن مع المسلمين المظلومين أو المحرومين، هو خطأٌ أيضاً.

فهذا مداره على التشريعات التي تُقنّن في كل عقد اجتماعي ومساحة حرية المجتمع المدني، وأن الإطار الديمقراطي ممكن جدّاً لتحقيق تطبيقات واسعة من التضامن والعون إذا سَلِم بالطبع من بطش الدكتاتورية أو تفسيراتها.

وحديثنا هنا دائماً ينصب على أن المقصود هو مناقشة المسارات الديمقراطية وأدواتها كوسيط تنظيري مناسب جداً لتحقيق العدالة في مجتمعات المسلمين بالتراضي، وليس حين يُختطف أو تقلب تطبيقاته، فهذا مسار آخر، يتحوّل فيه النقاش إلى أدوات وثقافة المستبد الجبري أو القهري، باسم الحكم الشمولي أو الديمقراطية المزورة، أو الممسوخة كالتي خلقها احتلال العراق المعاصر.

القطر المسلم العادل مقدمة للأمة

ومن هنا نقترب من الصورة الأدق وهي أن النظام الديمقراطي والحريات التي تسود فيه قُطرياً، هو إطار لتحقيق هذا التضامن ومد يد العون لمناطق المسلمين، بل هو الأفضل والأكثر سعة للحراك الشعبي.

مقابل قبة المنع الشاملة أو القطيعة مع العالم الإسلامي المنكوب، التي يُنفّذها نظام حكم شمولي يُدعم ويُحارِب أي تطوير ديمقراطي له بحجة رفض الديمقراطية دينياً، وأنها لم ترد في عهد الرسالة، فيما المقصود من درس السيرة تحقيق العدالة السياسية كواجب شرعي، عبر هذه الأداة المعاصرة.

فالبلدان التي تعيش مساحة أو هامشا ديمقراطيا حقيقيا، هي الأقدر اليوم على تحقيق معايير تضامن وتواصل مع مفهوم الوحدة الإسلامية أكثر من غيرها من الأنظمة الشمولية.

كما أن مساحات الحرية تعطي روح التضامن مادة أخلاقية سلسة ومهذبة، وليس سلة مواسم تعلن لأجل هدف سياسي بحت، مع جفاف وبأس شديد يعتري علاقات المسلمين في هذه الأقطار، التي يغيب عنها روح النظام الدستوري الديمقراطي.

الخلافة والديمقراطية

إن مفهوم الخلافة كتنظيم تشريعي، لا يزال أحد أهم المصطلحات السائدة

في أدبيات الحركة الإسلامية، والموجود بكل تأكيد في مدونات الفقه الإسلامي، والتعاطي الدقيق مع هذا المصطلح من حيث اعتباره مشروعا نهائياً لمسيرة الرسالة الإسلامية، يحمل في طيّات آماله وخطابه أن هذا التجمّع الإنساني العابر للحدود سيكفل في نهايته وحدة المسلمين وممانعتهم وإقامة العدل بينهم.

هذا من حيث الآمال المعقودة، وأمّا من حيث استعراض التجارب التاريخية للمسلمين، فإن هذا المصطلح أي الخلافة، قد يُطرح على من لم يستحقه شرعاً - أي - أنها دولة إسلامية صفة لمناطق المسلمين، وليس دولة استكملت الشروط الشرعية للخليفة العدل واختياره.

وهكذا جرت مواجهات ورفض من حركات إصلاحية من الصحابة والتابعين، لرفض اعتبار التوريث خلافة شرعية للظالم، وإنما عاملوها كحكم جبري، وبغض النظر عن وقوع مدارات إيجابية وتطويرات إنسانية في هذه الدول التي تولّت بعد الحكم الراشد للخليفة عمر بن عبد العزيز والحسن بن علي وما بين حكمهما وعهد الإمام علي بن أبي طالب.

فالمقصود هنا طرح مسارات الخلاف، ابتداءً في تحقيق معنى الخلافة التي تُوجب العمل لأجلها عند من يرون ذلك بناءً على صفات الخليفة وعدالته وليس لأنه انتزع المصطلح وسار عليه التاريخ، فالتسمية التاريخية لا توجب فضلاً شرعيا ولا حكماً تفصيلياً.

ولكن من المفهوم أيضاً أن جزءاً من هذه المشاعر، مردّها إلى أنّ حالة الضعف للمسلمين، وكثافة الاعتداء عليهم، مردّه لعدم وجود مركز وحدة تملك قرار النجدة والدعم، وليس المقصود هو تحقق الشرط في هذا الخليفة أو ذاك.

التفرق وضعف المسلمين

مشاعر التفرق وضعف المسلمين منها، متفهمة كلياً، في ظل الوضع الذي يعيشه العالم الإسلامي مع الأخذ بالاعتبار أن بعض الكوارث والحروب التي شُنّت على العالم الإسلامي والمذابح التي جرت كان أيضا خلال تواجد لمسمى خليفة على العالم الإسلامي رمزياً أو نسبياً، وحسبك بذبح التتر لبغداد تحت مسمى الخليفة العباسي.

وعليه.. فإنّ التعلق بهذا المصطلح كيفما كان وكيفما اتفق وبناء أحلام العدالة والقوة المانعة عليه ليس صحيحاً، بل هي تصورات تعيشها الأمة وتتأثر بها في خطابها إثر الضغط الهائل من الاستبداد القُطري والاعتداء الخارجي، والتحالفات بينهما التي تعصر العالم الإسلامي أو الوطن العربي.

الوحدة الإسلامية الفريضة الشرعية

وستبقى هنا مسألة رئيسية واضحة المعالم في السيرة النبوية، أن إقامة الوحدة بين المسلمين تدل عليه نصوص قطعية، كما أن أمر تنظيم شؤونهم في الحياة السياسيّة له دلالته من التجربة التاريخية وبعض ما ورد من نصوص، بغض النظر ودون الحاجة إلى التوسّع في الخلاف، ورؤية البعض لصحة حديث الخلافة على منهاج النبوة، حيث معناه والسياق التاريخي يُعززان صحته.

الدولة القطرية العادلة قوة للمسلمين

فإنّ هذا الخلاف، لا يُغيّر من المفهوم الأصلي للتعاطي مع مشروع الوحدة والخلافة الإسلامية عند الإسلاميين ذاتهم، فتحوّل دول قطرية إلى نجاح في حكمها العادل والأمين، أو مقاربته ثم تحولها إلى قوّة إقليمية تتوزّع في جغرافيا العالم الإسلامي.

يترتب عليه حينها تأسيس إطار وحدوي عبر اتحاد فدرالي أو كونفدرالي، فيكون رئيس هذا الاتحاد، في مكان الموقع المعنوي للخليفة أو السلطان الموحِّد لهم، دون ضرورة ربط بهذه التسمية التي تسمّى بها فئام، وهم (بمقتضى أقوال أهل العلم) ليسوا خُلفاء ولا حتى أمراء صالحين.

من كل ذلك يتضح أن مساحة الفقه النظري والتقعيد الفكري لمصطلح الخلافة في الشرع وفي تاريخ المسلمين ثم في مدلولاته السياسية المعاصرة، ليس كما يعتقد بعض الشباب وليس مسوغاً معقولاً لرفض إطار سياسي تحققه ديمقراطية حقيقية أو أي أداة مدنية، لصناعة هذا الوطن كقوة سياسية واجتماعية لهذا الشعب المسلم أو ذاك، ودعم المقاومة الاسلامية المشروعة للتَحرُّر، في إطار ميثاق انتقالي مدني لدولة مسلمة قوية.

المشروع الديمقراطي والمهام الإسلامية

بل حين ينجح المشروع الديمقراطي (الحقيقي وليس المزيف) يصبح رديفاً لتحقيق الوحدة القوية بين أقطار المسلمين وصناعة ثقافة ونهضة ذاتية ترفعهم من العدو الثلاثي الأبعاد (الجهل، الفقر، المرض) الذي حاولت حركة الإحياء الإسلامي في مطلع القرن العشرين أن تحرّك الوعي الديني والثقافي لمواجهته.

ولا يزال هو ذاته يفتك بالعالم الإسلامي، ويحجبه عن الوعي الحقيقي لرسالته الإسلامية، ويُمكّن الاستبداد الداخلي والخارجي، من اضطهاده مع مسؤولية هذا الاستبداد في تفشيه.

فأيُّ الفريقين خير.. اتحاد قوي قائم على حريات شعوب وأوطان ويوحدها بعد ذلك حين تتيسر له العناصر الموضوعية، وأقرّ مرجعية رسالتها الإسلامية بقوانين العدل والتقدم الحضاري؛ أم أسماء لزعامات بغي أو مشاريع عاطفة، لم تُقِم وحدة مانعة ولم تنقذ شعباً واحداً من تفريق صفوفه ولا انتزعت له حقوقه؟

الهجرة الكبرى
والإعلان العالمي العام

باتت الدعوة الإسلامية، ورسالة البلاغ الكبرى للإنسانية لتتقدم لحياة جديدة، ومستقبل منير في فكرة الإنسان وعلاقته مع خالقه، وفي استقرار حياته وطمأنينتها، بما يطابق الفطرة، في مرحلة الإعلان العالمي العام.

ولم يكن هناك مجال مطلقاً، للإعلان العالمي الذي سيتوجه للمعمورة، ويتخطى أنظمة الاستبداد، للوصول للبشرية المحرومة، دون إقامة الدولة الإسلامية المركزية، والتي يدير شؤونها النبي المرسل، في مرحلة التشريع، ثم تنظم بهدي الإسلام الشامل بين حقوق الله وشريعته لوعي المسلم ولمستقبل الأرض، وبين حقوق الإنسان التي فرضتها عدالته.

الدولة وآذان القتال للمظلومين

لقد بلغ البغي الوحشي من قريش مبلغاً كبيراً، في اضطهاد المستضعفين المسلمين، ومحاصرتهم، وقتل بعضهم والفجور اليومي الذي لا يمل نظام الطغاة في مكة من تسليطه ضرباً وتسفيهاً معنوياً، ومع ذلك لم يأذن الله بالقتال ورد الظلم الواضح الجلي حتى وصل المجتمع المسلم، إلى الحد الأدنى، من قدرات المواجهة العسكرية.

وخاصة ضمن وعاء سياسي مركزي ثابت هو الدولة الإسلامية، لا اجتهادات أفراد أو مجموعات مستقلة، إن العودة لخريطة التشديد في حمل السلاح لرد البغي والجور الظالم الذي تعانيه الأمة من الطغاة والمستعمرين الظالمين، يبيّن لنا بجلاء حجم حذر الشريعة من قرار الولوج في الدماء، قبل استكمال متطلبات النجاح، وتحقيق أوسع قدر من سلامة المدنيين.

وهذا لا يعني أبداً دعم الطغاة الكفار أو المستبدين ولا تقديم تزكيات لهم، لكنه الحذر من دخول مرحلة مواجهة غير متكافئة معهم، وقد وَرَدَ بالفعل أن رهطاً ليس باليسير من السلف، لما رأوا شريعة الإسلام في العدالة السياسية، تُنقض ويحل محلها توريث مستبد ظالم، دعموا الثورات المسلحة عليه.

لكن السياقات النهائية تعطي تقديرات خسائر كبيرة لهذه الثورات، ومآلاتها، وتعزز رأي المتأخرين بقيادة الإمام النووي، من منع رفع السلاح في الثورة على المستبدين كليا، لما يترتب عليها من دماء الأبرياء، هذا في بلاد مستقلة للمسلمين، مالم يغلب عليها إيمان بعبورها ومصلحة جلية فيها.

وأما ما تعانيه الأمة من استعمار مسلح طاغ، فهو يفسح المجال بل يوجبه لردعه عن الأرض المسلمة لرد الغزاة، لكن ذلك لا يعني مباشرة الحرب والمقاومة بالمطلق، دون التجهيز الكافي لها، ودون حق مراجعة إمكاناتها وإمكانية نجاحها.

وليس ما نعنيه هنا ضمان عدم وقوع شهداء ومصابين، فهذا لا يمكن أن يتحقق وضريبة الفداء واضحة قطعية في كلام الله وبشائر نبيه لهم، وفي نماذج واسعة من تاريخ البشرية، ولكن المقصود تقدير حجم الاختراق الذي ستحققه المقاومة وطريقتها التي تراعي أكبر قدر ممكن لتأمين مجتمعها المدني من آثار المواجهة، وفتح خطوط الإمداد والتأمين لهم وساعة إطلاق الرصاص وظروفها.

أما الكفاح المسلح للمجتمع المسلم المظلوم، فإن مسؤولية مراجعته أعظم وأخطر، وتجنبه أولى وأسلم، خاصة عند وجود بدائل سلمية، أو فرص صناعة ثقافة عدالة اجتماعية شرعية، تبشر في داخل المجتمعات، وليس بالضرورة تضمن إسقاط هذا النظام، إنما تشتغل بواجبات شرعية للحقوق المدنية لشعبها، والبناء الثقافي.

الذي سيخسر كل أرض متاحة ويفقد دماء، وفوضى من خلال حماقة المستبد وظلمه لو حمل المصلحون السلاح، وهنا نحن نتحدث عن درس السيرة وعهد الله لرسوله الأمين، ومتى سمح له بقتال الطغاة الكافرين، وهو درس عميق في تأصيله وبيانه.

ماذا قدمت الدولة النبوية للبشرية؟

هل كان بالإمكان أن تتحوّل دعوة النبي ﷺ وبالتالي رسالة الله إلى البشرية، لبلاغ عالمي عام، دون أن تحتضنها دولة سياسية؟

يتضح الجواب على هذا السؤال من نتائج ما حققته دولة المدينة النبوية، كيف خاضت حرب استقلال العرب من طغاتهم الكافرين في مكة ومحيط الحجاز المحاصر؟

ثم كيف أُمنت الجزيرة العربية لذلك، ثم تتالت رسائل وبعثات النبي ﷺ إلى قادة أنظمة العالم ووجهائها المتنفذين، والتي بدأت تصل معها رسالة البلاغ العالمي، ولم تتوقف منذ ذلك الحين.

وكيف كان يمكن أن يقدم للعالم والبشرية في حياتها الزمانية المهمة بعد بعثة النبي ﷺ دليلاً على أن الدين الحق والإسلام يقيم شريعة العدالة الاجتماعية لكل البشر، وأن قيم العدل والتواضع وتحييد حظ الحاكم الشخصي، لم تصنعه ثقافة كما صنعته قيم الإسلام في عهد الراشدين، ولنتنبه هنا إلى أن حكم عمر بن عبد العزيز مكمل لهم ونموذج تبعا لهديهم بإجماع السلف.

وأنه قاد العالم بعدالة اجتماعية لا مثيل لها في تاريخ الإنسانية، تبعا وبدقة لمنهج النبي ﷺ ولما يرتضيه من الحكم هو وأصحابه الراشدون، وإنما كانت لحظة فارقة أن انتشار الجغرافيا السياسية للأمة، كان في توسع ضخم حوّله عمر بن عبد العزيز في تجربة زمانية شهد به مؤرخو العالم إلى دولة العدالة الفاضلة لكل الإنسانية.

والأصل في علم الاجتماع الوثيقة التي تأتي بها الدعوة والتجربة الواقعية والسياسية، وهي التي قدمها الإسلام، وما على الأمة والرسالة من تثريب، فيمن غدر من المسلمين ومن حكامهم، وهم ليسوا حجة بل الحجة عليهم أن عصوا رسول الله في أمانته.

وكل ذلك الفتح الإنساني، كان تبعا لقرار الهجرة الذي اتخذه النبي ﷺ ثم تنظيم دولته الإسلامية الراشدة، بأمر من الله ﷻ.

القرار والتنظيم الشامل

يقول ابن إسحاق:

(ولم يعلم بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر).

منذ اتخاذ القرار التاريخي، كان واضحاً أن النبي ﷺ من خلال سلوكه وتحركاته، ومن خلال خطة سيدنا أبي بكر ﷺ، قد اتخذ كل الوسائط والأسباب المادية، ولم يتواكل أو يحل الأمر إلى أقدار الله (وهو أقوى من يؤمن بها في العالمين) وكان يستشعرها في كل حين، من التعمية على المشركين عند خروجه، مرورا بعدم رؤيتهم لهما أثناء وصولهم للغار، وصولا إلى أن ساخت أقدام فرس سراقة بن جعشم، في الوحل دون رسول الله وصاحبه (وغيرها من رعاية).

إنه المنهج الذي يشرعه الرسول الهادي لنا في كل منعطفات سيرته وفي خريطة هجرته، التعمية على خريطة الانتقال إلى المدينة والتوجه صوب اليمن، عبد الله بن أبي بكر ينقل الأخبار، عامر بن فهيرة يخدم الوفد الرباني، ويرعى غنمه في خطاهم، لطمس آثار الطريق، وعبد الله بن أرقط الكافر الحليف دليلهم على الطريق.

يكاد لا يوجد مثل هذه الدقة في التزام أسباب وعناصر النجاح، كما نفذها رسول الله في طريق هجرته، ويقينه الإيماني لم يتزعزع أُنملة بها وبدونها، لكنها رسالة العمل والعزيمة، واتخاذ وسائط النجاح مع التبتل لله المنّان، أن يبارك العمل.

قريش وجريمة الحرب

(عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: لما أجمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ، غدوا في اليوم الذي اتعدوا له وكان ذلك اليوم يسمى يوم الرحمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل عليه بتلة، فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفا على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون وعسى ألا يعدمكم منه رأيا ونصحاً.

قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيا فتشاوروا ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيرا والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم.

فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره.

فتشاوروا ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت، فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأيا غير هذا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم، قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له).

لقد جاءت أفكار قريش عند ترامي أخبار هجرة أصحاب رسول الله، الذين وضح حجم الطغيان الذي صُب عليهم، فطفقوا إلى الملجأ والمجتمع المنقذ، بعد ما خان نظام الطغاة الكافر، كل حق وغدروا بكل عرف، فكان تطلع الصحابة واضحا، فساروا إلى مهجر إخوانهم وأنصارهم زرافات ووحدانا.

وهنا أدركت قريش أنها تواجه عهداً جديداً، وأن لا مناص من آخر محاولة لهزيمة الدعوة ولو كان بقتل النبي ﷺ وبجريمة حرب كبرى، فعقدوا عزمهم، ولكنهم يعلمون أنهم يقتلون الأمين فيهم، ومن المفارقات الكبرى ودلائل صدق النبوة وطهارتها، أن ودائع مشركي مكة ظلت عند النبي ﷺ حتى هاجر وأوكل بها سيدنا علي ﷺ لردها.

يستودعون أماناتهم عنده، ويحاربونه ويسفهونه!! يا لخيانة الكفر الغبي وظلمه لنفسه وللمؤمنين.

كانت قريش تدرك فداحة هذه الجريمة، ولذلك مال رأيهم لأبي جهل، ولا عجب أن يتفق شيطان الإنس والجن لاغتيال الرسول والرسالة، فأرادوا أن تشترك كل أركانهم فيها، للتخفيف من خزيها وآثار تداعياتها عليهم لدى بني هاشم ولدى أخلاق العرب.

أبو بكر في الصدارة

(عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار إما بكرة وأما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهراني قومه، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها.

قالت: فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث، قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: أخرج عني من عندك، فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمي.

فقال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة، قالت فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، قال: «**الصحبة**»، قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال يا نبي الله إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبد الله بن أرقط ـ وكان مشركاً ـ يدلهما على الطريق فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما).

حين ندب النبي ﷺ أصحابه للهجرة للمدينة، ظل أبو بكر يستأذنه فيما ندب إليه، ولكن رسول الله يؤخره، فيتعزز الأمل بالرفقة العظمى، وفي ساعة تخفّي لا يخرج فيها الناس جاء الموعد.

فدخل رسول الله دار أبي بكر، وأعلمه بالخبر وأن الله أذن لنبيه بالهجرة، بعد أن تم تأمين كل المهاجرين، فالنبي يطمئن على سلامة مجتمع المسلمين وأمنهم، وهو يتحمل دونهم مواجهة جريمة المشركين في مكة.

ولك أن تطوي الزمان فتقترب من دار أبي بكر، ومن حيث جلس إلى قرب رسول الله ﷺ فتقرأ عينيه وتسمع خفق قلبه، وهو يقول الرفقة يا رسول الله فيقول له النبي نعم.

نعم يا أبا بكر.

وأبو بكر يبكي.

دموع الإيمان وصوت الحب اللدني لله ولرسوله إنه الإيمان البكري، ومن كمثل أبي بكر؟

فتاتان تحملان السر الأكبر

وعند دخوله ﷺ دار أبي بكر، كانت السيدة عائشة وشقيقتها أسماء في الدار، فطلب رسول الله خروجهما، لتأمين السر، لكن أبا بكر استأذنه، وأنهما من آله وشركاء معه في الفداء، فأقره النبي ﷺ وباتت هاتان الفتاتان شريكتين في أكبر عمل إسلامي، بل والكبيرة القادرة هي من مولت الرحلة العظيمة بالزاد، فكان نطاقها مربطا لبُلغةِ خير الناس، إنها أسماء ذات النطاقين.

ونقل السيدة عائشة للخبر ومجمل حديثها ﵂ عن أحداث السيرة يؤكّد أنها كانت فتاة، ولم تكن طفلة كما يعتقد البعض خطأ، والخطأ هنا تتضح دلالاته من آفاق السيدة عائشة، وما عاصرته، كدليل قوي لا يقف أمامه نقل أحد الصحابة للأعمار وهي ذلك الزمن تقديرية، وهكذا كان آل أبي بكر قبل مصاهرتهم، شركاء مع أبيهم العظيم في فداء صاحبه.

لقد كانت تفاصيل الرحلة وإيمان رسول الله وإيمان رفيقه به، حالة روحية كما هي فكرية، تُذكّر العالم اليوم بهذا الحدث وبرفيق الصحبة العظيم لنبيهم، فمع الطائر الذي حط عند الغار، كان قلب أبي بكر الطائر حبا وخشية على

رسول الله، يمشي أمامه وخلفه، وعن يمينه وشماله خشية من قاصد له، ويضع جوارحه حماية له من الدّواب.

أي روح هذه يا أبا بكر؟

سوى أن رسول الله لم يتركنا ندلي برأينا ونشرح، بل خصه قبلنا بالبشارة، وتنزل الذكر الحكيم تزكية لصحبة أبي بكر وحده، في خصوصية رسالية عظمى.

وصلت رعاية الله إلى رسوله، واحتفلت دار أم معبد بأن شاتها البائسة، باتت غنية الضرع، ببركة الأنبياء وهل يُستغرب أن يحوِل الله الأمور لبركة نبيه وهو خالقها وفاطرها، وإنما لا يتعبد الناس بمعجزات يفعلونها، وإنما بما يطيقونه، ولكن معجزات الأنبياء في الرهط الأول رسائل تثبيت للرعاية السماوية، يستشعرها ذلك الملأ ويؤمن بها من يلحق بهم، وتبقى المعجزة الكونية المستمرة كتاب الله ووحيه المبين.

قباء تنتظر الفجر الصادق

جاء في السيرة: (حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: لما سمعنا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، وتوكفنا - استشعرنا - قدومه كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظر رسول الله ﷺ فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال، فإذا لم نجد ظلا دخلنا.

وذلك في أيام حارة حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ، جلسنا كما كنا نجلس حتى إذا لم يبق ظلٌ دخلنا بيوتنا، وقدِم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت، فكان أول من رآه رجل من اليهود قد رأى ما كنا نصنع، وإنّا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا.

فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلة، هذا جدّكم قد جاء قال: فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر ﷺ في مثل سنّه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك، وركبه الناس ازدحموا عليه - وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفناه عند ذلك).

علمت المدينة بقدوم سيدها العظيم، وكانت تَشرُق بهذه اللحظة بالحب

للنبي ﷺ، بالتطلع لخدمته ونصرته ورفقته، بأمل اللقاء بخطاب السماء على أرضها.

فخرجوا يتطلعون لوصوله دون علم دقيق بذلك، والعجيب أن اليهود حملوا البشرى، فرغم أن الغيرة بدت سطوتها مبكراً عليهم، أن يبعث الله نبيه، في عرب الجاهلية لا بني إسرائيل، الا أنهم كانت تهيمن عليهم هذه اللحظة التي بلّغهم بها السِّفْرُ القديم وتوراة موسى الكليم.

وفعلا تطلع أحد اليهود من نخلة فوجد موكب الرسول الأمين، وصاح بأهل المدينة والأنصار، هذ جدّكم، أي حظكم، نعم حظهم بأن كانوا أنصار الله ورسوله حين عاداه الطغيان الكافر في الحجاز، فتهلل الزمن وأنشد الكون معهم لرسول الله:

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

كانت قباء المحطة الأولى من يثرب فأقام فيها ﷺ، وأسس مسجدها التاريخي، في دلالة على أول معاهد الدعوة والدولة، لوطن الرسالة وتعظيم الشعيرة الكبرى في الرسالة الإسلامية، ووقف التاريخ في لحظة ميلاد دولة الإسلام، وتأسيس دستورها وعهودها الإنسانية.

بناء الدولة الإسلامية
النظام الاجتماعي والوثيقة الدستورية

شعب الرسالة ومبايعة الحب

(وما كان النبي ﷺ يمر دارا من دور الأنصار إلا وقفوا له هلم إلينا يا رسول الله.

حتى إذا أتت القصواء دار بني مالك بن النجار بركت على باب مسجده ﷺ، وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بني النجار ثم من بني مالك بن النجار، وهما في حجر معاذ بن عفراء سهل وسهيل بن عمرو، فلما بركت ورسول الله - ﷺ عليها - لم ينزل وثبت فسارت غير بعيد.

ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به ثم التفتت إلى خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه ثم تحلحلت وزمت ووضعت جرانها فنزل عنها رسول الله ﷺ فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله، فوضعه في بيته ونزل عليه رسول الله ﷺ وسأل عن المربد لمن هو، فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان لي وسأرضيهما منه فاتخذه مسجداً، فأمر رسول الله ﷺ أن يبني مسجداً).

منذ أول حي وعند أول رهط من الأنصار، كانت رسالة الحب والولاء الإيماني الاختياري، تترى وتتدفق عند كل منزل ومركز قبيلة للأنصار، إقبال طوعي دون إكراه، بل وتنافس في أن يكون الرسول القائد، تحت ضيافة وحماية هذا البيت أو تلك القبيلة الأنصارية.

فتطوف القصواء ناقة النبي ﷺ - بِدورهم ومهجهم تهوي إليه -، حتى تبلغ

المنزل الذي اختاره الله له، وفوراً يتأكد النبي ﷺ من خلو الأرض من أي مانع، وأن يكفل لأهلها حقهم الكامل.

ولأن الحب يغشى القلوب المتعطشة للرسول القائد، فإن أبا أيوب وهو الضعيف الحال، لا يجعل الفرصة تفوت، فيحمل رحل النبي القائد، إلى منزله، ويشترك الرسول بكل ود ودماثة وملاطفة مع أبي أيوب في بيته، لا هيلمان ولا مواكب فخمة ولا متاريس، إنما الحب والولاء للنبي الأمين.

المسجد معهد الرسالة والدولة

مرحلة القيادة السياسية للنبوة، محسومة الموقع وهو المسجد، لخصوصية الرسالة والرسول في قيادته السياسية، ولتحديد مكانة المسجد في مهام الإسلام الكبرى، وأن قضية الحياة الاجتماعية والسياسية لأمة الرسالة لا تنفصل عن الدين، ولكنه الدين الحق العدل، لا مزايدة على المستضعفين، ولا أكل حق المحرومين.

وهنا رسالة أخرى حين يبادر النبي ﷺ بالبناء بنفسه لهذا المسجد، ويعطي درساً عملياً لمهام القائد السياسي للأمة، فضلاً عن أنه نبي يوحى إليه، ومع ذلك لم يجعل نفسه في برج وينفصل عن الأمة، بل من اللحظات الأولى شريكها في العمل وفي الأمل، وهكذا يتلقى شعب الرسالة أول مبدأ من القائد، هو شريك معهم لتحقيق الغاية دولة الرسالة والأمة الصالحة والبلاغ، لا امبراطور دنيا، ولا كهنوت.

الميثاق الإيماني وأخوة الرسالة والدولة

(وآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وقال تآخوا في الله أخوين، فجعل يتآخى كل صحابيين بينهما، في أشد وثاق من أخوة النسب).

جاء النبي ﷺ المدينة وقد تعاقد مجتمعها الغالب على نصرته وتبني شراكته كأنصار لبلاغ رسالة الله للبشرية، وإنقاذ الأمم الإنسانية.

انطلاقة المجتمع الجديد

جماعة بشرية في مدينة محاصرة، وميثاق جديد لمعنى التعبد وعلاقة الخلق بالخالق، ومسارات الاستخلاف التي ستؤسس عليها الدنيا، فيما أوج توسعها

وعدالتها في عهد عمر بن عبد العزيز، الذي فهم وطبق رسالة النبي وعهد الراشدين، لكن في الأرض العالمية الواسعة للأمة المحمدية، والتي ولدت تبعا لميلاد دولة المدينة النبوية.

ركز خطابه ﷺ لتعميق هذه الحقيقة، أيها الناس.. أيها المؤمنون..

تلك حقيقة الدنيا وتلك رسالة الله لكم للدار الآخرة، تبني معاني الأجر الإيماني والصفاء الروحاني، لله دون مصالح، فدعا بقوة إلى معنى المؤاخاة، مؤاخاة لهذا المجتمع الوليد لا يُظلم دونه الناس، ولكن له مزية في عهده ومهمته، الملتزمة للنبوة وللرسالة، فكان من الطبيعي أن تكون عهود الأخوة لهذا العهد المتين الذي بالفعل حمل الرسالة لأقطاب المعمورة، مهاجرين وأنصار.

والمؤاخاة بينهم، تعني إعلاء ميثاق الإيمان والضمير وقيم الروح والتعاون البشري حين يؤمن بالله، والدار الآخرة، ليكون جسوره العروة الوثقى، وصفاء أخيه وتضحيته، وليس مصالح الدنيا، ولأن الله يعلم خلقه وأوحى بذلك لنبيه، فقد علم ما سيغشى البشرية والمجتمع المسلم من صراع وتنافس، وأوصاهم ببقاء الأخوة في العهود التي تليه، وإن سجل لهم واقعية اختلاف الناس والمجتمعات وطبائعهم، لكن بقي ذلك النموذج المتآخي حلقة تاريخ أصيلة لكل العهود الإسلامية.

الدستور الإسلامي الأول

ثم عقد رسول الله دستور المدينة المنورة، وأعلنه في تراضٍ من كل شرائحها وأديانها:

(وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادَعَ فيه اليهود وعاهَدَهُم وأَقَرَّهُم على دينهم وأموالهم وشَرَطَ لهم، واشترط عليهم:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على رِبْعَتِهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين،

وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمنٌ مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، ـ هنا السياق جاء في مواجهة الكافر الحربي في أوج الصراع ـ وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

وهنا نص الميثاق الحقوقي الدستوري مع اليهود

(وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين يُبِيءُ بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه.

وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمنا قتلاً عن بينة فإنه قَودٌ به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وأنه من

نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله ﷻ، وإلى محمد ﷺ.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ يُميتُ إلا نفسه وأهل بيته وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم.

وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.

وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله ﷻ وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.

وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين على كل أناس حصتهم في جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.

قال: وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله ﷺ).

دستور مشترك لكل الأمة ومواطني الدولة

تعتبر الوثيقة التي وضعها النبي ﷺ في المدينة المنورة مبكراً، أول أساسٍ لقواعد التدوين الدستوري، في الشريعة بين المسلمين، وبقية مواطنيهم.

ومساحة التأصيل فيها، لا تقف عند مصطلحاتها التي يغيرها الزمان والمكان، ولكن مفهوم موادها، من منابذة الفتنة وتعزيز التضامن، وتعظيم العدل ورفض الظلم، والتزام الحماية الجغرافية والسياسية للدولة، كما أنها في عمر الأمم، عهد متقدم بفكره وثقافته وعمقه الإنساني، المُشرّع من الرسول الهادي، وعليها تقاس كثير من القواعد الدستورية.

تأسست دولة المدينة على رسالة الإسلام، شريعة ومهام بلاغ، وعزّزَت مؤاخاتهم، لكن اعتنت بوضوح بحقوق مواطنيها من غير المسلمين، ومواطنتهم بصورة متكررة، من التوثيق، وكان طبيعي أن تفرد شروط العهد الأمني للدولة، في ظل حالة عداوة شرسة، من مجتمع الطغاة الكافر، المحاصر لجغرافيا المدينة.

وتعتبر الوثيقة التي أصدرها النبي ﷺ وتضامن عليها وتعاهد كل ممثلي الطوائف، مرجعا للدولة المدنية الإسلامية ولمواطنيها، وهي دلالة كبرى على تشريع النص الدستوري.

والوثيقة تعتني وتسمي كل طائفة وشريحة وأنها أمة مع المسلمين، يهود بني ساعدة، يهود بني عوف، يهود بني جشم... وهكذا، وتنظيم التعاقد بين المسلمين للتضامن الاقتصادي وبين كل هذه الشرائح كل فيما يقاربه.

وهم كلهم جزء من عقد الدولة وعهدها، كما سميت الطوائف الاجتماعية كشركاء، وإن بقي للمؤمنين خصوصية التعاقد لرد العدو والبغي، ونصرة كل من تبعهم من غير المؤمنين.

ونظمت الوثيقة مسؤولية كل طائفة، لتحقيق شراكتها في تأمين الدولة الإسلامية وعدم الإخلال بها، وعدم إيواء المعادين لها، وأكدت على أن العدل هو المرجع، وختمت بالتأكيد، على أن الوثيقة لتحقيقه، وليس لاستغلالها لأي مظلمة، بمفردات واضحة جلية.

الدستور الأول وما بعده

وهي وثيقة دستورية لأساسات ذلك العهد النبوي الشريف وظروفه وحالة الحرب فيه، ولن تجد في هذا الدستور، مسألة تولي الخلافة بعد النبي ﷺ، ولا نظام عمر في اختيار المجلس الانتخابي، ولا طريقة أبي بكر في ترشيح عمر للأمة، ولا تنظيم الدواوين في عهد الفاروق، ولا إقرار الصحابة تحديد مرتّب أبي بكر الشهري، لانشغاله بإدارة شؤون الأمة، ولا غير ذلك من مساحة اجتهاد تُحقق مصالح هذا القطر أو دولة الأمة الإسلامية.

فضلاً عما يخص النبي ﷺ كنبي يوحى إليه، وما لا يختص به أحدٌ بعده، من مكانة الرأي والقول، ومع ذلك كان يستمع ويقبل ويرد، في شؤون سياسية واجتماعية عديدة، ولذلك فهي بوابة كبرى، في مفهوم أحكام الشريعة المتجدد، والذي جاء بعد عهد النبي ﷺ، ثروة فقهية فيه.

ولذلك شابه علماء الإسلام أنبياء بني إسرائيل، تبعا لأصول الشريعة والمسكوت عنه، لمساحة الاجتهاد التي تتيسر لهم، لتحقيق المصالح، بما يخدم كل زمان ومكان بنظام مدني إسلامي، لا يُسقِط قطعيا، ولا يأمر ولا يرضى بمحرم، ولكن تفصيلات تطبيقه وصفاتها بحسب كل زمان ومكان.

ولقد ظن بعض الناس أن مصطلح تطبيق الشريعة، هو أمر محسوم بصورته وتفاصيله، وبمجرد أن يعلن يتحول إلى مواد ومواثيق مجمع عليها بين الناس، وهذا وهم كبير، لم يقع حتى في العهد الراشد، فهي هنا تخضع لتفسيرات وشروح وتكون ضمن قبول أو تطبيق الشريعة الشامل، لكن الشريعة بمدارها الواسع لا بشريعة عقل فردي، أو جماعة محددة، وهو ما سنبينه في القادم.

شريعة الرسالة لا شريعة الظنون

سواء في وثيقة المدينة، أو مجمل مواقفه عليه الصلاة والسلام وخلاصات

فقه العهود الأولى، فإن مدارات الاجتهاد واسعة، ولم تكن كضيق من يزعمها اليوم فضلا عن مقاتلة الناس عليها.

الشريعة والزمن المعاصر

وتتكرر أسئلة العصر اليوم كما الأمس، فمنذ حركة الاستقلال للشرق من الهيمنة الغربية بعد الحرب العالمية الثانية، وهو استقلال نسبي، فقد رُهن هذا الشرق بهيمنة سياسية بنماذج متعددة.

ولكن تخلّف الشرق وتصدعه وعودة رياح الانهيار إليه، لم تكن مرتبطة فقط بمشاريع الهيمنة في إدارتها الذاتية أو عبر المستبدين، ولكنّها في ذات الفهم والصراع مع سؤال الإنقاذ الإنساني له.

فقد برزت مجدداً، مع فشل تجارب علمانية متطرفة عديدة، وعودة روح التفكير منذ العشرينيات عبر حركة الإحياء الإسلامي، لرد الاعتبار التاريخي للإسلام كحاضن حضاري ورسالي وأممي، للشرق بمسلميه وطوائفه وبقيمه وتقدم إنسانه.

بحيث يكون حاملاً لرسالة البلاغ الإسلامي وصانعاً لرحلة التقدم في الاستخلاف الإنساني، فتعرض هذا المفهوم، الذي كان من الممكن البناء عليه، لبعث فكري وحضاري للمسلمين إلى عوائق انحرفت به عن مسيرة هذا الوعي الأصيل والبناء الدقيق والمُنظّم عليه.

عوائق البعث الإسلامي المعاصر

هذه العوائق الشرسة كانت بين مدارات مصالح الغرب المستعمر السياسي والاقتصادي وبين مدارات الاستبداد، مما جعل تسلسل أفكار البعث الإسلامي في سياقها الحضاري والبلاغي تصطدم بواقع شرس.

أما العوائق الأخرى الذاتية داخل التفكير الإسلامي، فهي ما كانت من إشكاليات تراكم لمسار عزل العقل والوعي والاجتهاد الفكري الموازي للاجتهاد الفقهي، في رحلة البلاغ الإسلامي.

وهي عوائق جديدة قديمة، الجديد كان في طبيعة تلقي أفكار التجديد الإسلامي، في مدارات ومؤسسات تقليدية لتعليم الفقه المذهبي وغير المذهبي،

فترفض التجديد المنضبط، لأجل عصبيات أو مصالح أو فقدان آلية الإدراك الذاتي.

أو تحسّسها من خطاب التجديد الإسلامي، خشيةً من استغلال الدين والبلاغ الإسلامي، من قبل تأويلات عنيفة مهمتها تهذيبه لمصالح استعمارية أو نفوذ للهيمنة، لكن هذا التحسّس أضر كثيراً بمهام الرسالة الإسلامية الذاتية، والواجبات المناط بها رحلة بلاغها الإنساني.

أما الثاني من العوائق التي تشكلت داخل صفوف الشرق الإسلامي، فهي جماعات العنف التي وُلدت من فكرة رفض التجديد الإسلامي المنضبط بأفق الشريعة، كونه تميّعاً وضلالاً لدى مصادرهم، والثاني جرى في ظروف رد فعل مضطربة في الوجدان المسلم وخاصة في شريحة الشباب المتفجّر من الداخل، على قسوة الاستباحة العسكرية والدموية لمناطق المسلمين وجذور التواطؤ الإقليمي بنزعته الطائفية.

فكيف طرح تطبيق الشريعة؟

والواقع الذي شرحناه آنفاً، جعل الشرق رهناً لحالة حرب وصراع لا لفقه الإسلام والإنسان، ثم طُرحت هنا قضية تطبيق الشريعة بزخم صراعي شرس داخل الشرق وخارجه، فأضحى المفهوم ضحية لتقاطع صراع عنيف، لا يسمح بإعادة فهم الفكر والفقه التجديدي في الإسلام وفروع الفقه المتعدد فيه، وفقاً لرسالة البلاغ القطعية في هذا الدين والتي بُعث به الرُسل وكان خاتمهم الرسول الأكرم محمد ﷺ.

صراع لا يعي الفقه الدستوري

ويتبيَّن لنا هنا، كيف تعصف أجواء الصراع بأسس تشريعية ومضامين بلاغية حملتها الرسالة، ولم تُفقه ولم تُفهم أو رُدمت حركة التجديد فيها بأتون أجواء الصراع والعاطفة الغاضبة التي لا تجد وقتاً لفهم دلائل التأصيل الشرعي للعقل المسلم المعاصر، المختلفة عن برامج التأويل لتحقيق أهداف سياسية للمستبد الداخلي والخارجي.

الفهم بعيداً عن الصراع

ونحن نتداول المعاني الرئيسية لسعة الفقه والتدوين الدستوري في السيرة النبوية، سيتبين لنا الكثير، حين تُنَحَّى أجواء الصراع التي تُخلِّف جداراً عاطفيا شرسا يمنع الفقه الواعي.

وستبدأ أسئلة الفهم تُطرح، للوصول إلى نظرية مهمة، في مسألة تطبيق الشريعة، لعلنا نُدرجها متسلسلة كمقدمة للحاجة الضرورية للخطاب الإسلامي المعاصر، لتنظيم الحوار حول هذه القضية في إطار منهجي يفهم الفكرة قبل أن يتصارع داخله أو يصارع غيره دون وعي لما يدعو له:

١ ـ إن فقه التجديد الإسلامي هو بلاغ من رسائل النبوة وفق أصول الشريعة ولم يُطرح عبثا بل لرسالة إلهية تتفق مع رحلة الاستخلاف الإنساني.

٢ ـ رسالة البلاغ الإسلامي الخاتمة، تعني أنها مصدر ورعاية لعهود زمنية كبرى مختلفة التطور والنماء الإنساني، وأن رسالات الأمم الأخرى التي رسّخت أصول الإيمان الموحدة، نُسخت وغُيّرت في أحكام فقهية لأمم وحضارات توالى عليهم الأنبياء، فيما جُعلت رسالة الإسلام مصدر التجديد لبقية الرحلة الإنسانية للحياة.

٣ ـ ففقه الشريعة فيه مساحات واسعة للاجتهاد ومصلحة الاستخلاف البشري، حدّدت القطعيات في الثبوت والدلالة وأصول الديانة كبعث إيماني وإصلاحي للإنسان، وتُركت مساحة الاجتهاد عن عمد لتحقيق ذلك العبور الإنساني برفقة البلاغ الرسالي.

٤ ـ وفقه الشريعة هو تلك المساحة الثرية الواسعة، التي تُفهم من دلالات النصوص وعمق مقاصدها وثروة التدوين الفقهي، والنقاشات الواسعة من فروع الفقه إلى الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام إلى أحكام التعامل التي استنبطها الفقهاء للتطور الحضاري للإنسان.

٥ ـ ويتسع هذا الميدان من الصدر الأول حتى الاجتهاد الفكري أو الفقهي المنضبط في عالم اليوم والذي هو منطلق من أصلي التشريع (الكتاب والسُّنة)، وليس خارجه، فالمصدر ليس ميراثا حزبيا أو فئويا لأحد بل أصول تشريع تَفهم بعمق دلالة البلاغ.

صراعات لأجل فهم أحدهم لا شريعة الله

هنا نتساءل عن مقولات البعض أو آحاد من الناس أو المجموعات عن فقههم للشريعة، هل هو فقه الشريعة أم شريعة الفقه لديه؟

بمعنى أن من يُحاكِم الناس ويجادلهم، لا ينطلق من مضمون هذه الشريعة بمساراتها الكبرى، ومناطات تحقيق العدالة التي شُرعت لها أحكام القصاص، وفُتحت فيها مسارات الحضارة والغرس البشري.

وليست لدى شريعة فقهه مدارات واجب البلاغ بالخطاب والكلمة والفكرة وحماية الحق بما يدفع به غريزة الشر، وإنما قتل الناس لمجرد قتلهم باسم الدين أو عسفهم لإخضاعهم لشريعة فقهه لا ما استوى الجودي عليه لصلاح الدين والدنيا، في فقه الشريعة.

إن هذا المضمون اليوم حين تُفكك بعض الصراعات والأوضاع فيه، بل وتُقرأ بعض المواجهات الشرسة داخل الصف الإسلامي، وداخل أوطان الشرق.

فإن كثيراً من القطعيات في فقه البعض، ليس قطعياً في فقه الشريعة، وإجماعات فقهه ليست إجماعاً في فقه الشريعة، وما قاتل الناس عليه أو بهتهم فيه، ليست لازماً دينياً للتحقيق الفوري بل ولا في صفة التطبيق ولا روحه في فقه الشريعة.

وهنا الخطورة والكارثة في ذات الوقت، فالعالَم الإنساني المأمور الإنسان المُسلم الواعي بحمل الرسالة له وتحقيق بلاغه، وصَلتْهُ شريعة الفقه لأولئك ولم يصله فقه الشريعة، والشرق الجريح في كوارثه، يُفتن شبابه باسم شريعة الفقه الخاصة بهذه الفئة أو ذلك الشخص ولم يَعرف فقه الشريعة.

إن أوّل مهام التجديد الإسلامي اليوم، الذي نص عليه وندب له النبي ﷺ مناقشة هذه المعادلة المهمة في الفكر الإسلامي المعاصر، وكسر الحصار حولها، ليتبين الناس فقه الشريعة لا أن يحاسبوا على شريعة فقهٍ لم يُبعث بها الأنبياء.

واستمرار اضطراب هذه الفكرة تسبب في دفاع بعض الإسلاميين عن تعاطف سطحي لشريعة فقه هي مناهضة لفقه الشريعة، وانتظار زوال المحن السياسية والتعديات الخارجية حتّى تُطرح قضايا النقد والتجديد، هو أحد مظاهر الهزيمة النفسية الخطيرة في الفكر الإسلامي المعاصر، فيتيه الناس وتتسع الفتنة ويطول المرض الذي يفتك بالشرق ويغذي خصومه.

غزوة بدر الكبرى
وضحى الإسلام الكبير

قبل غزوة بدر الكبرى جرت مناوشات عسكرية مهمة لحماية الدولة الإسلامية التي كانت تستفز النظام الحربي الكافر في مكة وحلفاءه في الحجاز والجزيرة.

سرايا التأمين العسكري لدولة الإسلام

وفور تأمين النبي ﷺ للميثاق الدستوري، ولبناء المجتمع المسلم الصالح، وتثبيت الدولة، بادر إلى السرايا العسكرية المباغتة، لنظام الطغاة الكافر تحديداً، فقد علم ﷺ طبيعة توحش هذا النظام وإعلانه العداء المبكر، من قرار اغتيال النبوة إلى مطاردة عناصر الأنصار إلى تعقبه وأصحابه، فضلا عن تاريخ إيذائهم وإرهابهم للنبي وأصحابه.

وأن هذا النظام، لا يمكن أن يترك حتى ينظم تحالفاته ويهاجم المدينة على سعة، كما أن رسائل القوة مهمة لمجتمع المدينة، في سياق ثقافة العرب الأولى، والتي يجذبها، موقف الدفاع الحاسم عن هذه الدولة الجديدة فتتسهل أخبار البعثة والرسالة إليها، وبالفعل حققت هذه السرايا متطلباتها، وأربكت حسابات قريش ومحيطها.

إلى البيت العتيق

في هذا الوقت، طفقت نفوس المؤمنين سنوات ترقب أن تكون قبلتهم إلى البيت الحرام، فإبراهيم أبو الأنبياء وعيسى وموسى، من رهط النبوة الكريم، كما أن مشاعر المسلمين الجدد، تنجذب إليه فهو عهد التوحيد المجدد لكل

الرسالات، فكان وحي السماء، لتحوّل قبلة المدينة والعرب من بيت المقدس إلى البيت الحرام، عنواناً لوحدة رسالة السماء، ووحدة الأنبياء، ورمزية الوحدة الإسلامية وعاصمتها المكية.

الحق الذي تحميه القوة

قال ابن هشام:

(ثم إن رسول الله ﷺ سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في عيرٍ لقريش عظيمة فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم، وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون منهم مخرمة بن نوفل وعمرو بن العاص.

فندب المسلمين إليهم وقال: هذه عير قريش فيها أموالكم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها، فانتدب الناس، فخفّ بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً).

وخرجت قريش لمواجهة النبي ﷺ غير أن أبا سفيان غير طريقه ونجت القافلة من المسلمين.

(فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها هل لك إلى ألا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي، الحضرمي قتيل من قريش أصابه المسلمون في إحدى سراياهم.

قال: قد فعلت أنت علي بذلك إنما هو حليفي فعلي عقله وما أصيب من ماله فأت ابن الحنظلية، فإني لأخشى أن يشجر أمر الناس غيره يعني أبا جهل بن هشام، خشية من تحريض أبي جهل للحرب ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبا فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً.

والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه وابن خاله أو رجالاً من عشيرته، فارجعوا أو خلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل فوجدته قد نثل درعا له من جرابها، فهو يهنئها فقلت له: يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا للذي قال فقال: انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه.

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي، فقال: هذا يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك فقم فأنشد خفرتك، ومقتل أخيك.

فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرخ: واعمراه واعمراه، فحميت الحرب، وحقب الناس واستوسقوا على ما هم عليه من الشر وأفسد أبو جهل على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة).

هناك في مسارات العلاقات البشرية، نماذج وظروف وأحوال وطبائع تحتمل التعاطي السلمي وتفتح خطابها للمنابر، أو تخترق دعوات التصحيح بناءها الصلد وتعبر إلى النفوس فتكسب معركة الوعي.

وقد تم ذلك لرسول الله ﷺ في نماذج، في مكة والمدينة دون تهيئة لظرف يخدمها لبأس الحصار القرشي، ولكن قوة الخطاب وطبيعة الهدي النبوي ومبشره العظيم، حققت ذلك.

لكن بغي النظام الطاغي لمشركي مكة، ظل يتعقب تلك الجماعة المؤمنة ليفتك بها ويمنع وصول الخير لبقية العالم الإنساني، ولذلك فإن حماية معقل الدعوة والدولة الإسلامية، قضية مفروغ منها، ومن ضروراتها، فالتجارب البشرية تؤكد حجم التوحش الذي يستوطن النفس البشرية حين تضِلُ عن أمر ربها وتكابر، ويتبين ذلك من عدد الضحايا الذين يذهبون لأجل كبرياء الطغاة وصلفهم المتوحش، من معسكر كافر أو مسلم.

فالمواجهة كانت متوقعة من أول تأسيس الدولة والهجرة إليها، وتربص قريش وتتابعه، كان تهيئة لسلسلة من الاعتداءات التي ثبت أنها بالفعل تستخدم فيها كل جسم ديمغرافي لحصار الدولة ونقضها واغتيال نبيها كما جرى من خيانات يهود المدينة بعد ذلك، الذين نقضوا مواثيق العهد الأكبر لأمان النبي ودولة المدينة.

المظالم الإنسانية والاقتصادية للمسلمين

ولنلاحظ هنا أن حجم ما تعرض له المسلمون من مظالم وفظائع، شملت القتل وغصب الأموال، وحصارا تجاريا واقتصاديا وعزلا شرسا، وحملة إعلامية موغلة في الكذب والتحقير والافتراء.

ولذلك.. كانت قافلة أبي سفيان الحاملة لتجارة نظام طغاة مكة الكافر، هدفاً مشروعاً وطبيعيا بل واجباً من واجبات الدولة الإسلامية، فاستنهض النبي ﷺ المسلمين لهذا الحق، لكن الله أراد أمرا آخر فقد سبق في علمه، معنى الكسر العسكري لقريش، في مستقبل العالم الكوني وسماع الرسالة.

وبالفعل نجا أبو سفيان، من سرية المسلمين ونجّاه الله منها وغيرها، حين علم عن قرار خلاصه الذي اتخذه عند نهاية المسيرة النبوية قرب مكة، فأسلم وحسن إسلامه، لكنه هنا قائد ذكي بين قادة النظام الطاغي، فأرسل إلى قريش أن قد نجت قافلتكم، فارجعوا ولا تواجهوا محمداً، أدرك أبو سفيان عزيمة المواجهة من النبي وأصحابه، وقرر الانسحاب، لكن الطغاة في غيهم يعمهون.

مراجعات قريش المتأخرة يوقفها المتطرفون

من المهم للغاية الوقوف عند مبادرة حكيم بن حزام وقد أسلم حكيم يوم فتح مكة، ولكن كان في حينها أحد شخصيات قريش الكبرى، وحين تبين لهم حجم إصرار النبي وصحبه، على رد الظلم الذي لحق بهم، وخاصة حين سار بين رجالات قريش وزعاماتهم، وذكّر بما طلبه النبي ﷺ منهم، كميثاق سلام إنساني سيرتد إلى صالحهم لو احترموه، وقال حكيم لزعماء قريش، مالنا ولقتال محمد وأصحابه إنما هم بنو عم ورحم.

فلنخلي بينه وبين الناس

الآن.. تقر قريش!

في حوار حكيم حزام وعتبة، واضح أن قريش تعترف بطغيانها، بعد سلسلة حرب شرسة، نعم أدركوا أن ما عرضه النبي ﷺ كان قمة العقل والوعي والمصلحة لهم - لو سلموا له - في اعتراف تاريخي بعدالة العرض النبوي وسلميته، لمن أراد أن يسالم الله ورسوله والمجتمع المسلم بإنسانيته.

أبو جهل يهدر الفرصة

ومع ذلك لم يدعهم أبو جهل ولم يقفوا هم أمامه، إنما نزلوا له عن عقولهم فاغتصب الوعي من جديد وصاحت صيحات الحرب بينهم، وتمكن الكبر والطغيان في نفس أبي جهل، وجرهم من جديد إلى مآلات الخسران المبين.

لكنها قراءة مهمة جداً في السيرة، حين يسجل التاريخ أن مجتمع الطغاة قد أدرك قبل ضحى الإسلام الكبير مصداقية الدعوة وسلميتها لمن سالمها، لكنها حربية على الطغاة المتوحشين في دماء المسلمين والإنسانية، وأن هذه الحرب العادلة للطغاة دواء لتحقيق السلم وبلاغ الإسلام.

الاستنفار الإسلامي العام
والشورى في أعظم منازلها

يصف ابن هشام موقف النبي ﷺ عند قرار غزوة بدر فيقول:

(وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله اِمضِ لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به.

ثم قال رسول الله ﷺ: «**أشيروا عليّ أيها الناس**»، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا.

فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله. قال: أجل.

قال سعد: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبرٌ في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله يريك منّا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله).

وصل خبر البغي والحرب إلى النبي ﷺ، فاستنفر المسلمين المضطهدين، وأنصارهم إلى أعظم معارك التاريخ، حرب مشروعة.

فندبهم ووصاهم لكنه توقف!

أشيروا عليّ أيّها الناس.

النبي يكرر.

وقد أجاب المهاجرون بما في نفوسهم ونفوس الأنصار..

لكن رسول الله يعود.

أشيروا عليّ أيها الناس.

هنا فهم سعد بن معاذ المقصد.

كأنك تعنينا يا رسول الله ـ أي الأنصار ـ ويُشير له بكل أدب ـ بأبي هو وأمي ـ أن نعم..

لماذا يُصر النبي على رأي الأنصار؟

هنا تشرق لنا الحقيقة مجدداً، عن حجم الشورى والرأي ودقة التعامل في العهود بين نبي الأمة وقائدها وبين شعب الرسالة ودولتها، وهو هنا النبي الموحى إليه عليه الصلاة والسلام.

إذن لمن يُشرّع هذا، ومن هو المخاطب فيه؟

إنه لكل أمة رسول الله، وكل حملة رسالته للبشرية حتى نهاية العالم ووراثة الله له.

تصويت الشعب التفصيلي

لقد تعهد الأنصار لرسول الله بحمايته وأصحابه ومعقل دعوته، بكل إصرار وإيمان، لكن لم يكن ضمن ذلك خروجه إلى خارج المدينة لملاقاة معسكر الطغاة.

فانظر إلى هذا التفصيل الدقيق كيف يراعيه النبي ﷺ، وانظر إلى استبداد الطغاة على شعوبهم، بزعم أنهم ولاة أمورهم، فلا يُستشارون، ولا يُقررون ولا يُشاركون.

حينها تبدّى موقف سعد، إنه إيمان الأنصار شاملا كاملاً لا تفصيلا عند كل منعطف، فداءً لله ولرسوله، أما وقد طلب النبي ﷺ وخيّرهم بناء على عهدهم، فقد أسمعه سعد ما يسر خاطره وخاطر المسلمين أجمعين.

الشورى مستمرة

وحين اقترب جيش المسلمين من بدر ونزل رسول الله وأصحابه:

(قال الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**». فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم تغور ما وراءه من القُلب جمع قليب وهو البئر ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله ﷺ: «**لقد أشرت بالرأي**»، فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقُلب فغورت وبنى حوْضاً عَلَى الْقَلِيبِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ، فَمُلِئَ مَاءً، ثُمَّ قَذَفُوا فِيهِ الآنِيَةَ.

وقال سعد بن معاذ: يا نبي الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه

رسول الله ﷺ خيرا ودعا له بخير ثم بني لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه).

ثم إنه عليه الصلاة والسلام فتح لأصحابه الرأي بل ونزل عنده في أخص خصائص الحرب، فهذا الحباب بن المنذر يطلب تغيير موقع مرابطة الجيش الإسلامي بناء على نظرية الحرب، وفقه المعركة فيجيبه ويأمر بذلك، دون أي تشكيك أو تفتير له.

وهذا سعد بن معاذ، يعزم على النبي ﷺ بأن يجعل له عريشا فهو قائد الأمة وليس قائد المعركة فحسب، وأن من مقتضيات هذه الأمانة تأمين شخصه ﷺ بالأسباب المادية، وإن كفاه الله شر المشركين، فيستجيب له ويُبنى له عريشٌ.

كل نواحي التخطيط وأمن المعلومات

إن كل تفاصيل معركة بدر، في تجهيزها العسكري، والميداني واللوجستي، وأمن المعلومات الدقيق، نظمه النبي ﷺ، مع ما رآه من عزيمة القتال والفداء في أصحابه، وقبل ذلك ما وعده الله بنصرته.

ورغم هذا الوعد فإن التجهيز التفصيلي تم تنفيذه بدقة، ولم يُلقِ رسول الله بالجيش في هذه المعركة، بزخم عاطفي، وقد وعده ربه الحسنى.

فما بالك بمن جاء من بعده، كيف يُقدّر المعركة وكيف يُخطط لها ومتى يقرر خوضها؟

خصوصيات مهمة لاستثناءات خاصة

(عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لأصحابه يومئذ: إني قد عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أُخرِجوا كرهاً، ولا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، فإنه إنما أُخرِج مُسْتَكْرَهاً).

في هذه اللحظة التاريخية نستذكر دور مشركي بني هاشم في التحالف مع النبي ﷺ، وما شكّلوه من ممانعة قوية له، وبالتالي للرسالة الإسلامية.

ولقد مر بنا أن العباس عم النبي ﷺ ورهطا ليس بالقليل من الهاشميين، شكّلوا مع المسلمين حماية العهد الأول للنبوة، رغم بقاء ثلة من بني هاشم

والمُطّلبيين على شركهم، بل كان هذا الحلف الاجتماعي فعَّالاً في حماية رسول الله بحكم خصوصية هذه الأحلاف في النظام الاجتماعي العربي، الموغل في عشائريته وقبليته، حيث هي نسيج المجتمع العربي القديم.

هنا وقد أُخرج بنو هاشم بقيادة العباس كارهين ميَّالين للصد عن القاتل في ساحة المعترك، إلى بدر لقتال رسول الله وأصحابه، ولك أن تتصور نفسياتهم، فقد حموا رسول الله في أوج محنته، فهل يقاتلون جيشه وهو قائدهم، بعد أن مكّن الله لدولته؟

ولاحظ مقولة النبي ﷺ فيما بلغني، وهو يعني بالضرورة أن العباس أرسَلَ إلى النبي ﷺ يخبره، أو أن النبي وصل إلى ذلك عبر مركز المعلومات، ولم يرجح هنا الوحي بناء على قوله فيما بلغني.

فكان من الطبيعي، بل من وفاء الدعوة والرسالة، ألا يُهدر دم بني هاشم كغيرهم، وهنا تتأكد القضية والتفصيل المهم، في مسار التعامل الإسلامي مع البشرية، ليس إيمان وكفر وإن كان بلاغ الرسالة لإخراجهم من الكفر إلى الإيمان، لكن التعامل مع الحربي أو الإنساني أو المحايد، مختلفٌ كلياً.

مساحة نقاش قوي مع النبي

أبو حذيفة المعترض على رسول الله

(فقال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وابناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس والله لئن لقيته لألحمنه السيف قال (ابن عباس): فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص قال عمر والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق. فكان أبو حذيفة يقول ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة فقتل يوم اليمامة شهيداً) رضي الله عنه.

وجّه النبي ﷺ الجيش الإسلامي بلغة غاية في الأدب والمشاعر، وكأنه يُبين لهم، أن هذا ليس استثناء لبني هاشم لقرابتهم، وإنما وفاء لعهد الله ورسوله فيهم، وليس كل مسلم يدرك معنى التفصيل لكنه يُسلّم لرسول الله، إيمانا بعدله وتقواه المقدس.

فاعترض الصحابي الجليل أبو حذيفة، كرد أولي واضح أنه لم يتأمل معنى كلامه، ومع ذلك، لم يُكفره رسول الله، ولم يعنت عليه، لم يحرض أصحابه دونه، بل كفّ عمر عنه، وقد أرسل وجدانه، الذي وقر في قلب المؤمنين، أيضرب وجه عم رسول الله ـ الذي حماه ورعاه ـ بعد أبي طالب يا أبا حفص؟

ولنتنبه لمسألة مهمة..

هناك عمّه أبو لهب الوقح في شركه، في قعر جهنم، أما هنا عمه العباس لمروءته وشهامته العظمى قبل إسلامه، فوعاها عمر ووعاها المهاجرون والأنصار، وظل الصحابي العظيم متألما لمقولته، حتى فاضت روحه شهيدة في سبيل الله أمام مسيلمة الكذاب.

ولم يجرح له النبي مشاعره أبداً، بل تفهم دوافعه، لكن راحلة الروح الصادقة هي التي ظلت تؤنب ضميرها، صلى عليك الله يا قمر الهداة وعلى آلك الطيبين وصحبك صفوة العالمين.

برز فرسان قريش وبرز آل البيت

(قال (ابن عباس): ثم خرج بعد عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة، وهم: عوف ومعوذ، ابنا الحارث ـ وأمهما عفراء ـ ورجل آخر يقال: هو عبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم من حاجة.

ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي، فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي، قالوا: نعم، أكفاء كرام.

فبارز عبيدة، وكان أسن القوم، عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز علي الوليد بن عتبة.

فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله؛ واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فذففا عليه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه).

في تقدم طغاة قريش لمقاتلة المسلمين، ومبادرتهم بالنزال، خرج لهم الأنصار، فلم يردّهم رسول الله فالمهجر مهجرهم والرسول بينهم، والدعوة فيهم وفي المهاجرين سواء، لكن حينما اعترض فرسان قريش بأعراف سائغة، فوراً ندب رسول الله إليهم أكفاءهم من آل بيته، وهنا تبرز رسالة النبوة والعدالة، فلم يختصهم بالحماية كونهم من آل بيته، بل يَردون إلى ما يَرِد إليه المسلمون ويتصدرون، وتكون الفكرة جلية واضحة بين المسلمين.

فأنجز سيد الشهداء وابن أخيه فارس الفرسان عليٌّ المشهد، واقتصوا من الطغاة واستشهد الثالث من بني هاشم عبيدة بن الحارث، بعد أن قضوا على فرسان الطغاة، واحتدمت الحرب فكان النصر التاريخي الكبير الذي أضحت به بدر ضحى الإسلام وإشراقته للعالمين.

المدد الملائكي المعنوي

(ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر من الأيام، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يضربون).

لقد كان الحضور الملائكي، عنوانا لأهمية هذه المعركة لتاريخ الرسالة وكما جاء في التنزيل، بأنه بشرى ولتطمئن به قلوب المؤمنين وما النصر إلا من عند الله، وأن العدة والأسباب الدنيوية قد جعلها الله جسراً يتعبد به المؤمنون إليه، وإن علموا بالغيب ووحيه بين قلوبهم وفي مهجهم.

صناديد قريش في القليب

(لما أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القليب فطرحوا فيه، فلما ألقاهم في القليب وقف عليهم رسول الله ﷺ فقال: «**يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ، يَا عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا أُمَيَّةُ بْنَ خَلَفٍ، يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَام، فَعَدَّدَ مَنْ كَانَ مَعَهُمْ فِي الْقَلِيبِ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقّاً؟ فَإِنِّي قَدْ وَجُدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقّاً**».

قَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُنَادِي قَوْماً قَدْ جَيَّفُوا؟ فَقَالَ: «**مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُونِي**»).

حين وُورِيَ صناديد قريش في القليب، محافظة على عهود الناس في دفن

الموتى، وقف ﷺ مستذكراً ذلك الإرث الكبير من السوء والحقد في ردهم، وهو يرجوهم أن يفتحوا بابا لنجاتهم.

لقد أثبتت سيرة النبي ﷺ وخاصة عند فتح مكة، أن الإسلام لا يتعامل مع الانتقام الشخصي ولا ميراث الصراع الاجتماعي، ويفتح باب النجاة حتى لو كانت حربة وحشي، ومضغة مضغتها هند بنت عتبة، لَاكَتْ من صدر عم النبي ﷺ وسيد شهداء أمته.

غير أن المدار هو مع حجم الإقبال والإيمان وقرار فتح الصفحة الجديدة، أما المحاربون العتاة، فليس في الإسلام رومانسية معهم، وليس هناك حل أمام البشرية في مقابل الطغاة المتوحشين، إلا تخليص الإنسانية منهم وتحريرها من طغيانهم وبأسهم.

الروح المؤمنة والنفس البشرية

(ثم إن رسول الله ﷺ أمر بما في العسكر مما جمع الناس، فجُمع فاختلف المسلمون فيه، فقال من جمعه: هو لنا. وقال الذين كانوا يقاتلون العدو يطلبونه: والله لولا نحن ما أصبتموه لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم.

وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ مخافة أن يخالف إليه العدو: والله ما أنتم بأحق منا والله لقد رأينا أن نقتل العدو إذ منحنا الله تعالى أكتافه، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، ولكنا خفنا على رسول الله ﷺ كَرَّةَ العدو فقمنا دونه فما أنتم بأحق به منا).

وهنا نلاحظ أيضا بعض الخلاف على الغنائم رغم قدسية المعركة، وأن الباري ﷻ ورسوله، تعامل مع هذه القضية بشفافية وآيات تُتلا، إنها رسالة بأن الجانب البشري مشترك في كل إنسان، من حيث الغرائز والأطباع، وإنما الإسلام يُهذبها، وأن المبالغة في صناعة مشاريع ودعوات تقوم على مثالية نظرية، تسقط بعد حين، هي رأي غير موفق لم يفهم التعامل الواقعي مع الصحابي الإنسان في صدر الإسلام، فكيف بغيره؟!.

كيف نفهم فلسفة الأسر في الإسلام؟

(حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء قتل النضر بن الحارث، قتله علي بن أبي طالب، قال ابن إسحاق ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية، قتل عقبة بن أبي معيط، فقال عقبة حين أمر رسول الله ﷺ بقتله: فمن للصبية يا محمد؟ قال: النار.

فقتله عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الأنصاري. ثم مضى رسول الله ﷺ حتى قدم المدينة قبل الأسارى بيوم، وحين أقبل بالأسارى فرّقهم بين أصحابه وقال: استوصوا بالأسارى خيراً).

(قال ابن إسحاق: وأبو عزة عمرو بن عبد الله بن عثمان بن أهيب بن حذافة بن جمح كان محتاجاً ذا بنات فكلم رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله لقد عرفت مالي من مال، وإني لذو حاجة وذو عيال، فامْنُنْ عَلَيّ، فَمَنَّ عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه ألا يظاهر أحداً).

في بدر مضى اجتهاد رسول الله وثبته الله ﷺ وإن عوتب في فداء بعض الأسرى، لكن مضت حكمة الله في هذا السياق، ليكون نبراسا للرسالة الإسلامية.

وحين يقتُل النبي - ﷺ عقبة بن أبي معيط -، والنضر بن الحارث كمجرمي حرب لفداحة وقبح فعلهم، فقد أسقط عن الشاعر المشرك الفقير أبي عزة الفداء المالي كليا، وقبِل فداء الكثير فأُطلِقوا، وهو أمرٌ استمر العمل به من الإطلاق والإجارة للمشركين من العرب.

بل وحتى بعد تأمين الحجاز، واستمرار القتال، والدفاع عن الدولة الإسلامية، أُطلِقَ أقوامٌ وأُمِّنوا، وقُبل فداء بعضهم، وأطلقت المؤلفة قلوبهم، وفتحت الأبواب الكبرى لإعتاق من اقتضت المصلحة إعتاقه، وفتح المستقبل لإسلامه عبر التعامل الأخلاقي الراقي.

وتاريخ الأسر في عهود المسلمين ليس حجة على الإسلام بل العكس، فالإسلام وما ندب إليه من إطلاق وعفو وعتق، وألا يؤسر إلا من حددته الضرورات، بحسب شروطها، لا تجارة النخاسة التي تسود في ظل حروب لم تستوفِ شروطها، ولم تطبق منهج نبيها، وكأن الأسر مطمع بحد ذاته، لا إسلام الناس وإقبالهم على الله.

قصة أبي العاص ووجدان النبي الإنسان

(وقد كان في الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس، ختن رسول الله ﷺ وزوج ابنته زينب، وكان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله ﷺ حين أسلمت وبين أبي العاص بن الربيع إلا أن رسول الله ﷺ كان لا يقدر أن يفرق بينهما فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه حتى هاجر رسول الله ﷺ.

فلما صارت قريش إلى بدر سار فيهم أبو العاص بن الربيع، فأصيب في الأسارى يوم بدر، فكان بالمدينة عند رسول الله ﷺ، ولما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، وقال: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا**» فقالوا: نعم يا رسول الله فأطلقوه وردوا عليها الذي لها.

وأقام أبو العاص بمكة وأقامت عند رسول الله ﷺ بالمدينة حين فرق بينهما الإسلام حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجرا إلى الشام، وكان رجلاً مأموناً بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها معه، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلا لقيته سرية لرسول الله ﷺ، فأصابوا ما معه وأعجزهم هارباً.

فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ فاستجار بها فأجارته، وجاء في طلب ماله، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصبح فكبر وكبر الناس معه صرخت زينب من صفة النساء أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال: «**أيها الناس هل سمعتم ما سمعت**». قالوا: نعم.

قال: والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعت، أنه يجير على المسلمين أدناهم، ثم انصرف رسول الله ﷺ، فدخل على ابنته فقال: أي بنية أكرمي مثواه ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له.

وعن عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ بعث إلى السرية الذين أصابوا

مال أبي العاص، فقال لهم: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به، فقالوا: يا رسول الله، بل نرده عليه فردوه عليه حتى إن الرجل ليأتي بالدلو ويأتي الرجل بالشنة والإداوة حتى إن أحدهم ليأتي بالشظاظ حتى ردوا عليه ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً.

ثم احتمله إلى مكة فأدى إلى كل ذي مال من قريش ماله ومن كان أبضع معه، ثم قال: يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً، قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أني أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم، وفرغتُ منها أسلمتُ ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ).

إن في قصة أبي العاص زوج السيدة زينب بنت النبي ﷺ، مدرسة من مشاعر هذا النبي الإنسان العظيم، وفي ذات الوقت تأكيداً لما ذكرناه في إطلاق الأسرى، وبحسب المعروف بين الناس وفتح مجالاته واسعاً، خاصة حين استذكار أسره الثاني، وأدب المسلمين مع نبيهم، والنهاية التي انتهت إليها قصة أبي العاص وقرار إسلامه.

بين الأسر والعبودية

الأصل الذي لا خلاف فيه، أن العبودية الحق لله تعالى في رسالة الإسلام، هي قمة الحرية والتسامي، عن مقاييس البشر ومصالحهم، وأن الرسالة جاءت لهداية البشرية لا لقتلهم ولا لأسرهم، فضلا عن استعبادهم، غير أن طبيعة الصراع الإنساني بين الشر والخير، وميل النفس الضالة إلى الطغيان ومحاربة فكرة الهداية، ومنع قوة البلاغ الفكرية من الوصول إلى الجماعة البشرية في كل المعمورة، اقتضى تشريعات دفاع وحرب طبيعية.

وجزء من تشريعات الحرب الضرورية لضمان تمكن حَمَلَةِ الرسالة، من تحييد قوة الخصوم المتجبرين، والاحتفاظ بمن تتمكن جغرافيا الرسالة من أسره.

أولاً.. ليستمع البلاغ ويعيش أو تعيش بين ظهراني المسلمين الصالحين،

للتعرف على دينهم، والتفكر، ثم قرار الدخول الطوعي فيه، وهو ما جرى بالفعل في القرون المفضلة، للغالبية الكبرى من الأسرى.

وهو الهدف الرئيس، وبعده يفتح كل مسار لحريتهم، بقرار فداء مالي من الدولة أو المجتمع، والذي ندب إليه الإسلام في مفهوم عتق الرقبة بصورة مشددة ومكررة، وجعلها من أعظم القربات والكفّارات.

الأمر الآخر أن الأسر يجب أن يتم بحسب الشروط والمقتضيات الشرعية، وفك الأسرى أو إطلاقهم بفداء أو رهن المجرمين العتاة منهم، أو القصاص من مجرمي الحرب، هو أمرٌ تقديري للدولة المسلمة العادلة، في التعامل مع هذه الحالات وفقا لمقاصد الرسالة وما ندبت إليه.

أما أسواق النخاسة، التي تزدهر بعبودية لا يعرف من أين جاءت أو بمباغتة، في هجوم أو في ظروف غامضة ولو كانت تزعم أنها راية إسلامية جهادية، فليس ذلك من فقه الأسر في الإسلام، فضلا عن تجارة العبودية، التي ثبت في مراحل تاريخية ازدهارها في أوروبا وتأثر المسلمين بها في عهود ما بعد الخلافة الراشدة، وفي العهود المتأخرة.

ومن ثم أُسِرَ الأحرار أو اشتروا للون بشرتهم، أو لبغي التجار، أو لحروب مصالح أو جماعات ما أنزل الله بها من سلطان، فهاجمت بلدانا وأقواما هم في ذمة أهل الإسلام تاريخيا، ذمة جماعية، واستقر بهم الحال، فلا يجوز ان تُنقض عهود الأمم التاريخية، لمواسم معارك، متنقلة وصراع، فتُستدعى أحكام الأسر، على أقليات باتوا رعايا جغرافية الأمة من قرون، أو سبق أن تعاقدوا على الاستقرار دون حرب مع المسلمين.

ولذلك فإن من مهام القيادة الإسلامية، تقدير هذا الأمر، وشروط تحقيق مصالحه، ونبذ كل مساحة عدوان وبغي فيه، باسم الأسر الشرعي، وهو استدلال باطل لم يستوفِ شروطه، كما أن البدائل المتاحة هي ضمن سياقات الخيارات الشرعية، بحسب زمان الأمم وتطور أحوالها.

وما جرى من قبل قيادات سياسية في تاريخ الأمة ومبادرتها، بإطلاق الأسرى وتحرير من استعبد، فيها جماعيا، بقرار أو بضمان مالي، لعدم وضوح هذا الأسر ولإساءة تصرف من تولاهم، هو ضمن هذا الفقه الراشد.

وما ثبت في التاريخ عن تحويل الأسر، إلى متع خاصة ومتاجرة متفشية بلا

ضوابط ولا أعراف، ولا مراعاة مطلقة لأمل دخول الأمَة أو العبد في الإسلام، ومواطنته الكبرى، بل الاكتفاء بعبوديتها وعبوديته، للثروة والشهوة، هو أكبر دليل على الانحراف الذي جرى لهذا المفهوم، في عهود مبكرة، حيث بدأت تنقض معالم الشريعة.

فأين هذا من حضور الموالي، في صدر الإسلام ومكانتهم وحرية قولهم ومكاتبتهم للتحرير وعون المسلمين لهم على ذلك، وتعبيرهم في العهد النبوي الشريف، وتولي النبي ﷺ إعتاق بعضهم، والتشديد على حقوقهم، وتلك الشراكة الاجتماعية لهم في كل حراك المجتمع.

ولذلك فإن التزوير وسوء التحوير الذي يجري لهذه القضية، وما يترتب عليها مدعاة لتجنب دوافعها ومضارها، هذا لو كانت الحرب، تحت قيادة مسلمة راشدة لا جماعات هوجاء، تتعامل مع الخلق بأن المهمة قتلهم لا هدايتهم.

وباب التعامل مع الأسرى دون عبوديتهم، مفتوح التقدير لمصالح المسلمين بإطلاق أسرى المسلمين، أو التعويض عنهم، أو احتباسهم بالنظام الحقوقي للأسير، حتى شروط الصلح مع عدوهم، أو بإطلاق الضعفاء وذوي الحاجات منهم.

الدولة الإسلامية
والتأمين العسكري

الاستنفار العسكري لحماية دولة الدعوة

(قال ابن إسحاق: فلما قدم رسول الله ﷺ لم يقم بها إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بني سليم. فبلغ ماء من مياههم يقال له: الكدر فأقام عليه ثلاث ليال، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها بقية شوال وذا القعدة وأفدى في إقامته تلك جل الأسارى من قريش).

(ثم إن أبا سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ حِينَ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ وَرَجَعَ فَلُّ - أي منهزم - قُرَيْشٍ إِلَى مَكَّةَ مِنْ بَدْرٍ، نَذَرَ أَلا يَمَسَّ رَأْسَهُ مَاءٌ مِن جَنَابَةٍ حَتَّى يَغْزُو مُحَمَّداً، فَخَرَجَ فِي مِائَتَيْ رَاكِبٍ مِنْ قُرَيْشٍ لِيُبِرَّ يَمِينَهُ، فَسَلَكَ النَّجْدِيَّةَ حَتَّى نَزَلَ بِصُدُورِ قَنَاةٍ إِلَى جَبَلٍ، يُقَالُ لَهُ: تَيْتٌ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى بَرِيدٍ أَوْ نَحْوَهُ. ثُمَّ خَرَجَ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى أَتَى بَنِي النَّضِيرِ، تَحْتَ اللَّيْلِ، فَأَتَى حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ، فَضَرَبَ عَلَيْهِ بَابَهُ، فَأَبَى أَنْ يَفْتَحَ لَهُ، وَخَافَهُ، فَانْصَرَفَ إِلى سَلامِ بْنِ مِشْكَمٍ، وَكَانَ سَيِّدَ النَّضِيرِ فِي زَمَانِهِ ذَلِكَ، وَصَاحِبَ كَنْزِهِمْ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَهُ، فَقَرَاهُ وَسَقَاهُ، وَبَطَنَ لَهُ خَبَرَ النَّاسِ.

ثُمَّ خَرَجَ فِي عَقِبِ لَيْلَتِهِ حَتَّى جَاءَ أَصْحَابَهُ، فَبَعَثَ رِجَالا مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَتَوْا نَاحِيَةً مِنْهَا، يُقَالُ لَهَا: الْعَرِيضُ، فَحَرَّقُوا فِي أَصْوَارٍ مِنْ نَخْلٍ لَهَا، وَوَجَدُوا رَجُلا مِنَ الأَنْصَارِ، وَحَلِيفاً لَهُ فِي حَرْثٍ لَهُمَا فَقَتَلُوهُمَا، ثُمَّ انْصَرَفُوا رَاجِعِينَ، وَنَذَرَ بِهِمُ النَّاسُ.

فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَلَبِهِمْ حَتَّى بَلَغَ قَرْقَرَةَ الْكُدْرِ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعاً، وَقَدْ فَاتَهُ أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ، وَقَدْ رَأَوْا مِنْ مَزَاوِدِ الْقَوْمِ مَا قَدْ طَرَحُوهُ فِي الْحَرْثِ يَتَخَفَّفُونَ مِنْهُ لِلنَّجَاةِ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ رَجَعَ بِهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَنَطْمَعُ أَنْ تَكُونَ لَنَا غَزْوَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ).

من بعد غزوة بدر دخلت المدينة المنورة مرحلة جديدة، فأضحت المواجهة جبرا، عبر إطار عسكري، فنظام الطغاة الكافر في مكة وكل حلفائه، وشركائه في الجزيرة، لن يقبلوا ميزان معادلة قوة، للعهد الجديد لعرب الرسالة، ولن يُسلّموا مطلقاً بحضور دولة الرسالة، التي تعني ولادة العرب من جديد.

وواضح أن النبي ﷺ قد استعد لهذه المرحلة الحربية، التي تحتاجها الأمة ودولتها، لتبليغ الرسالة، ومع تفاعله واستعداده فإن رسالة الدعوة الفردية والجماعية لم تتوقف لدعوة الناس للإسلام، لكن استكمال بناء الدولة وتحصينها، يعني تأمين أكبر وسيلة للبلاغ الإسلامي للبشرية.

فبادر النبي ﷺ للخروج العسكري، لتأمين حدود المدينة وبعث رسالة معنوية قوية فيها ـ دون حدوث أي قتال ـ كما أنه وفي أول غزوات التأمين وهي غزوة بني سليم نفّذ فداء أسرى قريش، أي قبل فداء أهل مكة فيهم، لإظهار جانب السلم في موقع القوة.

وبالفعل تأتي الرياح تأكيداً لما حسب له النبي ﷺ، فأبو سفيان يقود سرية لنظام طغاة مكة، بمباغتة عسكرية يتسلل منها تسللاً، فيصل لمزرعة بالمدينة ويحرقها، ويلقى مدنياً من الأنصار وحليفاً مشركاً له من مواطني دولة المدينة، ويقتلهما، ويفر هارباً فيلاحقه النبي ﷺ، لكنه ينجو كما في الخبر بعد أن ضحّى بسرقته وألقاها، وهنا يبرز لنا الفرق بين منهج الإسلام العسكري وحروب الطغاة غير الأخلاقية.

اليهود المحاربون وخيانتا الزمن الصعب

وُضع دستور المدينة كما قلنا، لتأسيس نظام عدالة جامع بين المسلمين وغيرهم، يؤمّن الاستقرار الاجتماعي والسياسي والأمني، والشراكة في متطلباته، وكانت مواد العهود الأمنية والسياسية واضحة جدا، بين المتعاقدين فيه من مسلمين ويهود وغيرهم.

وهذه عهود أبجدية في حماية الدولة المسلمة الوليدة، بل وتأمين حياة كل أسر وأفراد مجتمعها المدني الواسع، وبذلك كانت الحجة قائمة، على كل من يريد الخير والمسالمة، وبين من يسعى للفتنة وتمكين قوات العدو، من الدخول إلى عمق أو أسرار الدولة الإسلامية.

وبالفعل ورغم مساحة الاستقرار والشراكة والعهود الجمعية مع اليهود، إلا أنه من الواضح أن هذا المعسكر لا يُريد أي استقرار لهذا المجتمع، ولديه استعداد فوري للتعاون مع نظام طغاة مكة الكافر، رغم كل ما قدمته الدعوة من رسائل ركزت التذكير بوحدة الأنبياء وواجبات أهل الرسالات السماوية.

لكنها لم تُقبل لدى جماعات اليهود المنحرفة عن منهاج موسى وهارون وبني إسرائيل الصادقين، ولم يزل معسكر يهود المدينة مستفزا من الرسالة والرسول، وقد أكل الحسد والغيرة قلوبهم وأعمارهم.

وأول نقض، كان استقبال سلام بن مشكم (أحد زعماء يهود بني النضير) لأبي سفيان بن حرب وإبلاغه كافة أسرار الدولة الوليد التي اطلع عليها وما جرى فيها، ثم نقض الأمن الاجتماعي من بني قينقاع بدعم جريمة كشف عورة المرأة المسلمة، وقتل من دافع عنها.

ولم يبادر النبي ﷺ بمواجهة عامة معهم بعد هاتين الحادثتين المهمتين، بل مُنحوا فرصا، وتم التعامل مع كل حي من أحيائهم باستقلال تام، ولكن سنلاحظ أن قرار الإجلاء والقصاص من مقاتلي يهود بني قريظة، الذين أعلنوا النفير الحربي، من داخل المدينة ضد المسلمين في غزوة الأحزاب، صدر بعد كل ذلك.

ولم يأت ولم ينفذ إلا بعد سلسلة من خيانات، فردية وجماعية لدستور المدينة ولعهد النبي ﷺ وأصحابه معهم، ولكنهم كانوا ينقضونه ويتحالفون مع العدو كل مرة، ويمنعون استقرار المجتمع المسلم وحلفاء الوثيقة في الدولة الجديدة.

غزوة أُحد
آلام وآمال

دروس الغزوة

لـم تخلف قريش الظن، فقد استنفرت قوتها لرد هزيمتها في بدر، واستئناف عزيمة نقض دولة الدعوة وقتل نبيّها، واستدعت الثارات الجاهلية وأُخرج النساء كونهنّ رمز عَرْض العربي لساحة الوغى، في حماقة تظهر حقيقة العرب دون رسالة ولا إيمان، وحشدت قريش تحالفاً جغرافياً بين نجد والحجاز يحقق مبتغاها، من هذه الحرب.

في دلالة مستمرة، على أن نماذج طغاة الكفر لا يدخرون وسيلة عنف ولا حرب إلا اتخذوها لهزيمة دار الإيمان، فيما لا ينسحب ذلك على بعض مناطق الكفر التي لا تسعى بالعداء بل وتسمح ببلاغ الرسالة في أوساطها، كما جرى مع النبي ﷺ بعد ذلك في مراسلاته.

لكن النظم الطاغية للكفر، لا ينفع معها أي سياق غير رد عنفها وحربها بجهد عسكري، أو أمني مقابل.

حوار النبي وشباب المدينة

(قال رسول الله ﷺ للمسلمين: **«إني قد رأيت في المنام ـ والله خيراً، رأيتُ بقراً ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا، أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها»** وكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول مع رأي رسول الله ﷺ يرى رأيه في ذلك، وألا يخرج إليهم وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج.

فقال رجال من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيره ممن كان فاته بدر: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جَبُنّا عنهم وضعفنا؟

فقال عبد الله بن أبي بن سلول: يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا، أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا، رجعوا خائبين كما جاءوا، فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم حتى دخل رسول الله بيته، فلبس لأمته وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة.

وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له: مالك بن عمرو أحد بني النجار فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا: استكرهنا رسول الله ولم يكن لنا ذلك، فلما خرج عليهم رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله: استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد ـ صلى الله عليك ـ، فقال رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل).

لم يمِل النبي ﷺ للخروج لأحد وهو المكان المتوقع أن تنزل به قريش، كون المدينة مطوقة بحِرارها، لأن إمكانية هزيمة الغزاة أكبر لو تقدموا دون يثرب، وكان هذا رأي زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول المبغض للإسلام والنبي، ولكنه اتخذها حجة، وهو أيضاً بعض رأي كبار السن، من الأنصار.

غير أن النبي ﷺ لم يحسم الأمر بوحي من الله ﷻ لأمر من حكمته البالغة، وسابق علمه في مآل غزوة أحد، فترك رسول الله الأمر يحسم بالتداول والحوار، ومال لرأي الشباب الذين عزموا عليه بالخروج وأنفسهم تتقد بالحماسة.

وهنا نلاحظ كيف يعطي النبي ﷺ وهو الرسول والقائد الأعلى للمدينة مساحة الرأي والأخذ والرد، ثم يوافق الشباب، بحسب مداولاتهم ويعزم ويلبس لأمته، فيشعر الشباب أنهم قد ضغطوا معنويا على نبي الله، فيعتذرون إليه، فلا يُثرّب عليهم ولا يعاتبهم، ويمضي في طريقه، وقد استوحى من لأمته، قدر الله لهُ بالخروج إلى أحد.

هنا حرية الرأي ومداولات السياسة، تُتخذ بأوسع إطار بين النبي وشباب

أمته، في زمن الحرب.

خيانة المنافقين وشريعة التعامل المدني

(فخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه، حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد، انخذل عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس وقال: أطاعهم وعصاني ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب.

واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال قال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه).

وانخذل المنافقون دون أحد، في حدث جلل، لكنه أمرٌ تاريخي ومهم للأمة وللرسالة، بعد أن أُعطوا فوق الإعذار، وروعي سيدهم عبد الله بن أبي سلول، وهو يُمعن في نفاقه، لكن مع ذلك لم تُشرع الفتنة بين مواطني الدولة الوليدة، وكف الله ألسنة المؤمنين عنهم.

بل لم يأذن النبي ﷺ للصحابي الجليل حذيفة بن اليمان، بعد أن أعلمه الله بأسماء المنافقين بذكرهم، وكل ذلك حقيبة من المواقف والتشريعات، التي تؤكد على حقوق المسلم، وحقوق المواطنة، بحسب الظاهر، وألا يأخذ القانون مجراه بالظن بل بالفعل الجلي، إن انكسار المنافقين وانسحابهم الحقير، كان ضرورة لتثبيت الدولة الإسلامية بترسها الأمين.

وهو كذلك حين استغنى النبي ﷺ عن مشاركة اليهود العسكرية التي تُلزمهم بها وثيقة المدينة، حتى لا تكون مشاركتهم ضررا على المسلمين، وسلامة الدولة، فيم لم يُرَدّ من أتى ليقاتل في صفوف الأنصار وهو في ظاهره مشرك، ما دام ينتصر لدولة الإسلام، عصبية لقومه ولأرضه، وإن كان باطنه إيمان جديد بالرسالة، كأُصيرم بني عبد الأشهل.

وعلى هذا الرتم في المجتمع، سادت العلاقة بين أطراف دولة المدينة، فكانوا بالجملة شركاء في البناء والتبايع والتعاطي - بل - والمجالس والمنتديات، ولم يتم العزل بينهم.

ولم تنشر بين المسلمين وفي حواضرهم ثقافة إن هذا منافق وذاك من المخلصين، بأسماء معلنة أو تصنيفات أو تعامل جهري وإن غلب الظن في بعضهم، وإن تنزل القرآن الكريم يكشف خبيثتهم وخيانتهم للدين، لكن هذا التشريع العظيم، إنما يؤسس لمعادلة مهمة جدا في الحياة الاجتماعية للأمة في عصر الرسالة وبعدها.

التعامل المدني الإسلامي والتصنيف الفكري

وهي أن الأصل التعامل بالظاهر، وإن لزم الحذر من شخصيات تُثير مساعي خطيرة، لكن بالجملة لا يُتهم الناس ولا المواطنون أنهم منافقون ولا يُحرّض عليهم، وقس على ذلك ما يجري في بلدان المسلمين حالياً في الزمن المعاصر، حيث يتتبع كل صاحب فكر، من شعوب المسلمين أو ثقافة ثم ينعت بالنفاق لأن فيه علمانية، بحسب ظن هذا الشخص أو تلك المجموعة من المتدينين.

فيُطعن في دينه ويحرض عليه، وقد يكون من صالحي الناس ووعيه في الإسلام أفضل من أولئك، أو يكون ممن لهم رأي فيه جنوح أو انحراف أو قصر نظر، أو ردة فعل فلا يلزم منه أن يُصنف منافقاً.

بل حتى لو كان يحمل فكراً علمانياً، والعلمانية توجهات فيها الإلحاد والعلمانية التشريعية والعلمانية الإنسانية والجزئية، ولكل مسار في تفسيرات رأيه وفكره، لكن ليس بالضرورة أن يكون منافقاً، أي يُبطن للمسلمين الخذلان ويتآمر عليهم، ويُظهر غير ذلك.

إن استقرار المجتمع الإنساني في داخل الأمة الإسلامية، ضرورة وهو باب واسع للتبشير بالفكر ونقل الرسالة، واستنباط نصوصها ومصالحها، ولا يُمكن أن يكون ذلك خاضعا لآراء الخصومة الثقافية أو الفكرية، ولكن لأداء المواطنة في كل دولة مسلمة وبحسب شروطها، أو علاقة الفرد مع المجتمع المقيم به.

نعم.. هناك مؤسسات ومشاريع قامت على العلمانية الاستئصالية المعادية لحرية الإنسان والمجتمع المسلم وبلاغ رسالته، بل واستقراره السياسي، ويتآمرون عليه ولو كان تحت نظام حكم عادل، لكنها تصنف في إطارها المحدود، وليس كل من اختلف مع أي جماعة دعوية ودينية يحاكم بناء على حملتهم.

وإن كانت العلمانية الغربية اليوم التي يُحتج بها على دول العالم الثالث، تُطَبق بصورة انتقائية، فتحمل الفكرة الدينية المعادية للمسلمين، والفكرة المصلحية الانتهازية لسرقة مصالحهم، وإن عجّ الإلحاد في أرضهم، وتكرست الحقوق القانونية على أساس علماني، يُخرق أحيانا بحسب المصالح.

لكن خلاصات القوانين والحقوق في الغرب تقدمت كثيراً على واقع المسلمين، وذلك بسبب نقص وعي المسلمين لرسالتهم والبأس والتوحش الذي مارسته أنظمة الاستبداد عليهم.

السر الأكبر في غزوة أُحد

(احتدمت المعركة في أحد، والتحم الجيش المسلم، مع غزاة قريش وحلفاء الطغاة العرب، وكانت المعركة في بدايتها تنبئ بالنصر للمسلمين، لو طُبقت خطة النبي ﷺ، لكن تحول بعض الرماة من الجبل ومخالفتهم الخطة حرصا على الغنائم، ساهمت في نجاح خالد بن الوليد بتحويل المعركة لصالح قريش، لأمر كتبه الله).

رغم آلامها الكبيرة، وقصة الشهداء والفداء العظيمة، إلا أن لغزوة أحد دروساً عظيمة لا تزال مستمرة حتى زماننا هذا، وهذا سرها الأكبر، ولذلك هي هزيمة عسكرية لم تكتمل، لنجاح مهمة حمراء الأسد، حيث رابط الجرحى مع رسول الله، وظنت قريش أن القوة قادمة فانسحبت قافلة، ولم تحقق هدفها المركزي الذي استحضرته بعد خروجها من أحد، وهو قتل النبي ﷺ أو إسقاط دولة الإسلام الوليدة.

وهي هزيمة ضمن انتصار كبير معنوي للروح الفدائية، ولتمحيص الصفوف قبل غزوة الأحزاب التي كانت مقدمة الفتح المبين وضم العرب كل العرب إلى رسالة البعث الأمين، وإشراق الرسالة في نفوسهم، وتمددها في جزيرتهم.

إن السر الأكبر سيظل أن الله أوحى شريعته، وأعطى دلائلها العقلية في فطرته، ومعجزاته في زمن نبيِّه، ثم جعل معجزته الكبرى الدائمة في قرآنه، لكنه تعبد الناس في دنياهم، ببذل السبب وإن علقّهم وجدانياً، لا سببياً بقدره خيره وشره، وألهم الصالحين التوكل عليه لا التواكل فيه، وهو مسبب الأسباب وخالق الأكوان.

ولذلك مضت خطوات المعركة وقصتها، لتخضع لما تعبد الله به المسلمين الأوائل، وهو كذلك فيمن بعدهم، وأن أقدار الضعف والألم والهزيمة، قد تجري فيهم كما تجري لغيرهم، فالواقعية التي بعثها الله في سنن الناس تمضي على المسلمين كغيرهم، ولذلك على الأمة أن تفقه دينها جيداً، ولا تظن أن دخولها في الإسلام يعطيها عصمة وقوة فتستغني عن الأسباب، بل هو الإيمان ثم اتخاذ الأسباب بعد ذلك.

وهو السر الأكبر، لأن ما وقع للمسلمين من نكبات بعد ذلك، خاصة في الفتنة بين الصحابة، وحين نُحيّت الشورى عن المسلمين وحكم فيهم بالتوريث الظالم، وما تبع ذلك كان ضمن هذا السياق، فإقامة أمرُ الله واتخاذ الأسباب المفضية لذلك بالحسنى، واتقاء المصالح وحظوات النفس، أو مواجهة عواقب الخطيئة.

فمخالفة الرماة للأمر، وتخليهم عن عبد الله بن جحش، لأجل الغنائم، والنبي ﷺ بين ظهرانيهم، هو دلالة أن شهوة النفس وحظها موجود، فكيف بمن يأتي بعد الجيل العظيم لصحابة سيد المرسلين؟

وهكذا يفهم تاريخ المسلمين ومواضعه الأليمة، بهذا المعيار الدقيق، الذي يعزره ما حذّر منه النبي ﷺ، بل وصرح به للأمة، بأنها ستواجه عهودا قاسية للحكم الجبري، لأن نظام العدل في الحكم هو أول ما ينقض.

لماذا الشهيد مصعب يحمل الراية؟

(ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، أخي بني عبد الدار)

كانت راية المشركين في قريش لدى بني عبد الدار، وقد دفع النبي ﷺ راية المسلمين لذات القوم بني عبد الدار، لكنها في كف الشهيد الملهم العظيم مصعب بن عمير، مصعب الذي ترك كل نعيم الدينا وثروة قريش إلى دار خارج أرضه، بين أصحابه وتلاميذه الذين بعثه رسول الله إليهم، فارتضى الفقر وغنى الروح، بدل غنى دنيا الطُغاة، وخواء الأرواح، مصعب الشهيد الذي لم يجدوا إلا ورق الشجر ليكملوا به كفنه، حامل راية المسلمين، من ذات القبيلة وولائها، وهي المشركة في مكة.

هنا رسالة مهمة ودقيقة جدا، هذا الصراع لا يقوم أبداً على منطلق عصبية

اجتماعية، ولا جغرافيا ولا لانتماءات مختلفة، وإن بلغ طغيان كفار قريش مبلغه، لكن الرسالة ليست لهذا العهد بل لكل عهود المعمورة، وقريش اليوم في أحد طغاة بغاة معتدون، لكنهم بعد ذلك قاعدة البلاغ للعرب حين تُفتح مكة، وهي النظام الاجتماعي الحاضن مع المدينة لمعاقل المسلمين وموطنهم الجغرافي.

وأن الإسلام لا يقوم على الثارات، ولا تصفية الحسابات بل يقوم على حقيقة واحدة، هداية الناس لرسالة رب الأرض والسماوات، وحسن عبادتهم لمولاهم ونجاتهم في المصيرين، ولذلك لم يترك النبي ﷺ مساحة للشك في هذا السياق إلا أزالها.

وإن بقيت آثار الضعف الإيماني في هذا الفريق بعد فتح مكة، وبرز في غزوة حنين، وبعض مفاصل التاريخ السياسي للمسلمين، لكنهم بالجملة كانوا دثار الأمة حين أشرقت مكة بإسلامها وعادت للحنيفية، بل ورَدَّ ﷺ لقريش مكانتها، ما دامت في طاعة الله ورسوله.

إن الانتقام المتوحش لهند بنت عتبة، وجريمة وحشي، لم تمنع قبول توبتهما، والعهد الإنساني الجديد، وبقي ألم النبي العظيم في صدره ودمعه على سيد الشهداء، لمشاعره الشخصية، وهو من احتسبها وترك لهم بوابة النجاة والعضوية الجديدة في مجتمع الرسالة الإسلامية، التي لم تأت لمصالح ولا منافع ولا حسابات شخصية، لكن لأجل هداية الخلق مهما بلغ ضلالهم، وفَتْح أبواب النجاح لهم.

شهداء أُحد والمقام العظيم

إن كل شهداء الإسلام وخاصة الجيل الأول لهم مكانة عظيمة في صدور المسلمين وتاريخ نبلاء البشرية، فهم من تولوا الدفاع عن رسالة البلاغ الأولى، وضحوا في سبيلها، لكن لشهداء أحد خصوصية تربطنا معهم ومع سيدهم وسيدنا حمزة بن عبد المطلب، حتى هذا الزمن، لنستحضر دروس المعركة، وآلام النبي ﷺ، والحب والدمع الذي تدفق منه لآله وأصحابه الشهداء.

ذلك القلب العظيم الذي يفيض بالود والروح الدافئة، ذلك القائد الذي لا موكب له ولا كرسي تشريف، ولا مقصورة، إلا قلوب أصحابه ومجتمع دولته الأمين.

أي حب يا رسول الله؟

بعثتَ به وأيّ نور أشرق فيهم، حتى ندركه اليوم وكأننا ننظر إليك من بوابة الزمان الطويل، فتضيء في قلوبنا أنواراً من سراج الرحمة التي واسيت بها أصحابك الميامين.

التمحيص وساعة الشدائد

(وفرغ الناس لقتلاهم، فقال رسول الله ﷺ: من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق قال: فقلتُ له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟

قال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم، ومنكم عين تطرف قال: ثم لم أبرح حتى مات قال: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته خبره).

إن ديناً يحمل هذا الهدى للعالمين، لا بد له من فداء وتضحية، فهو يسعى بكل سلم للناس أين ما كانوا، ويختط كل طريق يُفتح أمامه في علاقات البشرية، لكنه يواجَه من النفوس المنحرفة، فيفديه فيها أرواح علية.

واعتقاد أن الإسلام وبلاغه ليس له ضريبة، وأن المشكلة من المسلمين ذاتهم، خطيئة كبرى فروح العداء للحق موجودة في البشرية، تسعى ذاتيا لمواجهة الحق والعدل ورسالة الإيمان السماوية، فتوطين النفس على هذا المدار مهم، ليس في استعداء الناس ولا خلق أزمات ظرفية، ولا السعي للمصادمة وتعقيد الأمور، ولكن للتهيُّؤ لاحتمال البلاء الذي أصيب رسول الله فيه وأصيب فيه آل بيته وأصحابه فكيف بمن يليهم؟

لقد قدم الأصحاب الفدائيون، دروسا في عظمة التضحية للرسالة، والصبر على ما يلقاه كل من يحمل رسالة البلاغ، للمجتمع الإنساني في كل زمان.

لقد كانت رسالة سعد بن الربيع ﷺ ميثاق إلهام للإقبال على الله في النزع

الأخير، في إيمان فوق قوة الفولاذ ومحبة للرسول والرسالة، ووعي لمهام الطائفة المخلصة المؤمنة في كل زمان ومكان.

ومقولة صاحب السيرة الأول (الإمام ابن إسحاق) مُهمة لكل زمان بضريبة معركة الحق للصادقين مع النبيين.

الإسلام العدل
والطغاة الغادرون

غدر الكفر الحربي وطغيانه على كل قانون

(قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عضل والقارة، ـ حيّان من أحياء العرب ـ فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرؤننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ معهم نفراً ستة من أصحابه وهم مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت وخبيب بن عدي وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق.

وأمر رسول الله ﷺ على القوم مرثد بن أبي مرثد فخرج مع القوم، حتى إذا كانوا على الرجيع: ماء لهذيل بناحية الحجاز، على صدور الهدأة غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلاً فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم.

فأما مرثد بن أبي مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً فقال عاصم بن ثابت:

ما علتي وأنا جلد نابل ... والقوس فيها وتر عنابل
تزل عن صفحتها المعابل ... الموت حق والحياة باطل
وكل ما حم الإله نازل ... بالمرء والمرء إليه آئل

وكان عاصم بن ثابت يكنى: أبا سليمان ثم قاتل القوم حتى قتل وقتل صاحباه).

وفي موقف آخر يروي ابن هشام:

«قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله ﷺ المدينة، فعرض عليه رسول الله الإسلام ودعاه إليه، فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام، وقال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد.

قال أبو براء: أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك. فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة، في أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين منهم: الحارث بن الصمة وحرام بن ملحان أخو بني عدي بن النجار وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق في رجال مسمين من خيار المسلمين فساروا حتى نزلوا ببئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم كلا البلدين منها قريب وهي إلى حرة بني سليم أقرب.

فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله إلى عدو الله عامر بن الطفيل فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه وقالوا: لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً.

فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم من عصية ورعل وذكوان، فأجابوه إلى ذلك فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم يرحمهم الله إلا كعب بن زيد أخا بني دينار بن النجار فإنهم تركوه وبه رمق، فارتث من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً رحمه الله.

(وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار أحد بني عمرو بن عوف، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر فقالا: والله إن لهذه الطير لشأناً فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة فقال الأنصاري لعمرو بن أمية: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر فقال الأنصاري: لكني ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو وما كنت لتخبرني عنه الرجال ثم

قاتل القوم حتى قتل وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه).

في كِلا قصتي قبيلتي عضل والقارة وبئر معونة وغدر عامر بن الطفيل، مغزى مهم لما تواجهه الرسالة الإسلامية في صراعها، مع أنفس شيطانية تخلت عن كل قيم وأسقطت كل خلق، ومارست عدواناً حربياً على الأبرياء، ونحن هنا نراجع هاتين الحادثتين، بخلفيات قانونية وفكرية وأخلاقية، يبرز لنا حجم الجريمة المرتكبة ضد أصحاب رسول الله ﷺ، من شباب قرآني طُلبوا من الخونة الغادرين، بزعم تحفيظهم لكتاب الله، وقد ترصدوا للغدر بهذه الثلة المؤمنة.

إن رحلة الكفاح الإسلامي تواجه كما قلنا مسارات الصراع والطبائع البشرية، وتخوض مهمة البلاغ معها، بذات المعايير التي فطر عليها البشر، إبصار الخير والشر واختيار أحد طريقيه، ولذلك تتعرض لمثل هذه الفصول من الغدر، والذي يحتاج بالقطع إلى قصاص عادل وقوة تنفذه وتحمي الأمة، وإن كل ميثاق قانوني وأخلاقي رغم أهميته، لن يسعه أن يبسط دستوره، دون هذه القوة، التي تلاقي تجمعات ليست سهلة، لا ينفع معها إلا الحسم القانوني.

ولكن هذا الحسم لا يسقط حق البلاغ ولا التواصل العدلي المتكافئ الذي يؤسس جسوره مع كل الناس بكل دياناتهم، وعرض الرسالة عليهم، والتعامل الدنيوي معهم عبر مصالحهم، بحسب المواثيق الدستورية الراشدة والضامنة لأمن الجميع، وحيث تخرق تنزل القوة على الطغاة المعتدين لا الأبرياء المدنيين، هذه الصورة تراها تتكرر في قصص السيرة النبوية.

حقوق التحالف العدلي مع المشركين

(وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه، فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة أقبل رجلان من بني عامر، قال ابن هشام: ثم من بني كلاب وذكر أبو عمرو المدني أنهما من بني سليم.

حتى نزلا معه في ظل هو فيه، وكان مع العامريين عقد من رسول الله ﷺ وجوار لم يعلم به عمرو بن أمية وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ فقالا: من بني عامر فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب

بهما ثؤرة من بني عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله، فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله فأخبره الخبر، قال رسول الله ﷺ: لقد قتلت قتيلين لأدينهما).

وهنا نجد أن رسول الله ﷺ لم يقبل مطلقا قتل مدنيين مشركين من مواطني التحالف العدلي من بني عامر، رغم أن أبا البراء من زعماء بني عامر هو من أجار أصحاب رسول الله لبلاغ أهل نجد الإسلام وكان على شركه، ولكنه قدم العهد صادقا بل هو طلبهم، وغدر عامر بن الطفيل وتمنعت باقي القبيلة وفاء لعهد أبي البراء، إلا رهط عامر وأحلافه الأشرار.

ولم يكتف النبي ﷺ برفض قتل المدنيين المشركين البريئين من بني عامر، بل جمع ديتهما وأدى عن دولة الإسلام حق العهد، الذي خرق خطأً من عمرو بن أمية الصحابي الناجي من جريمة عامر بن الطفيل، والذي ظن أنه اقتص من المجرمين الغدرة من المشركين، ولكنه قتل مدنيين بريئين.

صورة متوازنة مفصلية تؤكد دائما، أن الإسلام العدل يحاسب الجناة لا البشر على أديانهم، أو انتماءاتهم أو قراباتهم المختلفة، مع معسكرات الكفر الطاغية المعتدية.

الصحابة أرواح بشرية فاضلة

وفي قصة الغدر ومواجهة الصحابة المغدورين تتبيّن لنا أرواحهم البشرية، التي تسعى للسلامة، ما دام ذلك ممكناً، لكن فدائيتها للإسلام وروحانياتها لا يحدها حدود حين يكون البغي موجها للإسلام ورسوله.

فخبيب ﷺ الذي اختار التسليم، للمشركين الطغاة من غدار عضل والقارة، باعتبار أنه قد يُفدى من المسلمين أو يطلقه مجير من المشركين، تعامل في إطار التصور الممكن للواقع الصعب، مع فرص أمل قد تتاح، فيما مرثد بن أبي مرثد أمير الصفوة القرآنية، رفض أن يخضع لأي قاعدة تفاهم، لقوم بهذه الصورة من وحشية الخيانة والغدر وأقبل على الشهادة فنالها.

إنها نفوس بشرية رائدة عظيمة، لكنها تتعامل بذات قياسات الواقع الذي تعيشه، وترصد ما يمكن العبور منه.

الأسير المسلم الذي لا يغدر

ولكن خبيباً العظيم الذي قبل بالتعامل مع قاعدة أولئك النفر من الطغاة، وأدرك بعد تسليمه لطغاة قريش الكفار وقتله مقابل أمية بن خلف الذي هلك يوم بدر، قدّم وثيقة لا يمحوها الزمان في أخلاقه ووفائه كرجل مسلم بين العداة المشركين، حين تمكن من آلة قتل كان ممكن أن يهدد بها وبإمساك الرهينة حتى إطلاقه أو الانتقام، لكنه لم يقبل ذلك مطلقاً بل اعتبر إعطاءه الموس القاتل وإرسال الغلام، دلالة ثقة هو كمسلم يؤديها تديناً مع عدوه.

الروح المنتصرة والأحياء المنهزمون

(وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم وأخرجوه من الحرم ليقتلوه، واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قُدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟

قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي قال: يقول أبو سفيان: ما رأيت في الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، ثم قتله نسطاس يرحمه الله).

كان أبو سفيان يشعر بأن هناك فارقا أخلاقيا وروحيا كبيرا جدا بين محمد وأصحابه وبين معسكر الطغاة الكافر الذي ينتمي إليه، فسأل الصحابي زيدا ـ رضوان الله عليه ـ، في لحظة هي الأقسى في ظنه على نفس الأسير، لعله يحظى بأي مقولة تعالج عنده عقدة الهزيمة النفسية، فقال للشهيد المنتصر:

ألا تحب أن يكون محمد (رسول الله) مكانك وأنت سالم في أهلك؟

فكان الجواب صفعة قوية لكل المجتمع الطاغي، ربما تكون مما وقر في نفس أبي سفيان وساعده بعدها للتحول إلى الإسلام والنجاة من وحل الشرك المعتدي الذي قاده طويلاً.

أجاب زيد ولا بشوكة تصيب رسول الله، وينجو هو ـ أي زيد ـ من القتل أي لا أقبل أن أعيش حياة طويلة مقابل أن تصيب رسول الله شوكة في مكانه.

يا للحب العظيم

ماذا أعطى محمد رسول الله لأصحابه، ماذا أهداهم، ماذا أمطر عليهم؟

لا شيء من كنوز الدنيا ولا غنائم الأرض، ولا متاع الحياة، إنما روح هادية عادلة منيرة مستبشرة حملت إليهم رسالة الإنقاذ والهدى، وعاشت بينهم أخوة لم يمارسها أشرف النبلاء، وسعى بينهم وفيهم بالحب ومشى في صفوفهم وبين مساكينهم وهو نبي الله وصفوته من خلقه.

لقد انهزم المشركون أمام ضريح خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة الروحي، وأمام جسده المصلوب في نصب ملائكي عظيم، لا تحمله حجارة ولا خشب، ولكن قيم النصر للروح المطمئنة، على النفوس الشريرة.

والعجيب أن قضية خبيب كان المشركون يستشعرونها وبأنهم ظلمة له قساة معتدون، ولذلك ألقى أبو سفيان ابنه معاوية على الأرض حتى لا تصيبه دعوة خبيب، بحسب اعتقاد المشركين حينها أن المستلقي لا تصيبه دعوة المظلوم.

الإسلام الذي يعيد صناعة الروح

(كان عمر بن الخطاب ﷺ استعمل سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي على بعض الشام، فكانت تصيبه غشية وهو بين ظهري القوم، فذكر ذلك لعمر بن الخطاب وقيل: إن الرجل مصاب، فَسَأَلَهُ عُمَرُ فِي قَدْمَةٍ - زيارة - قَدِمَهَا عليه، فقال: يا سعيد ما هذا الذي يصيبك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما بي من بأس ولكني كنت فيمن حضر خبيب بن عدي حين قتل، وسمعت دعوته فوالله ما خطرت على قلبي، وأنا في مجلس قط إلا غشي علي).

ومع كل هذا الإرث من الشراكة الضالة لكل كافر ظالم، إلا أن الإسلام رسالة إنقاذ وفرصة مفتوحة لكل إنسان، يسعى لتأمين حياته، ويقبل رسالة العقل والوجدان التي تلتقي مع الوحي لتنقذه بالدين الجديد، ولذلك وجد أبو سفيان مكانا في الإسلام، كما أن تلك النفوس التي تلبسها الشر حينا من الزمن، غُسلت تماما حين صدقت في الإسلام.

وحين أسلم سعيد بن عامر ﷺ وحسن إسلامه - بل - تزكت نفسه، وولاه عمر بعض بلاد الشام، ارتفع لقيم الإسلام، لكن مشهد خبيب كان يعصر روحه التي أشرقت لرب العالمين، فيُصرع بين الناس، من هول ذلك النصب السماوي

وجلجلة دعائه المبين، وهي دلالة سمو الروح وصناعتها من جديد في روح سعيد بن عامر، هنا قصة الإسلام الذي لا يثأر من الإنسان ولكن يقتص من الظلم والطغيان ويفتح الباب للإحسان.

لماذا أُجلِيَ يهود بني النضير؟

(خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين «قتلهما» عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما كما حدثني يزيد بن رومان، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف، فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين، قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه.

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال: أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضوان الله عليهم. فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم، فقام، وخرج راجعاً إلى المدينة.

فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله حتى انتهوا إليه ﷺ، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم.

فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله بقطع النخيل والتحريق فيها، فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فَما بال قطع النخيل وتحريقها؟ وقذف الله في قلوبهم الرعب وسألوا رسول الله أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة، ففعل فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام).

في قضية بني النضير، هل أشارت السيرة من قريب أو بعيد بأنهم واجهوا

مصيرهم، لأنهم تعبدوا في كُنسهم، أو لأنهم باشروا حياتهم اليومية كما كانت قبل مجيء المصطفى إلى المدينة، أو أنهم أُشْعِروا أنهم يهود مبغوض بقاؤهم في المدينة.

على العكس، لم يصدر أي موقف ولا تعبير لفظي مطلقا تجاههم، بل تم تقعيد حقوقهم في ميثاق دستوري.

لكن القصة لم تقف عند هذا الموقف، فهناك أعمال حربية سرية مارسها بنو النضير، الذين لم يحاسبوا على جريمة يهود بني قينقاع بل مُنِحوا فرصتهم، ومع ذلك خططوا لأكبر جريمة وهي اغتيال النبي ﷺ رسول الأمة وقائد الدولة.

وهنا يتبين أن التدين التعبدي لأي عقيدة أو دين لم يكن سببا على الإطلاق للعقوبة ولا المفاصلة، وإنما العمل الحربي المدفوع عقائديا، من يهود بني النضير، ومع ذلك كُفلت سلامتهم وأموالهم وخرجوا آمنين، وذلك لتحقيق أمن الضرورات لمجتمع دولة المدينة وأمة الرسالة.

التصعيد الإعلامي للمنافقين

من المهم الوقوف جيدا عند حملات المنافقين الإعلامية، وحجم إثارتها للبلبلة، والاضطراب، وتخذيل المواقف بين المسلمين، ودورهم في دفع يهود بني النضير لمواجهة عسكرية، والتضليل الذي تستخدمه منابرهم لإدانة أي تحرك إسلامي مشروع في حين تختفي أصواتهم تماما عند مواقف ومعارك الغدر الكثيرة التي تضرب المسلمين وتغتالهم غدرا، بل تشمت فيهم، هي صورة متكررة في كل زمن، وخاصة عبر الصوت الإعلامي المحرض الكذاب.

عودة التوازن السياسي العسكري

كان رهان نظام الطغاة المشرك في مكة وحلفائه، من بعد غزوة أحد على أن المعركة كانت ضربة كبرى لدولة المدينة الإسلامية، وانهيارها أمام تحالف الطغاة من مشركي الحجاز إلى نجد وصولاً إلى حلفائهم من يهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله بعد غدرهم، ومن يراهنون عليهم داخل أسوار المدينة

النبوية من المنافقين، ويهود بني قريظة الذين أُستخدموا لاحقاً، في أخطر عملية تهديد من داخل الدولة الإسلامية، واجهها النبي وأصحابه.

لكن مبادرة النبي ﷺ، فاجأت المشهد القرشي وكل حلفائه، حين بادر إلى غزوات تستهدف عمق الدعم لنظام الطغاة في نجد، الظهير البشري لمشركي مكة في غزوة ذات الرقاع، ثم شمالا حتى دومة الجندل.

والعرب وقبائلهم تقرأ هذه الرسائل وتستمع لهذه الأخبار المحبطة لنظام الطغاة في مكة، حيث تبيّن بوضوح قوة مناعة الدولة الإسلامية، واستعدادها لتأمين حدودها، ومباغتة مناطق الإمداد للمعتدين، وحلفائهم.

وفي إثر هذه التحركات المدروسة الدقيقة في خارطة الجزيرة، استشعرت قريش الهزيمة السياسية وحاولت تلافي آثارها، عبر الغزوة التي سميت غزوة بدر الآخرة، حيث قاد أبو سفيان حملة عسكرية، وخرج له الرسول وجيش المدينة، ثم تراجع بالحملة، دون أن يكمل المواجهة، محتجاً بجدب الأرض، وهو ما اعتبر تعزيزاً للهزيمة السياسية، وتأكيداً لعودة القوة المؤثرة في الجغرافيا العربية للدولة الإسلامية.

وسخِرت العرب منهم وأسمت غزوتهم بذات السويق، أي الشراب الذي شربوه ثم عادوا دون حرب، والمهم هو نجاح خطة النبي ﷺ، ودلالته ظهرت في حوار مخشي بن عمرو الضمري وتثبيت حلف المشركين السلميين من قومه مع النبي ﷺ.

النبي الإنسان في وقت الحرب

(عن جابر بن عبد الله قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع من نخل على جمل لي حفيف، فلما قفل رسول الله قال: جعلت الرفاق تمضي وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله فقال: «**ما لك يا جابر؟**» قال: قلت: يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا قال: «**أنخه**» قال: فأنخته وأناخ رسول الله ثم قال: «**أعطني هذه العصى من يدك أو اقطع لي عصى من شجرة**» قال: ففعلت قال: فأخذها رسول الله ﷺ فنخسه بها نخسات ثم قال: «**اركب**» فركبت فخرج والذي بعثه بالحق يواهق ناقته مواهقة.

وتحدثت مع رسول الله ﷺ فقال لي: «**أتبيعني جملك هذا يا جابر؟**» قال: قلت: يا رسول بل أهبه لك قال: «**لا ولكن بعنيه**» قال: قلت: فَسُمْنِيه يا رسول الله قال: «**قد أخذته بدرهم**» قال: قلت: لا إذن تغبنني يا رسول الله، قال: «**فبدرهمين**» قال: قلت: لا قال: فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ في ثمنه حتى بلغ الأوقية قال: فقلت: أفقد رضيت يا رسول الله؟

قال: «**نعم**» قلت: فهو لك قال: «**قد أخذته**»؛ قال: ثم قال: «**يا جابر، هل تزوجت بعد؟**» قال: قلت: نعم يا رسول الله قال: **أثيباً أم بكراً؟**» قال: قلت: لا بل ثيباً قال: «**أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك**»، قال: قلت: يا رسول الله إن أبي أصيب يوم أُحد وترك بنات له سبعاً، فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن قال: «**أصبت إن شاء الله**»، أما إنا لو قد جئنا صراراً أمرنا بجزور فنحرت وأقمنا عليها يومنا ذاك وسمعت بنا فنفضت نمارقها.

قال: قلت: والله يا رسول الله ما لنا من نمارق قال: «**إنها ستكون فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كيساً**» قال: فلما جئنا صراراً أمر رسول الله ﷺ بجزور فنحرت وأقمنا عليها ذلك اليوم فلما أمسى رسول الله دخل ودخلنا قال: فحدثت المرأة الحديث وما قال لي رسول الله ﷺ قالت: فدونك فسمع وطاعة.

قال: فلما أصبحت أخذت برأس الجمل، فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله ﷺ، قال: ثم جلست في المسجد قريباً منه قال: وخرج رسول الله ﷺ فرأى الجمل فقال: «**ما هذا؟**» قالوا: يا رسول الله هذا جمل جاء به جابر قال: «**فأين جابر؟**» قال: فَدُعِيتُ له قال: فقال: يا بن أخي خذ برأس جملك فهو لك، ودَعا بَلالاً فقال له: «**اذهب بجابر فأعطه أوقية**» قال: فذهبت معه فأعطاني أوقية وزادني شيئاً يسيراً قال: فوالله ما زال ينمي عندي ويرى مكانه من بيتنا حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا يعني يوم الحرة).

وفي قصة جابر بن عبد الله وزواجه ودعم النبي له وممازحته، وروحه الرائعة الودودة في زمن الحرب، رسالة تعيد من جديد أخلاقيات هذا النبي

العظيم وتواضعه وروحه العطرة، ومعايشته لأصحابه بكل حب ومراعاة، فيتبسطون إليه، دون أن يمارس أي دور من الخصوصية التي تفصله عنهم وعن همومهم، ولعمرك لم يعرف التاريخ نبيا يرأس دولته كرسول الله في تواضعه وحبه لصحبه وكل أهل مدينته.

غزوة الخندق
المنعطف التاريخي للعرب والأمة

التحالف الاقليمي ضد الإسلام

(توجهت قريش والمعسكر اليهودي، إلى تجميع عدد ضخم من قبائل العرب، تغزو المدينة، وتحاصرها، في أكبر حلف حشد لقتال دولة المدينة الإسلامية، وعزمت الحملة على تصفية النبي والصحابة، وإنهاء أي جذور للبعثة والرسالة النبوية، وصلت القبائل بالفعل إلى المدينة وحاصرتها، في الموقع الجغرافي المتاح، ناحية جبل أحد، إذ أن بقية المواقع ساحات ما يطلق عليه حرة المدينة، وهي أرض صخرية سوداء، مدببة، يصعب على جيوش الغزاة السعي فيها، فوقف التحالف المعادي، عند الخندق الذي حفره المسلمون، لردعهم عند مدخل أحد).

بدأ كل أركان التحالف لطغاة المشركين واليهود المعتدين مرحلة مراجعة واسعة، بعد قراءة دلائل التوازن السياسي العسكري الذي حققته الدولة الإسلامية، وتثبيت فرص انتقال الرسالة والتبشير بها إلى جزيرة العرب.

وبالتالي هزيمة هذا المعسكر وانقلاب فرحته في يوم أحد، إلى كابوس مؤرق يُذكّر بأن وصول البلاغ ودخول الناس في الإسلام سلماً وطوعاً، لا يزال قائماً ويتعزز حين تكون سرايا رسول الله طوّافة في الجزيرة، وأصداء عدله ورحمته، وطهرانية العرب الذين يدخلون في الإسلام، مقابل طبائع الشرك والقذر المادي والمعنوي الذي تعيشه الجاهلية تنتشر أخبارها في أحياء العرب.

ولذلك قررت كل قوى التحالف الكافر المشاركة في حملة عسكرية كبرى تبيد الدولة المسلمة، وتغزوها في عقر دارها، وتستأصل رسول الهداية والرحمة.

وتفاصيل قوات المشاركين في غزوة الخندق تبين هذه الخريطة، وتوضح حجم التآمر والفجور في العداء الذي تحمله هذه القوى ضد الدعوة الإسلامية، وهي في الحقيقة قيادات تَحكُم، تمنع باقي القبائل وأفرادها من السماع لرسالة الإسلام، وتقاوم ذلك بكل طاقتها للحفاظ على مصالحها.

تحالف الكافر الحربي لا يقبل بالسلام

جاء في السيرة:

(وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاقده على ذلك وعاهده، فلما سمع كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حيي: ويحك يا كعب، افتح لي.

قال: ويحك يا حيي: إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أرَ منه إلا وفاء وصدقاً، قال: ويحك افتح لي أكلمك. قال: ما أنا بفاعل قال: والله إن أغلقت دوني إلا عن جشيشتك أن آكل معك منها فاحفظ الرجل. ففتح له فقال: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أُحد قد عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.

فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماءه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ويحك يا حيي، فدعني وما أنا عليه فإنّي لم أرَ من محمد إلا صدقاً ووفاء. فلم يزل حيّي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ).

إذن الاستعداد العسكري وبناء قوته، التي سعى لها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأركان دولة المدينة من المهاجرين والأنصار، كانت ضرورة لتحقيق العبور للرسالة الإسلامية لكل جغرافيا الجزيرة، ومن ثم للعالم حتى يستمع الرسالة، ويتعرف على نور الهداية، وحينها من شاء أن يؤمن فليؤمن ومن شاء أن يكفر فلا إكراه في الدين.

لكن هذا الترس الشرس الذي انتفض في غزوة الخندق لا يزال يؤكد إصراره على مواجهة الرسالة ودولتها الوليد الحاضن لها.

ومهمة حيي بن أخطب النضري، كانت الأخطر حين أقنع يهود بني قريظة بضرب المسلمين من عمقهم، وكان وقومه في جيش المشركين شركاء التحالف الآثم، وهي دلالة على حجم خيانة هذه الأقوام من اليهود، لرسالة السماء حيث يتحالفون مع قوى الجاهلية الكبرى والشرك، التي تنبذ رسالة موسى وعيسى ويقاتلون ويغدرون بشقيق الأنبياء وخاتمهم عليهم جميعا الصلاة والسلام.

إقرار بسلمية الإسلام وبجريمة اليهود

إن هذا النص الخطير، بين زعيم يهود بني النضير، حيي بن أخطب وزعيم يهود بني قريظة كعب بن أسد، قبل إعلان غدرهم الحربي مهم جدا لفهم الانقلاب الذي واجهه المسلمون من هذا الحي في أوج المحنة:

فهنا يقول حيي عن تحشيده لقبائل العرب:

أنزلتهم إلى جانب أُحد قد عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.

فيرد كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماءه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ويحك يا حيي، فدعني وما أنا عليه فإني لم أرَ من محمد إلا صدقاً ووفاء.

وهذا يعني إقراراً تاريخياً بصدق الإسلام وخيريته لليهود المقيمين، وأن العمل الحربي الذي شاركت فيه بني قريظة كان جريمة لا تغتفر.

جريمة بني قريظة والخيانة الكبرى

لو راجعنا وثيقة المدينة التي عاهدت اليهود والمشركين السلميين، لميثاق أمان مع المسلمين، لوجدنا أن النبي ﷺ وموالي اليهود الأقدمين من الأوس والخزرج رعوا هذه العهود مع اليهود إلى آخر مجال وبكل قوة أمينة، ولقد ذَكَّرَ السَّعدان (سعد بن معاذ وسعد بن عبادة) بني قريظة، بهذا العهد، فردوا بأوقح وأقبح رد، حين أوفدهما النبي ﷺ، للتثبت ومحاولة إقناعهم سلميا وحواريا، بالميثاق الدستوري للدولة، وعهده السلمي.

واستمر تواجد بني قريظة ضمن هذه الحياة الدستورية، دون مساس رغم خيانة بني النضير وإجلائهم، لكن عنصر الترصد والغدر الذي انتشر في يهود الحجاز غيرة آثمة من بعث النبوة في العرب، وإرث من الصراع الوقح مع أنبيائهم، استمرت تتفاعل في النفوس، وكانت مهمة قيادة التحريض لحيي بن أخطب، لكنه يدرك أن أكبر ضربة موجعة ليست في يده لكنها في يد يهود بني قريظة.

وأن الطريق إلى ذلك هو نقضهم للعهد وإعلان معاداتهم للرسول وللدولة الإسلامية من داخل حدود الدولة النبوية وفي عمق أسوارها، ومن المهم هنا أن نستحضر الحوار بين كعب بن أسد القرظي، وبين حيي بن أخطب النضري، حيث أكد كعب وفاء رسول الله للعهود وأنه لم يجد منه إلا كل خير.

وكان الحوار واضحا في دلالة خطورة العمل الذي سيشارك فيه بنو قريظة بل سيفعلونه مستقلين من داخل المدينة، مراهنة على جيش الغزاة وراء الخندق، أي أن الجريمة واضحة لبني قريظة، وواضحة للأفراد المقاتلين منهم، والرجال القادرين.

الذين كان يسعهم أن يتواصلوا مع النبي ﷺ أو مواليهم ـ حلفائهم ـ من الأوس لينضموا إليهم، أو يخرجوا من حصنهم إلى مأمن مع الدولة الإسلامية، ولا يشاركوا في عملية النقض الجماعي والعداء للمسلمين شركائهم في العهد والدار ومظاهرة القوة المشركة الغازية عليهم.

الرسول يفتح باب الاجتهاد لكل رأي

وهنا اللحظة صعبة وحرجة جداً للدولة المسلمة، حصار خانق من الخارج وغزو مترادف، وخيانة داخلية عسكرية وأمنية من الداخل عبر يهود بني قريظة، وحرب إعلامية من الطابور الخامس للمنافقين.

ويقابل ذلك حراك كبير وواسع من الرسول القائد، لتخذيل هذا المعسكر وعدم المبادرة بالزج بالقوة الإسلامية في هذه الرهانات، لمجرد اعتقاد الفداء الروحي للرسالة الإسلامية، وإن وقر قلب المؤمن على ما أعده الله له من جنته ومن شرف إيماني عظيم.

الصفقة مع غطفان والهدف المرحلي

(فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف المري وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة في ذلك.

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر لهما واستشارهما فيه، فقالا له: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به أم شيئاً تصنعه لنا؟

قال: بل شيء أصنعه لكم والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرى أو بيعاً أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا.

والله ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا).

مساحة الاجتهاد السياسي

موقف القيادة من مباركة مبادرة العزيمة، في مواجهة العدو، لا يمنع من أن الرسول القائد، يأخذ كل عدة وعدد ممكن، وهنا نجد المساحة التي يفتحها النبي ﷺ لكل اجتهاد يسعى لتأمين المسلمين من قوة حرب غادرة، ولذلك فإن رسالة تفاوضه مع غطفان مقابل ثلث ثمار المدينة، يأتي في هذا السياق الذي يعطي منهج التفاوض للمسلمين مساحة كبيرة دون خيارات المواجهة غير المتوازنة.

لكن الله قدّر غير ذلك في مبادرة ذاتية من الأنصار من الأوس والخزرج، الذين سيتعرضون لأكبر خسارة في بساتينهم وأنفسهم، لو نجح الطغاة في غزوة الخندق، فاستأذنوا النبي بكل أدب، وأدلوا برأيهم، المخالف لتوجهه، وهنا

فوضهم النبي ﷺ مباشرة الموقف، فمزقوا الاتفاق قبل عقده رسميا.

ونلاحظ هنا أن هذه الروح من الأنصار ﷺ أعطت خيار العزيمة للمسلمين لا خيار الرخصة، من ذات الشعب الحاضن للرسول ولإخوته المهاجرين، وبالتالي يكون وقْعُ القبول بخيارات المواجهة أقوى حين قررت لجنة الشورى الإسلامية، في أحياء الأنصار أخذ زمام المبادرة ورفض المهادنة مع الطغاة، وهو أكثر طمأنينة ورفعا لمعنوياتهم مع إخوتهم المهاجرين.

خطة جديدة على العرب

وفي قبول النبي ﷺ فورا مقترح سلمان الفارسي البعيد عن تصورات العرب وطبيعة حروبهم، دلالة تؤكد من جديد حجم تجاوب الرسول مع أصحابه ومع الآراء التي تطرح في أوج الأزمات، وكيف تتشكل المشاركة الشعبية في إطار مناسب لذلك الزمن، وتتخذ موقفا مهما وحيويا، والنبي بين ظهرانيهم، يوحى إليه، في حين يزعم المستبدون اليوم أن هذه الشراكة في النموذج البرلماني أو غيره ضعف للدولة وتشتيت لقوتها.

وإجمالا فإن تفاصيل غزوة الخندق تعطي دلالات متعددة على سعة قبول الرأي والاجتهاد السياسي داخل المنظومة الإسلامية، وأن مساحته هي الخطأ والصواب، لا الكفر والإيمان أو الضلال والرشاد، بحسب ما يقرره غلاة اليوم على كل من يخالفهم.

مهمة تاريخية
للمخابرات الحربية الإسلامية

(ثم إن نعيم بن مسعود أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت فقال رسول الله: إنما أنت فينا رجل واحد فخذّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة.

وكان لهم نديماً في الجاهلية فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم والبلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد

وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأموالهم ونسائهم بغيره.

فليسوا كأنتم فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه، فقالوا له: لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودي لكم، وفراقي محمداً وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عني فقالوا: نفعل. قال: تعملون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد.

وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم، فأرسل إليهم: أن نعم، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي، وأحب الناس إليَّ ولا أراكم تتهموني، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم قال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل فما أمرك؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم).

رجل واحد بخطة سياسية يغني عن حرب

إن تكليف نعيم بن مسعود في زمن دقيق وفتح المجال أمامه لأي اجتهاد يؤدي إلى بلبلة صفوف العدو، هو أيضاً من تأكيد مساحة التشريع الكبيرة في السياسة للدولة الإسلامية، وقد نجح فيها بصورة تاريخية، وهي تصنف اليوم من أعمال المخابرات الحربية الراشدة.

إن هذا المسار في مواجهة العدو في ميدان المعترك الدقيق وأمام زحف تآمري شرس نَقَض العهود، ليس ضمن مسارات المبادئ ولا الاتفاقيات الملزمة، إنما من فطنة الرأي وخدعة الحرب المشروعة.

والريح كما هو الخندق من جنود الله وكذلك الرأي الرشيد الذي ييسره الله

لعباده، وكلها أسباب أدت إلى النكسة التاريخية لأكبر تحالف طغاة واجه الدولة الإسلامية الأولى في المدينة.

ولقد ارتدت المؤامرة بسبب نعيم بن مسعود، على هذا التحالف لتضرب في معسكرهم في أوج تمترسه، وسرى بينهم وبين أعضاء تحالفهم، هزيمة الوسواس والشك الذي أطلقه نعيم بن مسعود ﷺ فيهم، بمهارة عالية، تؤكد دور الرأي الحر في صناعة الانتصارات ومغزى فتح رسول الله الأبواب له.

بنو قريظة.. لماذا العقاب الشديد؟

(وحين انكفأت قريش وحلفها، وتبينت هزيمتها، وانسحبت من الخندق، بقي المعسكر الذي أعلن رسمياً، انخراطه في تحالف عسكري ضد المسلمين داخل حدود الدولة المسلمة، التي شارك معها ميثاقها الدستوري، وهم بنو قريظة، فحوصرت وقتل مقاتلوها من كل من يطيق القتال، وكان مستعداً للعمل العسكري ضد المسلمين، وكان ذلك بعد مشورة سعد بن معاذ الحليف القديم لهم، والذي رجا أن يتراجعوا عن موقفهم من قبل، ولكنهم رفضوا وأصروا على منابذة المسلمين، من داخل دولتهم).

ما أن انتكست صفوف المشركين وولّوا إلى ديارهم يجرّون آثار هزيمة معنوية سياسية كبرى، فُتِحَ الباب إلى تحرير مكة، حتى نُدب رسول الله إلى بني قريظة، فحجم المؤامرة كبير ومعالجتها ضرورة لسلامة الأمة والدولة ومدنيّيها ورسولها وكل أبنائها.

إن هذا العقاب الذي اعتمده الرسول الهادي، هو وفقا لهذه الجريمة وظروفها، ولا يجوز أن يقاس عليها ما لا يتفق معها ومع ظرفها التاريخيّ أو السياسي، كما أن السبي يقاس أيضا بما قدمناه من مصالح الأمة ومراعاة المصلحة الإنسانية ورجاء الإيمان وليس مفتوحا لأي أحد.

والعرب اليهود من رجال بني قريظة استُثني منهم، رفاعة بن سموأل بطلب إجارة من خالة لرسول الله، وكان من الواضح خلوه من الجرم، كما أن دخول بقية بني قريظة في الإسلام وتحررهم فيما بعد هو دلالة ما بعد الحدث، حيث لم يَرْوِ التاريخ بقاءهم خارج السياق التاريخي العربي الإسلامي، وبالتالي دخلوا في الإسلام وباتوا جزءاً من أمته كما دخلت بنت حيي بن أخطب صفية في الإسلام وباتت أُمّاً للمؤمنين ﵂.

لقد بادر الأوس إلى النبي ﷺ مباشرة، ليحقق في مواليهم من بني قريظة ما تحقق في بني النضير، لكن الخيانة كانت أكبر ولم يسلم المسلمون من بني النضير، بعد إطلاقهم بأموالهم، ولكن مراعاة الجانب الاجتماعي والعصبية الإنسانية، جعل لها الإسلام مقاماً كبيراً لِما يعلم من حساسيتها بين النفس البشرية.

ولذلك أُحيل الأمر على الشهيد الحي سعد بن معاذ الذي حكم بقتل المقاتلين، وهم كل قادر على حمل السلاح في عرف العرب من البالغين، كونه تواطؤ جماعي مع سبق الإصرار ضد دولة الإسلام ونقض حربي شنيع للدستور الميدانّي.

تشريع ضد الحربي وليس لأي دين أو مدني

وليس ذلك على الإطلاق تشريعا ضد اليهود كيهود، بل نفس الحق لكل مدني من اليهود وحقوق الحرب والأسر وفتح باب الفداء مفتوحة بحسب شرائع الإسلام الإنسانية، ولكنها حالة خيانة عسكرية في زمن النبوة قُدرت عقوبتها لذاتها، ولم يستثنِ الإسلام اليهود من أي إنصاف مستحق لكل من يعدل منهم، أو يعايش المسلمين في ديارهم وهذا ما وقع بالفعل لقرون طويلة قبل تجميعهم في فلسطين والغدر بأهل البلاد الأصليين.

التفوق العسكري الاستراتيجي للأمة

غزوات ما بعد الخندق

كان من الواضح أن تحالف الطغاة المشرك في نواحي الحجاز والجزيرة وشركائهم في المعسكر اليهودي قد تعرض لضربة عسكرية نوعية في هزيمته في الخندق والخلاف السياسي الذي دب بين أركانه، وخاصة أن العرب كانت تراقب باهتمام هذه الجولة التاريخية في الصراع.

وأن انتكاسة أحد الطرفين ستؤثر عليه وجودياً، ككيان سياسي وفكري، ولذلك قال النبي ﷺ: **«اليوم نغزوهم ولا يغزونا»**، مؤكداً نجاح معادلة ما بعد الخندق، ورسالة تأديب اليهود المعتدين إلى حلفائهم، وهو ما يُعزز مناعة الأمة ودولة البعثة والتبشير.

أخذ المبادرة لتعزيز المعادلة الجديدة

بادرت غطفان وغيرها لمحاولة كسر هذه المعادلة ومنع تثبيتها، باعتداءات على نواحي المسلمين، لكنها كانت حركات قطاع طرق، وإنما تؤكد هنا أن المعسكر المشرك، يؤمن بنظرية التصفية الوجودية بين كيان المسلمين وكيان المشركين، وأنه يسعى بكل جهده، أن يفني قوة الأمة الوليدة ومنع بعث العرب الجديد برسالة السماء.

تبخرت عمليات قطاع الطرق، وبادر النبي ﷺ بحملات تواجه هذا المعسكر، أحجمت قريش المرتبكة عن أي دور فيها وكانت تراقب بقلق هذا التطور الكبير ومستقبل تحرير مكة الذي قد تواجهه في أي لحظة.

هذه الغزوات لرسول الله وأصحابه، ثبتت المعادلة ميدانيا، وعزّزت موقف

حلفاء الأمة من الكفار المدنيين، وبالتالي الاقتراب من سماع صوت الروح والعقل للرسالة بينهم، وهذا هو المطلب الرئيس للدعوة الإسلامية.

ولنلاحظ بدقة كيف تدحرجت هذه المهمة الإسلامية في صناعة الدعوة وبناء المجتمع وحماية أمنه المدني، ثم البحث عن الحلفاء المؤمنين والحلفاء السلميين، وتجنب دوائر صراع غير متوازنة، حتى استقرت الدولة وعبرت الأمة على الجودي الكبير لرسالتها.

وكيف يستعجل بعض الإسلاميين قطف الثمرة، وهم اليوم ليسوا أنبياء ولا مكلفين بعمل محدد؟ وإنما السعي في أسباب تحقيق عودة الأمة للرسالة وإقامة دولة العدل والبلاغ، بتغيير في أوطانهم، أو بإنشاء منظومة أممية متحدة، تَستخدم بدقة فرص الصعود، ولا تذهب بمواجهات غير متكافئة، فإن ابتليت بمواجه أدتّها بحقها، وهو قدر حق للأنبياء وأتباعهم، وصبرت واحتسبت.

الخلاف الاجتماعي يشتعل حتى عند الصحابة

وفي تزامن مهم جداً لهذه المرحلة التاريخية، يرسلها الباري ﷻ لحكمته، وكأنها إشارة لأهمية ضمان التوازن الاجتماعي، والاستقرار النفسي، للأمة ولأوطان المسلمين داخلياً، مع توازن القوة التي يحققها الاستعداد الحربي، في هذه اللحظة يتحرك الطابور المنافق في المدينة ليعلن تمرده الوقح.

وما جرى من خلاف واستدعاء بين مهاجري وأنصاري يثير حمية جاهلية ليست مقبولة بين المسلمين، آلمت النبي ﷺ هي تأكيد لما سبق أن ذكرناه في موضع آخر من السيرة، أن المسلمين يَرِد عليهم كما يرد على غيرهم من نزعات إنسانية او نزوات ضالة.

والحاجة إلى تصفية النفوس وتهدئتها بل ومُداراتها، في الخلافات الاجتماعية والبيئية والجغرافية، التي تشتعل اليوم وليس بيننا رسول الله، ولكن هديه وفهم كيف تتجاوز الأمة أو أوطان المسلمين خلافاتها وتنوعاتها العرقية وغيرها، دون مبالغات عاطفية أو طلبات مثالية نفوسهم لا تَقدِرها، وهي من توجيهات بل تأكيدات الشرع المطهر، آمنوا بها ولكن ليس كل الناس يطيق تصفية ذاته.

الطابور الخامس وضرورة التحييد

المهم أن استثمار زعيم المنافقين والطابور الخامس للحظة التنادي الجاهلي، تم بسرعة وبوقاحة، ولم يعد لديه مجال ليخفيها، فوصلت النبي ﷺ في وصف المجرم له وللمسلمين بالأذلة، وهذا موقف لا يحتمل التأويل.

ولذلك بيّن الأنصار موقفهم فوراً، وانحازوا إلى الله ورسوله، ومع ذلك أوضحوا للنبي دوافع ابن أبي بن سلول الغريزية المريضة، بمصارحة عجيبة، تُشعرك بمساحة حرية الرأي والشفافية التي صنعها رسول الله بين المسلمين، وفي دولة أمتهم ومواطنتهم.

سياسة إسلامية مبهرة في احتواء المجتمع

(فغضب عبد الله بن أُبَيِّ بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم: زيد بن أرقم غلام حدث، فقال: أوقد فعلوها قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما أعدّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله من عدوه فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله: «**فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»، لا؛ ولكن أذن بالرحيل وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها فارتحل الناس).

وهنا سنلاحظ قضية مهمة جدا للغاية، كيف صنعت سياسة النبي ﷺ في احتمال أذى المنافقين الخطير، وتشديده على التعامل معهم بحسب حقوق المواطنة، ما داموا لم ينابذوا المسلمين حربيا ويخونونهم علنا في السياسة، واستمر هذا المنهج وإقراره حتى وفاته عليه الصلاة والسلام.

ولذلك قال لعمر حين أراد أن يُنفّذ على ابن سلول حكم الخيانة، لا يا عمر فيتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.

يا لعظمة النظام والقائد والرسول، فهنا مساحة العفو وتقدير خواطر

المجتمع ورسائل النظام الإسلامي العادل يتم الأخذ بها في أحلك الظروف، ولذلك نضجت الفكرة بقوة لدى الأنصار، فبادر ابنُ ابنِ أُبَيٍّ بن سلول بنفسه، بأن يُنفّذ في والده الذي أوغل في الطعن في رسول الله، ولكيلا تتعاظم نداءات الجاهلية في ذاته فينتقم من مسلم نفذ عقوبة مستحقة.

وهذا لا يعني كما يعتقد البعض من تشجيع كل قريب لقطع أواصر القربى والنزوع لمقاطعته أو مقاتلته، في أي ظرف يتأوله هذا الشخص المدعي للتدين، وهو يجهل فكر الإسلام وفقهه، وأين تؤدى حقوق الأرحام، ويحولها إلى صراع مع ذويه، وهو لا يتحقق فيه ذلك، بل قد يكون الضلال من هذا الشخص المُنكر، لفهمه الخاطئ لدين الله.

ورغم جناية ابن أُبَيٍّ بن سلول وفجوره في الخصومة، لم يقبل النبي ﷺ قتله، وأقر في كل ذلك إلا في الصلاة عليه، فصحَّح الوحي موقفه وبيّن له، أما غير ذلك فقد كان هذا المنهج من الاحتواء هو المنهج الذي أقره الإسلام لرعاية المواطنة ومساحة العدالة مع المجتمع، واحتواء شعوب المسلمين وجيرانهم، والتعامل بالظواهر مع المعتدين.

وقس على ذلك في بعض الحملات الإعلامية التي يوجهها البعض لأفراد أو أقوام مسلمين، لم يظهر منهم نفاق جلي - بل - خلاف فكري، نعم هناك من هو علىً خيانة وحقد ابن أُبَيٍّ بن سلول وأشد في زماننا هذا، لكن ذلك لا يُستنسخ على كل مختلف فقهيا وفكريا فتُنصب له أحكام النفاق دون دليل بين مبين.

المجتمع يدرك خيانة الطابور

(وفَد مقيس بن صبابة من مكة مسلما فيما يظهر، فقال: يا رسول الله جئتك مسلماً، وجئتك أطلب دية أخي، قتل خطأ، فأمر له رسول الله ﷺ بدية أخيه هشام بن صبابة، فأقام عند رسول الله غير كثير، ثم غدا على قاتل أخيه فقتله، ثم خرج إلى مكة مرتداً).

لقد كان من المهم، أن يدرك المجتمع المسلم خطورة عمل الطابور الخامس، فأعلن ذلك في مواجهة موقف ابن أُبَيٍّ بن سلول وإن عَفا عنه رسول الله في عقوبة الدنيا وهلك بعد ذلك، لكن حُددت المعالم، مع تثبيت قواعد المحاكمة والمحاسبة وردم بوابات الظنون.

وهذه الأخيرة أي بوابات الظنون، عانت منها المجتمعات الإسلامية كثيرا، والحركات الدعوية والعلمية وأشعلت صراعات عديدة بينها، باتهامات واهمة فككت بنيانها وفرقت صفّها وأضعفتها أمام عدوها، حين أصبحت أمواج الشكوك تحكمها، ونحّت قول الباري ﷻ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦].

أنموذج دقيق للمرتد الحربي

وفي هذه الأثناء، تعرض مجتمع النبوة من غادر أثيم وهو مقيس بن صبابة أكرمه النبي ﷺ وقَبِل قوله وعوّضه بدية أخيه الذي قتل خطأً، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، وأعلن ردته ونابذ المسلمين، هنا يتبيّن لنا فيمن يتضح كليا فيه حد الردة الحربية، وليس تطبيق ذلك في كل شك أو خلاف عقائدي، كما بيّناه سابقا.

جويرية والأسارى المطلقون

(عن عائشة قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها: وكانت امرأة حلوة ملّاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ﷺ ما رأيت.

فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي قال: فهل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: أقضي عنك كتابتك، وأتزوجك قالت: نعم يا رسول الله قال: **«قد فعلت»**.

قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ وأرسلوا ما بأيديهم قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها).

وفي قصة أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها درس كبير أوله مراعاة النبي ﷺ لذوي الحاجات والمروءات والهيئات حين يستعينونه، وفتح باب التحرير لكل أسير، وكيف حوّل النبي ﷺ جويرية من أسيرة إلى زوجة مكرمة، ثم أطلق العرب المسلمون في دولة المدينة العرب المشركين من معسكر بني المصطلق المعادي وأضحوا أحراراً بينهم، لأنهم أضحوا أصهاراً لرسول الله.

هنا تأكيد على قضية التعامل الدقيق، مع حالة الأسر والرق وأنها ليست كتلة واحدة، وأن اختلاف المجتمعات والأطوار البشرية يلعب دورا كبيرا في أي الأحكام أنسب فيهم، وكل ما كان أوفى للعدل والإحسان فهو شريعة الرحمن.

الإفك..
الهزة الكبرى للضمير الإسلامي

(روى ابن هشام عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه كما كان يصنع فخرج سهمي عليهن معه فخرج بي رسول الله ﷺ.

قالت: وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العلق لم يهيجهن اللحم فيثقلن، وكنت إذا رحل لي بعيري جلست في هودجي ثم يأتي القوم الذين يرحلون لي، ويحملونني فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير فيشدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير، فينطلقون به قالت: فلما فرغ رسول الله من سفره ذلك وجّه قافلاً حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلا فبات به بعض الليل ثم أذن في الناس بالرحيل فارتحل الناس.

وخرجت لبعض حاجتي وفي عُنقي عقدٌ لي فيه جزع ظفار فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته وجاء القوم خلافي الذين كان يرحلون لي البعير وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه كما كنت أصنع فاحتملوه فشدوه على البعير ولم يشكّوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب قد انطلق الناس.

قالت: فتلففت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو قد افتُقدت لرجع الناس إلي قالت: فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع

الناس، فرأى سوادي فأقبل حتى وقف علي، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ظعينة رسول الله ﷺ؟ وأنا متلففة في ثيابي قال: ما خلفك يرحمك الله؟ قالت: فما كلمته ثم قرّب البعير فقال: اركبي واستأخر عني قالت: فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس وما افْتُقِدْتُ حتى أصبحت ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا، فارتج العسكر ووالله ما أعلم بشيء من ذلك.

ثم قدمنا المدينة، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة، ولا يبلغني من ذلك شيء وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبوي لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً إلا أني قد أنكرت من رسول الله بعض لطفه بي، كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرت ذلك منه، كان إذا دخل علي وعندي أمي تمرضني قال: كيف تيكم لا يزيد على ذلك.

حتى وجدت في نفسي فقلت: حين رأيت ما رأيت من جفائه لي: يا رسول الله، لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرضتني؟ قال: لا عَلَيْكِ. فانتقلت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان، حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة، وكنا قوماً عرباً لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف التي تتخذها الأعاجم نعافها ونكرهها إنما كنا نذهب في فسح المدينة، وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن فخرجت ليلة لبعض حاجتي، ومعي أم مسطح بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف.

فوالله إنها لتمشي معي إذ عثرت في مرطها فقالت: تعس مسطح، قلت: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدراً قالت: أو ما بَلَغَكِ الخبر يا بنت أبي بكر؟ قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك، قلت: أوقد كان هذا؟ قالت: نعم والله لقد كان قلت: فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي ورجعت.

فوالله ما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي، وقلت لأمي: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً، قالت: أي بنية خففي عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها.

قلت: وقد قام رسول الله ﷺ في الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق والله ما علمت منهم إلا خيراً ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي.

قالت: وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول، في رجال من الخزرج، مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ ولم تكن من نسائه امرأة تناصيني (تساميني) في المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها فلم تقل إلا خيراً، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضادني لأختها فشقيت بذلك.

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة، قال أسيد بن حضير: يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفكهم وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم قالت: فقام سعد بن عبادة ـ وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً ـ فقال: كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا.

فقال أسيد: كذبت لعمر الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر، ونزل رسول الله ﷺ فدخل علي، قالت فدعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى عليَّ خيراً وقاله، ثم قال: يا رسول الله أهلك ولا نعلم منهم إلا خيراً وهذا الكذب والباطل. وأما علي فإنه قال: يا رسول الله إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف وسل الجارية فإنها ستصدقك.

فدعا رسول الله ﷺ بريرة ليسألها قالت: فقام إليها علي بن أبي طالب فضربها ضرباً شديداً وهو يقول: اصدقي رسول الله، قالت، فتقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلا أني كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه فتأتي الشاة فتأكله.

قالت: ثم دخل علي رسول الله ﷺ وعندي أبواي وعندي امرأة من الأنصار، وأنا أبكي وهي تبكي معي فجلس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا

عائشة إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله وإن كنتِ قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده قالت: فوالله ما هو إلا أن قال لي ذلك، فقلص دمعي حتى ما أحس منه شيئاً وانتظرت أبوي أن يجيبا عني رسول الله فلم يتكلما.

قالت: وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأناً من أن ينزل الله فيّ قرآناً يقرأ به في المساجد، ويصلّى به ولكني قد كنت أرجو أن يرى رسول الله في نومه شيئاً يكذّب به الله عني لما يعلم من براءتي أو يُخبر خبراً، فأما قرآن يُنزل فيّ فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك قالت: فلما لم أرَ أبوي يتكلمان، قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ؟

فقالا: والله ما ندري بماذا نجيبه قلت: ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام.

قالت: فلما أن استعجما علي استعبرت فبكيت ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، ووالله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أني منه بريئة لأقولن ما لم يكن ولئن أنا أنكرتُ ما يقولون لا تصدقونني قالت: ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره، فقلت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجي بثوبه ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت ولا باليت قد عرفت أني بريئة وأن الله ﷻ غير ظالمي، وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سري عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقاً من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس.

قالت: ثم سري عن رسول الله فجلس وإنه ليتحدر منه مثل الجمان في يوم شات فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول: أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك، قالت: قلت: بحمد الله ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت حجش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة، فضربوا حدهم).

امتحان صعب للمجتمع

في ختام غزوة بني المصطلق تعرض الضمير الإسلامي لامتحان صعب جداً، وهزة كبيرة كان المبتلى بها بيت النبوة المطهر وبيت الشريك العظيم له بيت آل أبي بكر، واختار الله ﷻ لحكمته البالغة، السيدة عائشة رضي الله عنها، وهي الأصغر من زوجات النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ والأقل حظا لتجارب الحياة المرة، ومنعطفات ما يخوضه الناس من طبيعة الأحاديث والغمز واللمز والبهتان، الذي ساد في أروقة الجاهلية.

ولعل الله ﷻ اختار لأم المؤمنين هذه الرحلة الصعبة لمكانتها في تاريخ التشريع الإسلامي، وتبوأها موضع الصحب المجتهد، في فقه الشريعة بعد رحيل رسول الله ﷺ، حيث تعد ترجمتها ورحلتها مع النبي الأكرم، وفقهها ودفاعها عن رؤاها القائمة لفهمها لسنة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ مدرسة مستقلة، وتدلي فيها برأيها بقوة وثقة، وفقهها اليوم وبالأمس رصيد مهم جدا لتاريخ التشريع الإسلامي، فضلا عن أنها وأباها حبٌ لرسول الله.

وأن منزلتها القلبية من رسول الله وقصة حبهما العظيمة المملوءة بكل الأدب والذوق والإخلاص والوفاء، تعتبر نبراسا وقدوة لصدق المحبين، وهي قصة عاشتها رحلة النبوة المعظمة، ومع أن لرسول الله ﷺ قصة وحكمة ومواقف قدوة في كل علاقاته مع زوجاته.

إلا أن لخديجة، ثم عائشة مسار أكبر وأخص وأعمق، وكونه ﷺ مات على صدرها، وحملت بعده إرث بلاغِ عايشته، فقد هيأ الله لها هذه المنزلة، وجعل محنة الإفك تأهيلاً لها، وقدَ ختم لها فيه بالكرامة الكبرى والبراءة العظمى.

الألم في بيت الصديقين

إن حجم الألم الذي عاشه رسول الله ﷺ، والأسى الذي عاشه بيت آل أبي بكر، وخاصة السيدة عائشة، درس مهم لكل من يسير في هذه الدنيا، بهدي ورشاد وطهرانية، بأن مثل هذه المحنة لم يسلم منها أطهر البيوت فكيف بغيرهم.

إن خيانة بن أُبَيّ بن سلول هي جزء من مناهج الطابور الخامس، ولئن كان

بعض صحب رسول الله (وهم قلة جدا) تورط في ذلك ثم عوقب وتطهر وجدانه منه، فإنك تعجب كل العجب، أن يكون إلى هذا الزمان، من يستدعي هذا الطعن الخطير، والبهتان الحقير بل ويجعله من مسالك اعتقاده وتديّنه المزعوم، فيتحد مع المنافقين الأوائل وهم حطب جهنم وبئس المصير، فيطعن خاتم النبيين وبيت الصديقين.

إن الجفاء الذي وقع بين أم المؤمنين والإمام علي ﷺ وهو طبيعي في ظل جنوح اجتهاد خاطئ من الإمام في حادثة الإفك، ليس بالطعن، ولكنه من باب تحري الرأي والتعامل بنزعة الاحتياط، لم تكن لتؤثر على موضع كل منهما في مقام الإسلام وحظ رسول الله في قلب زوجته وابن عمه العظيم.

وهذا ثابت بمواقفهما، وبأن خروجها ﷺ يوم الجمل لم يكن إلا نصرة لدم عثمان، ثم عادت فورا حين أدركت مسار الحق الذي اختطه الإمام علي، وكانت محل رعايته ورعاية آل البيت، وعليه فإن الفكرة الخبيثة بالبناء الغبي على اختلاف اجتهاداتهما، وربطها بحادثة الإفك خيانة للإمام علي، ولبقية آل البيت فضلا عن الصديقين من آل أبي بكر.

وتعجب من قوم يدلون بهذا الفسق الفاجر في زوج نبيهم، وقد طهر الله أعراض الأنبياء ﷺ حتى من تغشاه الكفر من ذويه، فكيف بالصديقة بنت الصديق!

الصالحون يخطئون

ومن أهم دروس هذه الحادثة المؤلمة، التعرف من جديد على أنه حتى الصالحين يغشى مواقفهم الخطأ البيّن بل والكبير، كما هو تورط حسان بن ثابت، وكما هو موقف سعد بن عبادة والتي كادت مشاداته مع أسيد بن حضير تنتهي لفتنة، حين دافع أسيد عن عرض المصطفى ووعد بتأديب من تناوله، وهذا منعطف مهم، ينبغي فهمه فيما ورد من خلاف في السيرة والسنة بين الصحابة.

إن التقدير البشري مُعرّض للخطأ، وإنما تعبد الله المسلمين بتقليل الزلل باتباع فهم راشد ودقيق لرسالة الإسلام التي تحضه في كل موضع على أن يعقل ويفهم ويتفكر، فطبائع النفوس في كل زمان مرتبطة بتقديرات مختلفة، وقد يجنح بعضها ومجموع الأمة يصححه.

لكن لو ترك الاجتهاد للجنوح لتسبب في فساد كبير، والمسلمون مسؤولون عنه، حين لا يردّون الخطأ البيّن، ولذلك قال النبي ﷺ أول ما يُنْقَضُ من هذا الدين الحكم أي الشورى والعدل فيه، وقد جرّ ذلك على المسلمين بأساً، وهم في أول سلف للصدر الأول، بعد الراشدين.

نص التأديب المقدس

اختار الله ﷻ أن يُنزّل في ذلك، وحياً من لدنه، يحسم الأمر ويُعلن طهرانية بيت النبوة، ومظلمة السيدة عائشة ﵂ ويوقّع بآياته العظمى أحكام العقوبة، ويشدد في قضية تناول الشائعات في مجتمعات المسلمين وخطورة ذلك، وحفظ المجتمع على قاعدة اليقين لا الظن الذي يفتك به، حين يتمكن منه.

هذه القاعدة العظيمة التي تحمي المجتمع، وتحرّضه داخليا، على رفض تناقل الإشاعات، هي بذاتها ركن رئيس في فلسفة الحفاظ على البيت والبيئة المسلمة، بل وحتى من وقع منه الخطيئة بالفعل، فإن هناك تشديدا لمحاصرة نقل الرواية وفضحه، وفتح فرص لاستعادة وضعه بعيدا عن عيون الناس.

لكن مقام بيت النبوة وبراءته، ومقام بيت الصديقين وحق أمهات المؤمنين، اقتضى نزول آيات الكتاب الحكيم للدفاع عنه وعن طهرانيتهم تُتلى إلى يوم الدين.

الحديبية
فتح الإسلام السلمي الكبير

الحنين إلى البيت العتيق وصد الطُغاة

كانت أحد الأساسيات المتبقية من الحنيفية السمحاء لدى عرب الجاهلية، ألا يُصدّ أحدٌ من النّاس جاء ليتعبد، ويتحنّث عند البيت العتيق، فرغب رسول الله ﷺ بذلك، ليقصد البيت ويعتمر ويملأ ظمأه الروحي وظمأ أصحابه إلى بيت الله الأعظم.

كما أن دلائل تحول الموقف السياسي الكبير، لصالح الرسالة الإسلامية ودولتها، كان مَرجوّاً لدى رسول الله الهادي والسراج المنير أن يكون سببا في بعث الرسالة سلميا، وتبليغها لكل حيٍ ممكن من العرب، ومن أهل مكة ذاتها، دون أي رسالة حرب أو مواجهة.

فأحرم النبي ﷺ ناويا العمرة، وبعث في حلفائه ممن يرغب الرفقة، لكي تتعزز رسالته السلمية، وتأكدت مخاوف النبي ﷺ حين لقيه بشر بن سفيان الكعبي، وما نقله عن تعنت قريش وضغينتها التي تخرق كل أعراف العرب، في حنيفية إبراهيم وغيرها، وأكد لبشر مقصده، لكنه قال هذه الكلمة العظيمة:

يا ويح قريش: لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب.

وهي كلمة رسائلها مهمة جدا، وبأن النبي الكريم ورسالة الإسلام، لا تزال تجهد بكل ما أوتيت من قوة على بلاغ رسالة الإسلام سلميا، رغم كل ما جرى من نظام الطغاة في مكة، وما تسببوا فيه من سيل الدماء، وأن فكرة التصالح أو التوافق على بلاغ الرسالة سلميا في مجتمعات العرب وغيرهم، لا

تزال كما كانت حين قال لهم ذلك في أول البعثة: خلوا بيني وبين الناس.

لكن الطغاة الكفّار لا يتحولون عن عقيدة الكراهية والحقد الأعمى، ولا يراعون أي مصلحة لإنسان الحجاز العربي وباقي الجزيرة.

لقد أدركت قريش الرسالة السلمية في عمرة النبي ﷺ وتأكدت من ذلك، لكنها تخشى من الهزيمة الفكرية في أرضها، والسقوط المعنوي لهُبل وتجار المصالح من حول هذا الخرافة الحجري، وبالتالي بداية السقوط لنظام الطغاة الكافر، وانهيار فكرة الشرك التي ألغت عقل العربي ومنعته من قراءة رسالة فطرته العظمى، ودلائلها في نبوة محمد ﷺ.

إصرار عجيب من النبي على السلام

(فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة، فكلموه وسألوه ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته، ثم قال لهم نحواً مما قال لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً هذا البيت، فَاتَّهَمُوهُمْ وَجَبَهُوهُمْ، وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً وإلا تحدث بذلك عنا العرب، وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ مسلمها ومشركها لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة).

أتت خزاعة وهي حلف متين مع معسكر الإسلام ورسوله، واستمر النبي ﷺ يعزّز معنى رسالته السلمية، ولم يلتفت لموقف طغاة مكة، وخزاعة أتت تتوثق منه كونها حلفا له وحلفا صادقا أمينا.

ورواية ابن إسحاق التي أوردها ابن هشام، عن خزاعة وأمانها مسلمها ومشركها، تؤكد ما ذكرناه من تعظيم العلاقات الإنسانية في الإسلام، وأنها متصلة لا يمنعها الكفر ولا خلاف المعتقد وتقاس بالصدق والأمان والقيم الفاضلة.

(ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف أخا بني عامر بن لؤي، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: هذا رجل غادر، فلما انتهى إلى رسول الله وكلمه قال له رسول الله ﷺ نحواً مما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ).

فحملت خزاعة الرسالة مجددا لطغاة مكة، وأكدت لهم مقصد النبي ﷺ، لكن الطغاة في مكة كانوا يتزعون للحرب، فيما كان النبي عليه الصلاة والسلام يجنح للسلام، رغم كل المواجهات التي جرت، فسفهوا وفد خزاعة وبهتوهم.

وبعثت قريش (التي بدا اضطرابها رغم تعنتها) مكرز بن حفص، كموفد مباشر منها، فأكد له النبي ﷺ نفس الرسالة، ولكن لم تُقْبَل ويبدو أن قريشا بين حالة العداء والاضطراب، كانت تسعى للخلاص من هذا الموقف، لكن مع ضمان صورة هيبة تكبرها وتجبرها، وعنتها بين العرب مسلمين ومشركين على حدٍّ سواء.

حليف قريش ينحاز لقيم العدالة

(ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة ـ أو ابن زبان ـ وكان يومئذ سيد الأحابيش، وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة فلما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى.

فقال لهم ذلك قال: فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك، فغضب عند ذلك وقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم أَيُصَدُّ عن بيت الله من جاء معظماً له؟! والذي نفس الحليس بيده لَتُخَلُّنَّ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد قال: فقالوا له: مه كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به).

بعثت قريش بعدها أقوى ظهير لها في حربها مع النبي ﷺ، وهم الأحابيش، والمقصود بهم تحالف من عشائر عربية متعددة دعمتها وظاهرت النبي ﷺ معها، لتعزيز الحلف في هذه المرحلة الصعبة لنظام الطغاة، ومحاولة استخدامه لتخذيل النبي عن مقصده.

ولننظر كيف تعامل النبي ﷺ مع هذه الشخصية التي بعثتها قريش وهو الحليس بن علقمة، زعيم الأحابيش وكيف قرأ اختلافاته مع قريش واستثمرها لإيقاظ الحس العدلي والرأي الحق لديه، فالحُليس من شخصيات العرب المعظّمة لما تبقى من الحنيفية، ومع أن رسالة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ

واضحة بمقصده، لكن دفع الهدي المُقلّد بشعيرة الحجاج والمعتمرين، بين يديه وأنه لا يمكن لعربي يُقلّد هديه أن يغدر بالناس وأنها شعيرة تهدى للبيت الحرام، وحُبست عنه لعنَت قريش، كل ذلك جعل الرجل يتسمّر في موضعه، ويفهم دلالة الرسالة.

وبالتالي هنا بات زعيم الأحابيش، أمام موقف تاريخي، هل يؤازر قريش على صدها لقاصدي البيت السلميين، وهي جريمة في العرف الجاهلي، أم يسعى بثنيها عن ذلك، فاختار الثانية وتوجه دون أن يلقى النبي ﷺ لقريش، وأنذرهم ذلك، فسخروا منه واستفزوه، وهنا أعلن الحليس أن هذا ليس العهد الذي بين الأحابيش وبينهم، وأعلن انسحابهم.

فخسرت قريش وكسب النبي ﷺ من خسارتها مساحة مهمة، وقدم لنا درساً عن ثقافة استثمار القيم المشتركة للعدالة والإحسان بين الناس، وحسن بعثها والحديث عنها أمام، المتوافقين عليها، مهما اختلفت دياناتهم ومعسكرهم.

رسالة عروة وهزيمته النفسية

(ثم بعثوا إلى رسول الله عروة بن مسعود الثقفي، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال: يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً قال: وأبو بكر الصديق خلف رسول الله قاعد، فقال: امصص بظر اللات أنحن نتكشف عنه؟

قال: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أبي قحافة، قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ولكن هذه بها ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ، وهو يكلمه والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله في الحديد، فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل ألا تصل إليك قال: فيقول عروة: ويحك، ما أفظك وأغلظك، قال: فتبسم رسول الله ﷺ، فقال له عروة: من هذا يا محمد؟

قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة قال: أي غُدر وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس، فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به أصحابه وأخبره أنه لم يأت

يريد حرباً، فقام من عند رسول الله وقد رأى ما يصنع به أصحابه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فَرُوا رأيكم).

التزوير وقلب الحقائق

بعثت قريش عروة بن مسعود الثقفي، في محاولة أخرى لإضعاف موقف النبي ﷺ، فافتتح حديثه بقلب الحقائق واتهام النبي عليه الصلاة والسلام بالتطرف عكس الصورة تماما، وهو دأب الطغاة باتهام المستضعفين ورسالات العدل وبهتانهم، لكن الرد العملي كان قويا ومباشرا، وفي ذات المشهد.

من خلال ما رآه عروة بنفسه، في ابن أخيه المغيرة بن شعبة والصدّيق الأعظم، وبقية الصحبة وحجم الفدائية والحب فيهم، دون مطمع ولا رصيد مال قدمه النبي الأكرم للمهاجرين أو الأنصار، واهتز من الداخل كثيرا، ووضح ذلك من خلال مقولته لقريش، وهو الوجيه الذي طاف العالم والتقى ملوك الدنيا، فلم يجد حباً صادقاً قوياً، كحب أصحاب محمد محمدا ﷺ.

مبعوث جديد للنبي الأمين

بعد عودة عروة أخذ النبي ﷺ المبادرة، وواضح أنه كان يشجع قريشاً ويدفعها للسلام، فأرسل حليفه خراش الخزاعي، وقد كان على شركه فيما يظهر، كما أرسلوا هم حلفاءهم، ومن وقاحة وعدوانية قريش، عقروا ناقته وكادوا يقتلونه، رغم أن الرسل لا تهان ولا تقتل، هنا تدخل الأحابيش واتضح تأثرهم الجديد وابتعادهم عن موقف قريش فحموا خراش وأطلقوه.

كان واضحا الآن لدى المشهد العربي حماقات قريش، وأن النبي ﷺ أعذر إليهم وأحرجهم أمام حلفائهم من العرب، وقد كان يستطيع العودة إلى المدينة ويتجهز لحربهم، لكنه خيار مستبعد حتى الآن.

لماذا عثمان؟

(ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء

له فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها ولكني أدلك على رجل أعز بها مني (عثمان بن عفان)، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان، وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنه إنما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظماً لحرمته.

قال ابن إسحاق: فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل).

من الواضح أن النبي ﷺ يقرأ حماقات ومشاعر قريش، ورغم كل عنتهم إلا أن الهدف كان لا يزال منصوبا بين عينيه، الوصول إلى اتفاق مع مكة، ولعله ﷺ رأى تضخم غرورهم، ثم حنقهم في فشلهم أمام حلفائهم.

فبعث عندها رسالة دقيقة جداً وهي شخصية سيدنا عثمان بن عفان ووافق رأي عمر بن الخطاب فيها، وعثمان في مقامه وقربه من رسول الله، وفي مكانته من عصبية قريش الكبرى يمثل توازناً مهماً، وبالفعل حققت الرسالة مغزاها.

فشعرت قريش بشيء من الهدوء الذي أعاد لها بعض عقلها، حين أرسل لهم رسول الله مبعوث الرحم والقربى بينهم، ولكنهم استمهلوا عثمان رضي الله عنه فيما يظهر أنه مؤشر لمباحثاتهم الذاتية التي انتهت بعد ذلك لتعيين المبعوث المفوض، ولكن تسرب خبر غير صحيح للنبي ﷺ أن عثمان قد قتل.

عندها لم يعد هناك مساحة لو أن الخبر كان صحيحاً، إلا الحسم العسكري مع الطغاة، وهو ما عقده النبي ﷺ في بيعة الرضوان، ولكن سرعان ما تبين بطلان الخبر، ورجع عثمان، وبعدها تبين موقف قريش الجديد.

عقد الحديبية: الظاهر المؤلم والباطن الملهم

كان النبي ﷺ، في قمة الطمأنينة والثقة، واكتفى بالتبسم وبإجابة عروة عن سؤاله المستفسر عن أولئك الرجال، من الصحابة الفدائيين، وترك النبي ﷺ

الحوار الرئيس يأخذ مجراه، وفتح له الأفق، ليشجع قريشاً وينذرهم بلسان صاحبهم عروة، والتي بالفعل آتت أكلها، وفوضت سهيل بن عمرو المبعوث الأخير.

وكان واضحاً أن النبي ﷺ قد مُليء وجدانه تثبيتاً وعزيمة على إتمام هذا الامر صلحاً، وإن لم تكن هناك بوادر من قريش وقبل نزول سورة الفتح، ولذلك رأى محطة بروك الناقة مؤشراً لما ألهمه الله له، وتعزيزاً لقبول أي موقف بِر تخضع له قريش، ولم تكن الصورة واضحة للصحابة، الذين يتشوقون للبيت والعبادة بجانبه.

وأمام حرج موقف قريش بعثت بموفد الصلح للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهذه المرة أعطت موفدها عالي التمثيل سهيل بن عمرو التفويض لعقد الصلح، وقرأ النبي ﷺ ذلك من خلال شخصيته، التي كانت متعنتة في المقدمات، ولكنها تنزع إلى الحسم السلمي والعقل في القضايا الكبرى لهذه المنعطفات، إضافة إلى مغزى تمثيله لقريش في المفاوضات التاريخية.

صلح أكبر من مناكفات المشركين

(ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله وقالوا له: ائت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً، فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح).

بعثُ قريش سهيل بن عمرو، جاء بعد كل هذه التطورات المهمة والرسائل، وأدرك النبي ﷺ عندها أنه مبعوث سلام فعلي بعد أن انهكتهم الرسائل، استمر سهيل بإبداء بعض التعنت في اعتراضه بالافتتاح باسم الله القهار، ومقام النبوة واسمها ومع ذلك لم يوقف النبي ﷺ التفاوض، ولم يشعل العاطفة في نفوس أصحابه، ولم يقل في هذا الموضع، لماذا نعطي الدنية في ديننا.

وإنّما أمر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ علياً ﷺ بمحو ما اعترض عليه ممثل نظام الطغاة الكافر، ودخلت المفاوضات البنود الرئيسية، بنود تبدو في

ظاهرها مجحفة لكن باطنها واستراتيجيتها ملهمة تاريخية، تتقاطر منها الحكمة، ووحي الرب الرحيم يهديها السبيل.

١ ـ النبي ﷺ يستجيب لمحو مسمى النبوة من الصحيفة.

٢ ـ المسلمون يعودون للمدينة ولا يعتمرون.

٣ ـ المسلمون لا يؤوون من أوى إليهم من المستضعفين إن جاءهم مستغيثاً.

وأعيد جندل بن أبي جندل ﷺ من بين ظهراني المسلمين، ولم يوقع العقد وإنما عزم عليه، فأوفى سيد الأمانات بعقد لم يمهره ولكن عزم عليه، فكان الصادق الأمين كما عهده طغاة المشركين، وطمأن المستضعفين بفرج قريب وقد كان.

البنود المتبقية في الاتجاه المختلف

١ ـ يعود النبي ﷺ إلى مكة العام القادم، معتمرا بإقرار المشركين.

٢ ـ هدنة تعلن بينهما، والسماح لكل من شاء من العرب الدخول فيها كحليف لأحد الطرفين، ونشر رسالة الإسلام سلما (وهنا المفصل التاريخي).

٣ ـ لا حروب ولا غيلة ولا غدر، والغيلة والغدر والخيانة (كل ذلك) كان أصلا في منهج الطغاة الكفّار، لا منهج النبوة.

مفصل الاتفاق.. هو إعلان الصلح ووضع السلاح، واعتبار حالة الحرب مرفوعة، وكان النبي ﷺ مؤيدا بالوحي، يعي ذلك، وكأنه يرى فتح الله المبين له، في دلالات سورة الفتح التي نزلت بعد ذلك.

ومن المهم فهم مقولة الإمام ابن شهاب الزهري:

(فما فتح في الإسلام، فتحٌ قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووُضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلّم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، ولقد دخل تينك السنتين، مثل ما كان قبل ذلك وأكثر).

بل هي أكثر واستدلّ على ذلك ابن هشام بمقولة جابر ﷺ في عدد الجيش الإسلامي في فتح مكة.

الحديبية.. انتصارات الفكر الكبرى

لقد هيأت الحديبية لهذه النتيجة العظمى، وأطفأت برنامج حرب كان يؤثر سلبيا على معقل دولة الرسالة الاسلامية الكبرى، بعد تحرير مكة وضمها كركن كبير لدولة الرسالة، وختم العلاقة الصعبة مع الطغاة، بباب يفتح على مصراعيه لدعوة الأفراد والجماعات والعشائر العربية، إلى الدخول في هذا الدين قناعة بعقولهم، وقد كان هناك سعي لا يمل من توصيله إليهم سلماً وفكراً عبر الوئام الاجتماعي، ولكن الطغاة جهدوا في حرب الدعوة ومنع أي منبر لها.

لكن حقن الدماء الذي ظل تأثيره حتى فتح مكة رغم خرق قريش، فتح باب الخطاب والحوار المدني غير المسلح، وشكل هذه الانعطافة الكبرى في تاريخ الإسلام، وهو الهدف المركزي الذي سعى له النبي ﷺ.

كما أنه درس كبير جداً للأمة، أن السلام متى ما تيسرت سبله لتبليغ الدعوة أو جسور الدولة الإسلامية، فهو مطلب للأمة، لكن ذلك معقود بسلام حقيقي، وليس خضوعاً في مقدسات الأمة، ولا إقراراً للمعتدين عليها، كما جرى مع بيت المقدس في الزمن المعاصر، فَطُوّع المسلمون لحلف يهودي معتدٍ مدعوم من الغرب الظالم.

إننا هنا في مقام استذكار خطاب الفكر الإسلامي للبشرية، وأنه يستعين بوسائط مدنية وسلمية، ويوضح لكل الشعوب مقاصده، وليس مباغتة الناس بالقتل والحرب، وهم لم يبلغهم خطاب ربهم، أما الأمم والدول المعتدية، فإن علاج حروبها يحتاج بالقطع إلى القوة والحزم، وفي بعضها يكون أقرب الطرق للسلام (الحرب العادلة)، لدفع الظالم والمعتدي، وتأمين الإنسانية.

لقد بدأ تحول العرب إلى أمة الرسالة يظهر مع فتح الحديبية، ولم تؤثر عليهم حروب الردة، حيث استعادوا وضعيتهم فوراً بعد حسم أبي بكر، وأضحوا يستشعرون معنى حملهم للرسالة، وأمانة البعثة الكبرى.

العودة لغدر خيبر

ضرورات الأمن للرسالة

(ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم، وولي تلك الحجة المشركون ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر؛

عن أبي معتب بن عمرو: أن رسول الله ﷺ لمّا أشرف على خيبر قال لأصحابه ـ وأنا فيهم ـ: قفوا، ثم قال: اللهم رب السماوات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، اقدموا بسم الله. قال: وكان يقولها ﷺ لكل قرية دخلها.

وكان رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عصر، فبني له فيها مسجد ثم على الصهباء، ثم أقبل رسول الله بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ.

فبلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله من خيبر؛ جمعوا له ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا ساروا منقلة؛ سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حساً ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أهليهم وأموالهم، وخلوا بين رسول الله وبين خيبر.

وتدنى رسول الله ﷺ الأموال يأخذها مالاً مالاً، ويفتتحها حصناً حصناً، فكان أول حصونهم افتتح. . (حصن ناعم) وعنده قتل محمود بن مسلمة، ألقيت عليه منه رحىً فقتلته. ثم (القموص حصن بني أبي الحقيق)، وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا، منهن صفية بنت حيي بن أخطب ـ وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ـ وبنت عم لها فاصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه.

ولما افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم ما افتتح، وحاز من الأموال ما حاز، انتهوا إلى حصنيهم (الوطيح والسلالم) وكان آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة).

(ونزلت كل حصونهم المتبقية على الصلح، حيث أعطاهم إياه النبي ﷺ وضمنوا سلامتهم وحريتهم وسلامة أهلهم وحريتهم، ثم عرضوا على رسول الله أن يتولوا إصلاح الأرض عمالاً عند المسلمين، بدلا من المسلمين، فوافقهم).

من بعد صلح الحديبية، توجه النبي ﷺ إلى إنهاء الملف المعلق والخطير، وهو ملف يهود بني النضير في خيبر، الذين سُمح لهم بحمل أموالهم وخرجوا سالمين بعد معاداتهم للنبي ﷺ وللدولة المسلمة، وتحالفهم الشرس مع نظام طغاة مكة.

ورغم التسامح الذي أُعطوه، وتمكينهم من أموالهم المنقولة، نظموا حملة غزوة الأحزاب واستقطبوا بني قريظة من داخل عمق دولة النبوة فكانت خيانتهم المعروفة، التي تحدثنا عنها سابقاً.

وأخّر النبي ﷺ خيبر لما بعد إنجاز الهدنة مع طغاة مكة، فكانت فرصة أقوى وأكبر، لمواجهة هذه الحصون اليهودية، المتحصنة في ظهر الحجاز، وهو قلب الجزيرة العربية الروحي، وبوابتها إلى بقية العرب، وكانت مهمة صعبة لقوة تحصيناتهم، المعروفة عند اليهود، ففتح الله للمسلمين بقيادة الإمام علي ﷺ، أقوى حصونها.

الرسول الأعظم يقبل الصلح

ورغم أنه كان بالإمكان أخذ بقية الحصون المتمنعة بذات المحاربة، إلا أن رسول الله شرع لأمته قبول الصلح، وتم بالفعل تأمين سلامة أهالي بقية حصون خيبر وفدك، وسمح لهم بالخروج لكن هذه المرة، ليس بأموالهم التي استخدموها بالغدر بالمسلمين، وإنما بسلامة حياتهم من الأسر، وصدر لهم إطلاق جماعي كامل.

وحين عَرضوا أن يكونوا موظفين فيها على الأرض الزراعية، وافق النبي ﷺ ومنحهم ذلك، وهو ما أعطاهم فرصة استقرار، وهنا نتحدث عن مجتمع محارب في مفصلين خطيرين عاشتهما دولة الرسالة، وأمن شعبها، وليست حربا عابرة ولا غزوة خارج محيط الدولة الإسلامية.

إن مسألة تأمين محيط الدولة الإسلامية ضرورة كبرى، فالتضحيات التي قدمها المسلمون بعد كل الاتفاقيات وميثاق المدينة الدستوري، كبيرة جدا، ولا يُمكن أن تُعرّض دولة الرسالة والبلاغ (والتي ستتوجه إلى باقي الجزيرة وإلى العالم حاملة دعوة الإنقاذ للبشرية) للمخاطر، وتترك مكشوفة الظهر من أولئك الخصوم المتربصين.

العودة للأصل السلمي في الأسارى

إن الإطلاق الجماعي، لأهالي القرى التي مكّنت المسلمين من حصونهم، رغم قدرة المعسكر الإسلامي على نزعها بالقوة، إطلاقاً جماعياً شاملاً، يعيد التأسيس لما ذكرناه أن الإسلام ينزع إلى ذلك التأمين للحريات، متى ما فتح له

باب في ذلك، وإنما حين يُقدّر الأمر لإبقاء الأسرى يتم رهنهم في المجتمع، ويفتح لهم باباً للدخول في حياة الإسلام الجديدة، ثم يطلقون أو يُكاتبون، أي يؤدون الفداء المالي لأنفسهم.

ولكن عبر تعامل النبي ﷺ وما يُرشد إليه في الصدر الأول، وليس ما انتشر بعد ذلك وفيه دخن كبير، ولذلك فسلامة حرية الأسرى حين يضمن الأمن منهم هو الطريق المرجح، وإبقاء مقاتليهم المخشي منهم في دائرة التبادل أو الفداء بحسب المصلحة، ولا يحوّلون للعبودية إلا في ظرف قادر على حماية حقوقهم، وهو ما يصعب في هذا الزمان، فضلا عن ظروف كل عصر وطبيعته.

واستخدام العقوبة المشددة المستحقة قانونياً على العدو الخائن، يفتح الطريق لتأمين سلمي لمن بعدهم، لكن طبيعة النفس البشرية حين يفوتها الهدي الرباني، وخيار الخير والسلم، تنزع لمواقف عدائية أكثر فداحة، واستعراض شخصيات الطغاة وتحول المجتمعات إلى رديف حرب متطرف، يعيث في الأرض حرباً دموياً وفساداً، يؤكد على دلالة هذا الأمر.

التحريف في المعتقد اليهودي ونزعة الفتن

كل مجتمع إنساني، فيه شِقي الخير والشر، والوحشية والإرهاب ليست مرهونة بأي دين دون سِواه، وإنما يَسلم منها بالضرورة من وافق تعاليم الدين الحق الذي ارتضاه الله لأهل الأرض وهو الإسلام، في أصوله المشتركة بين كل رسالة سماوية.

وعندما يضل من ينتسب إليه ويفعل ذلك الإرهاب، كما سواه فهو يدان ولا ينقذه إسلامه، وقراءة تجارب التاريخ حتى عهدنا المعاصر، يظهر كوارث كبرى، ارتكبتها ممالك الغرب في ذواتهم، وفي المسلمين واليهود، وحروب أمم أخرى.

وهذا لا يَعذر أو يُزكّي أي طرف مسلم تورط في جرائم حرب، فلم يقبل النبي ﷺ قتيلاً واحداً في مكة، على يد سيف الله المسلول خالد بن الوليد، فكيف لا يغضب لعشرات أو مئات أو آلاف من المدنيين أو الأسارى، قتلهم ظلما أحدٌ من المسلمين؟! ولا تقبل حجته بأن كفاراً من هذه الناحية أو تلك قد قتلوا المسلمين ظلماً، فينتقم لأبرياء مسلمين بأبرياء كفار!! فلا تزر وازرة وِزْرَ أخرى.

لكن هناك تزوير تاريخي منهجي، وتلاعب في قاعدة تقييم الموقف ونظريات العدالة في التاريخ البشري، وانخداع بالمظهر دون تحقيق، مصطلحات الحقوق عملياً في إسعاد للبشرية والمستضعفين.

وهنا تتناول السيرة قضية إثارة اليهود كتكتل ديني منحرف، ومُحرِف، وليس كمسؤولية لأفراد أو جماعات تعتنق هذا الدين، وقد سبق للمسلمين شراكتهم وطنياً واجتماعياً في بلدان عديدة، حيث استقرت شراكتهم المدنية قروناً طويلة من بعد البعثة، وتم إيواؤهم عبر المسلمين من جرائم النازية في أوروبا، وجرائم قبلها.

لكن الحالة اليهودية استخدمت من القوى المعادية للمسلمين وحقوقهم، باستقطابهم في مشروع وغزو مُعادٍ في فلسطين ومناهض لأرض المسلمين، وتمكين مشاريع عديدة من قبل هذه الجماعات الصهيونية أو المتطرفة من اليهود، ولا يعمم ذلك على كل يهود العالم.

واعتناء آيات الذكر الحكيم، بطريقة تفكير وخبث التدين اليهودي المنحرف، لم تأت عرضاً، وإنما في سياق مهم يتحدث عن مستقبل البشرية، ودور اليهود المنحرفين فيها، لكن ليس من خلال توجيه المسلمين ضدهم إنسانيا.

بل على العكس، حفظ الإسلام كرامتهم الفردية، وإنسانيتهم في المجتمعات، لكن السوء يظهر من خلال فلسفة إيقاد الحروب التي نعيشها إلى اليوم، وإنذارهم وتذكيرهم بتجاربهم السيئة مع الأنبياء، وضرورة فكاكهم عن عين الحسد والتحزب دون البشرية، وأن الدين الحق ليس ميراثاً عنصرياً أو مجتمعياً، ولكنه رسالة نجاة لمن يؤمن بها.

هنا تتضح هذه السياقات من خلال ما يعانيه العالم بل واليهود جرّاء خيانة وغدر كتلة دينية منهم، تنسج صناعة المجتمعات من عهد خيبر إلى اليوم بذات السياق، من خلال توارث فكرة التآمر الديني الداخلي ونقلها عبر التاريخ.

في المقابل فإن هناك نفاقاً من الحالة المسيحية السياسية المعاصرة، التي تُحمّل المسلمين آثار جرائمهم الحربية، ضد المدنيين اليهود في العهد النازي وما قبله وسلوكهم العنصري ضدهم، فيما معركة المسلمين معهم، معركة مفاهيم الوفاء لدين الحنيفية الإبراهيمي في كل العصور، لكي يعودوا إلى ميثاق

الحق الذي ارتضاه الإله الخالق الحق، ويُبشّر بدينه الحق الذي أرسل به أنبياءه، لا بتحريفات قتلتهم.

النبي يعفو عن قاتلته اليهودية

(فلما اطمأن رسول الله ﷺ بعد خيبر، أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله فقيل لها: الذراع فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع فلاك منها مضغة، فلم يسغها.

ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله، فأما بشر فأساغها وأما رسول الله ﷺ فلفظها ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر، قال: فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بشر من أكلته التي أكل).

ولا يوجد في التاريخ البشري أبداً أقوى من هذا الدليل على إنسانية الإسلام، وأن هدف رسالته إنقاذ البشرية، ومستوى لعفو إنساني أعظم من قصة زوجة الزعيم اليهودي سلام بن مشكم، حين سمّمت الشاة التي أعدت له ومضغها، فلفظها، في حين ازدردها صاحبه واستشهد، وجعل هذا الوجع الذي أُصيب به النبي ﷺ من هذا السم يتفاقم، حتى ارتفع للملأ الأعلى، ليكتبه الله نبيا شهيدا.

وقد أوحيَ لهُ فيها ـ أي كُشفت تماماً ـ وأُحضرت فسألها ﷺ، فذكرت أنها تبحث عن حقيقة نبوته، ورغم فداحة الجريمة والحماقة، إلا أن النبي ﷺ عفا عنها، وأطلقها.

فأي روح هذه... أي نفس طاهرة.. أي إنسانية معجزة!

هنا يتبين عدل النبوات ومصداقية الإسلام، وهدف تعامله مع البشرية وسلوكه الذي لا نظير له في التاريخ الإنساني.

صلاة الفجر تفوت النبي العظيم

(لما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر فكان ببعض الطريق قال من آخر الليل: من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام؟ قال بلال: أنا يا رسول الله أحفظه عليك، فنزل رسول الله ونزل الناس فناموا، وقام بلال يصلي فصلى ما شاء الله ﷺ أن يصلي، ثم استند إلى بعيره واستقبل الفجر يرمقه فغلبته عينه فنام، فلم يوقظهم إلا مس الشمس، وكان رسول الله ﷺ أول أصحابه هب فقال: ماذا صنعت بنا يا بلال؟

قال: يا رسول الله أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، قال: صدقت، ثم اقتاد رسول الله ﷺ بعيره غير كثير ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى عليه الصلاة والسلام بالناس، فلما سلم أقبل على الناس فقال: إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾) [طه: ١٤].

في هذه الرحلة المرهقة، يوصي النبي ﷺ أحد أصحابه بإيقاظهم لصلاة الفجر، المعظّم مكانتها وميقاتها، فينام بلال ولا يُفيق رسول الله إلا من حرارة الشمس، فيسأل بلالا، ويعتذر له بالتعب، فلا يعتب ولا يثرّب، ويتحول عن مكانه ويصليها وأصحابه.

رسول الله تفوته صلاة الفجر؟

نعم تفوته فهو بشر، كما أن هذه العبادات المعظمة التي وردت فيها أحاديث التشديد للترغيب وعدم هجرها.

في ذات البلاغ الإسلامي والنص القرآني المقدس، معذرة للمؤمنين في فواتها وغيرها، ومن غير الأنبياء أولى، وبعض ما يفوتهم من العبادات، نعم قد حرّض الإسلام المؤمنين على اغتنام الخيرية في العبادة، وأداء واجباتها، وحذرهم من النكوف الكلي عنها.

لكنه دين قام على المغفرة، وتقدير طاقة الإنسان فلا يُحصر الناس بوعيد لا يمثل تكامل الإسلام، بل نظرته الكلية للإنذار والندب للعبادات والإعذار وطلب المغفرة، فما بالك إذا كانت مثل هذه العبادات يُشدد في فواتها وينكر ويحاصر الناس عليها، دون تشجيعهم على تجاوز التقصير، ويعتذر عن الظلمة والطغاة في حقوق البشر وأموالهم وكرامتهم!.

الاحتفال برهط الحبشة

(عن الشعبي: أن جعفر بن أبي طالب ﷺ قدم على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر، فقبّل رسول الله بين عينيه والتزمه وقال: لا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَفْرَحُ، بِفَتْحِ خَيْبَرَ أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ).

كانت مشاعر عظيمة تلك التي أظهرها النبي ﷺ برهط الحبشة، فمع الوجدان المشتاق لأهلهم في الإسلام والكفاح، وأرحامهم القرشيين، وخاصة ابن عمه جعفر الطيّار، الرمز التاريخي للفداء وتحمّل المسؤولية بين رسالة الحبشة وبين يوم الوغى، حيث ثبتت الراية بين عضديه وهي تشخب دما، فخلّدت في الدنيا بمداد من نور ودم، شهيدا فدائياً صلباً في رحاب الخالدين.

مع فرحه بجعفر ورهطه، فقد كان رسول الله ﷺ يُعلن للمجتمع الجديد نجاح هذه المهمة الصعبة التي قام بها وفد المهجر الأول خارج الجزيرة، وتحقيقه لعلاقات دولية وإقليمية نوعية، تمهد للتواصل مع شخصيات العدل في الإنسانية وخاصة من ميراث المسيحية، للقيام بأمر الدعوة وبلاغ الرسالة.

وهذا يعني أن ـ النبي ﷺ ـ اعتبر الكفاح الدبلوماسي والسياسي ـ كما في نصٍ آخر ـ كمشاركة الجهاد الشرعي ضد الطغاة المعتدين فيُكتب لهم الأجر حيث راحوا أو غدوا، وأن هذا المنهج والمسلك من خيارات العمل الإسلامي قبل الدولة وبعدها، فأظهر تحيته للوفد الذي استُبقي في الحبشة حتى ضمان تأمين معقل الدولة الجديد وشعبها من تهديد الطغاة.

النجاشي: الحاكم العدل والمسلم الأمين

ولكن شخصية النجاشي كانت أكبر من هذه الدائرة، فلم يكتفِ في مسيحيّته برعاية المسلمين المضطهدين اللاجئين، في أرضه وفي نفوذه، ولكنه ولّى وجهه نحو نداء الإسلام الجديد، وأعلنه لرسول الله وأهداه عربون حبه وولائه.

وأبقى النبي ﷺ الأمر سراً، لأن حركة التطرف المسيحي القوية في الحبشة والتي تدافع عن عقيدة الانحراف التي شوهت رسالة المسيح، سيتعزز تآمرها ضد النجاشي، لو سُرِّبَ الخبر وبعثت به قريش لجواسيسها.

وهي دلالة مهمة لحجم تشريع السلوك السياسي الذكي، وغربلة الموقف

في الشريعة الإسلامية والحفاظ على الحلفاء، وعدم تحميلهم مالا يطيقون، وخاصة عدم الانجرار وراء الضجة الإعلامية، التي نراها اليوم تُهيمن على خطاب الوعظ الإسلامي وقد تنقل خبراً خاطئا أو تضخّم مالا يستحق، ثم يأتي الخبر الواضح فيفتتن الناس.

نعم هناك حاجة ضرورية، لاستخدام الخطاب الإعلامي وحسن توجيهه، وهو سلاح فعّال، لكن بانضباط ومصداقية ودون تخطي شرط التثبت والتبيّن القرآني الخالد.

عمرة القضاء.. لقد أنجزت الرسالة

(فلما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من خيبر؛ أقام بها شهري ربيع وجُمَادَيْن ورجباً وشعبان وشهر رمضان وشوالاً، يبعث فيما بين ذلك من غزوة وسراياه ﷺ ثم خرج في ذي القعدة في الشهر الذي صده فيه المشركون معتمراً عمرة القضاء مكان عمرته التي صدوه عنها، وخرج معه المسلمون ممن كان صد معه في عمرته تلك وهي سنة سبع، فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه، وتحدثت قريش بينها أن محمداً وأصحابه في عسرة وجهد وشدة).

مرّ العام الأول لاتفاق الحديبية، وجاء موعد أول شروط العهد لصالح المسلمين، فتوجه النبي ﷺ للبيت العتيق، ودخله آمناً مطمئنا كما وعده ربه، مظهراً قوته وقوة أصحابه دون بغي ولا فتنة، ونظام الطغاة الكافر في مكة مرغم، للوفاء فحققت عمرة القضاء رسالتين مهمتين، الأولى أن النبي ﷺ حقق شرطه بكل طمأنينة، والتزم دون أي إثارة ضد المشركين رغم وقاحة النظام الحاكم في مكة.

والثاني كسر هذا الحاجز والتواصل المدني مع مكة، ونقل هذا المشهد المهم لكل جزيرة العرب، ثم العودة إلى دولته ومعقله، ورغم حجم الغل الذي مارسه نظام الطغاة.. فقد تعامل الرسول ﷺ بأريحية عظيمة، وأشار لهم حين خطب ميمونة بنت الحارث، دعوني أتزوج بها في مكة، في تعزيز للرحم والعلاقات بين المسلمين ومجتمع مكة، فرفض الطغاة وأصروا عليه بالخروج، لكن الرسالة وصلت لمجتمع مكة، وهو ما ساهم في تفكيك ترسانة التطرف وخلخلتها قبل الفتح المبين.

الغربُ القديم في مؤتة

(بعث رسول الله ﷺ بعثة إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس).

كانت كل الظروف تشير إلى أن فتح مكة أصبح قاب قوسين أو أدنى، وكان النبي ﷺ يتطلع بكل وجدانه وعقله، أن يتحقق سلماً دون هدر الدماء، رغم رسائل التعنت والتعصب الشرس من نظام الطغاة في مكة.

وكان المشهد يتوجه لمتابعة وضع مكة، وتحويل صلح الحديبية إلى اتفاق، يخضع به نظام الطغاة، إلى عودة أصحاب رسول الله إلى البيت العتيق، وتبليغ الدعوة من مهبط الوحي، والموضع المقدس لأبي الأنبياء إبراهيم الخليل، وأبنائه الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

فلماذا يتوجه النبي ﷺ إلى شمال الجزيرة، معقل نفوذ الروم وهم الغرب القديم، الذي نعيش تحت تأثيرات تدخلاته إلى اليوم؟

كان النبي ﷺ يتعامل مع فتح مكة كأمر قادم لا محالة من خلال قراءة موعود ربه، ولكن مع بذل كامل الأسباب، وعدم التسرع في أي مرحلة، فماذا كان يعني فتح مكة في ذلك الوقت؟ ومن الذي يترقب المشهد من القوى الدولية؟.

العرب وإعلان الأمة الجديدة للعالم

لم يكن هرقل ولا القصر الأبيض الضخم بأعمدته، في ذلك الحين يعطي أي اهتمام للعرب كقوة منافسة، ولكنه أيضا لم يكن غائباً فهو يستخدم تخوم الجزيرة كحديقة خلفية لنفوذه، ويُعيّن عملاء يشرفون على هذه المنطقة، ويتابع عبرهم أخبار مكة، كبيت مُقدّس للمسلمين وحراك مجتمعها، الغارق في صناعة الشرك البلهاء، وحميّات التعصب التي تطحن العرب.

لكن الأنباء الجديدة، تطورت بصورة كبيرة، فالعرب يقتربون من مبايعة وعهد جماعي لرسالة الأنبياء وحضارة الإنسان، ليتوجهوا بها للعالم، وتلك الأقوام الجاهلية التي يسخر منها الغرب القديم، ويُسخرّها، باتت تطرح رؤية عن الكون والحياة، والكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية، وأخطر من ذلك باتت تتشكل كأمة، لا قبائل شتّى متفرقة.

وبقي هذا الترصد والمتابعة قائما لدى الغرب القديم، والدليل رسالة هرقل لمعاوية بن أبي سفيان حين خرج على الإمام علي في دم عثمان بن عفان ﷺ، وعرض عليه دعمه ضد الإمام علي الخليفة الرابع للمسلمين، لاستغلال خلافاتهم، ولكن رد معاوية كان حاسما ضد الروم.

وكان الرسول الهادي يدرك سر متابعتهم، وأن إعلان انضمام مكة للأمة، يعني بدء تاريخ العرب الجديد، وبالتالي سيتحرك الغرب القديم ضد قرار الاستقلال للأمة المحمدية، وتأثيراته على حرية البشرية ونفوذ الغرب القديم، كما الفرس.

وهنا يظهر أحد أسرار غزوة مؤتة، ولقد كانت قناعة العرب مقابل أمتهم الجديدة كبيرةً بعد الحسم، لدرجة أن مسيحيي تغلب وغيرهم، كانوا يشعرون برابطة الأمة مع المسلمين، أكثر من الغرب النصراني، ولذلك قالوا لعمر ندفع الزكاة كما يدفعها المسلمون رغم أنها أكثر تكلفة من الجزية، فأذن لهم عمر بعد أن خيّرهم.

ملحمة الشهادة

(فتجهز الناس ثم تهيأوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف فلما حضر خروجهم ودع النَّاسُ أمراءَ رسول الله ﷺ وسلموا عليهم، فلما ودع عبد الله بن رواحة من ودع من أمراء رسول الله، بكى، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله ﷻ يذكر فيها النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؛ فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي أرشده اللّه من غاز وقد رشدا

ثم خرج القوم فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا ودعهم، وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة:

خلف السلام على امرئ ودعته   في النخل خير مشيع وخليل

ثم مضوا حتى نزلوا معان في أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلي مائة ألف منهم عليهم رجل من بلي ثم أحد إراشة، يقال له: مالك بن زافلة، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله فنخبره عدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له.

فشجع النَّاسَ عَبْدُ الله بن رواحة وقال: يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون (الشهادة)، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة، قال: فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة، فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف.

ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة فالتقى الناس عندها، فتعبأ لها المسلمون فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عذرة يقال له: قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له عباية بن مالك، ثم التقى الناس واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله حتى شاط في رماح القوم.

ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال، اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم قاتل القوم حتى قتل، وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها   طيبة وبارد شرابها

والروم قد دنا عذابها   كافرة بعيدة أنسابها

عليَّ إذ لاقيتها ضرابها.

قال ابن هشام: وحدثني من أثق به من أهل العلم: أن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء، ويقال إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين.

قال ابن إسحاق: فلما قتل جعفر، أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزِلِنَّ ... لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة ... ما لي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة ... هل أنت إلا نطفة في شنة

وقال أيضاً:

يا نفس إلا تُقتَلِي تموتي ... هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلي فعلهماهديت

ثم نزل فلما نزل أتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال: شُدَّ بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسة ثم سمع الحطمة في ناحية الناس فقال: وأنت في الدنيا، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل).

وجّه رسول الله ثلة من الصحب المبارك ومن جيش الأمة إلى مؤتة، وكما توقع النبي ﷺ فقد استنفر الغرب القديم عدته، وأرسل قواته العسكرية الخاصة، إضافة إلى جيوش عملائه في شمال الجزيرة، وإن كان هذا العدد الضخم، فوق توقع النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه فيما يظهر.

فقرر الجيش وقيادته الفدائية الالتحام، في عطاء روحي من أروع قصص التاريخ، ثلاثة يفدون راية رسول الله من أخص أصحابه وأعطرهم ذكرا وفيهم جعفر الطيّار، وما أدراك ما جعفر.

سيف الله المسلول في أول اختبار

(ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم قالوا: أنت قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم ثم انحاز وانحيز عنه، حتى انصرف الناس).

وكان من الطبيعي أن يرتبك الجيش المسلم، بعد استشهاد القادة الثلاثة الذين عيّنهم رسول الله ﷺ، وفي لحظة حرج كبرى تساءل المسلمون بين الكر

والسيف، عمن يقوم بالقيادة فتقدم لها خالد بن الوليد، وقد كان حديث إسلام، وأثبت في توقيت ومعركة حرجة وفاءه للأمة الجديدة ولإسلامه.

ذكاء القيادة الحربية مطلب

وأهم عنصر ممكن أن نستفيد منه، في نجاحات خالد ﷺ هو ثناء النبي ﷺ عليه في تغيير خطة الجيش كليا، في الميدان القتالي، فقد غيّر خالد ميمنته وميسرته، وبدّل صفوفه مع صمود كبير في ميدانه، حتّى بلغ توقيت وضع السلاح المعتاد بين الجيوش عند مغيب الشمس، فشعر الروم وعملاؤهم، بأن قوة الجيش المسلم تغيّرت وأظهرت بأسا.

وقبل أن يكتشفوا الواقع في فجر اليوم التالي، انسحب المسلمون من مواقعهم، في غير هزيمة عسكرية، خاصة أن الهدف هو انذار تخوم الجزيرة ومعسكرات الغرب القديم، من التدخل، فتحقق للمسلمين الهدف، بدماء الفداء العظيم وبحنكة القائد الحربي الملهم.

وإجمالاً.. فإن نوعية التفكير، وتقدير الأولويات في مصالح الجيش الإسلامي والأمة، تتوجه في السيرة النبوية إلى هذا المسار، وهو تحقيق أكبر قدر من النصر بأقل كلفة من الضحايا، وهذا لا يُغيّر من ندب الإسلام وشريعة القرآن للشهادة والفداء، ولكنه يهندسها، بوعي راشد، لا اندفاع عاطفي معزول عن الهدف التنفيذي ومصالح النصر.

وخروج النبي ﷺ في استقبال الجيش لاحتضان ذوي الشهداء وأطفالهم، ولتحية خطة النصر، التي أنجزها خالد، هي مشاعر ثائرة للقادة الثلاثة، لكن القلوب الصابرة سيأتي موعدها، لتحيي ذكراهم في ليلة النصر الكبير على هرقل والغرب القديم، ولو بعد حين، في خلافة أمير المؤمنين عمر الفاروق.

مكة
فتح السلام الكبير

قريش تنقض الصلح وتستبيح الدم

(ثم إن بني بكر بن عبد مناة بن كنانة عدت على خزاعة، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له: الوتير، وكان الذي هاج ما بين بني بكر وخزاعة، أن رجلاً من بني الحضرمي واسمه مالك بن عباد وحلف الحضرمي يومئذ إلى الأسود بن رزن خرج تاجراً، فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه، وأخذوا ماله فعدت بنو بكر على رجل من بني خزاعة فقتلوه، فعدت خزاعة قبيل الإسلام على بني الأسود بن رزن الديلي وهم منخر بني كنانة وأشرافهم سلمى وكلثوم وذؤيب فقتلوهم عند أنصاب الحرم.

فبينا بنو بكر وخزاعة على ذلك حجز بينهم الإسلام وتشاغل الناس به، فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش كان فيما شرطوا لرسول الله وشرط لهم: أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده.

فلما كانت الهدنة اغتنمها بنو الديل من بني بكر من خزاعة وأرادوا أن يصيبوا منهم ثأراً بأولئك النفر الذين أصابوا منهم ببني الأسود بن رزن، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في بني الديل وهو يومئذ قائدهم وليس كل بني بكر تابَعَهُ حتى بيت خزاعة وهم على الوتير ماء لهم فأصابوا منهم رجلاً وتحاوزوا واقتتلوا، ورفدت بني بكر قريشٌ بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً حتى حازوا خزاعة إلى الحرم.

فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك فقال: كلمة عظيمة لا إله له اليوم يا بني بكر أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه، وقد أصابوا منهم ليلة بيوتهم بالوتير رجلاً يقال له منبه وكان منبه رجلاً مفئوداً خرج هو ورجل من قومه يقال له تميم بن أسد وقال له منبه: يا تميم انج بنفسك أما أنا فوالله إني لميت قتلوني أو تركوني لقد أنبت فؤادي.

وانطلق تميم فأفلت وأدركوا منبهاً فقتلوه، فلما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء ودار مولى لهم يقال له رافع، فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة وكان في عقده وعهده خرج عمرو بن سالم الخزاعى ثم أحد بني كعب حتى قدم على رسول الله ﷺ).

رغم أن ميزان الحرب، لم يعد مطلقاً في صالح نظام الطغاة الكافر في مكة، وأضحت حصيلة التقدم الإسلامي العسكري والسياسي محاصِرة لهم، لكن طبيعة هذا النظام وفكرة الطغيان الغادر تعود لهم، فلم يكتفوا بموافقة بني بكر، على نقضهم الهدنة مع خزاعة، حيث أن نظام العهد الذي أقرّته الحديبية، يسمح لكل قبيلة باختيار حليفها بين الطرفين، وتحمل مسؤولية ذلك.

فكانت خزاعة بمشركها ومسلمها مع رسول الله، وبنو بكر مع نظام الطغاة في مكة، فساهمت قريش بالقتال ليلاً حتى لا ينكشف غدرها، وبمد السلاح جهاراً ضد خزاعة.

وحجم الجريمة كان مضاعفا، إذ أنه غدر بعهد ومباغتة، وخفرٌ لعهد عظيم مع سبق الإصرار والترصد، في داخل حدود الحرم، التي يُعظمها عرب الجاهلية، ودائما سنلاحظ أن الرسالة الإسلامية ونبيّها، كانت في صف الوفاء بالعهود، وجسور الخير، ورعاية كل أمن وسلام مشروع للناس، وجسورهم متواصلة لرد أي بغي وعدوان من أي صف، خلافا لموقف طغاة مكة.

ومجيء خزاعة باسم مشركها ومسلمها للنبي ﷺ عبر موفدها وأحد زعمائها، كان لقناعتهم الكبرى بموقف الإسلام ورسوله، وعزيمته لرد المعتدي، والالتزام بحق المعاهدة.

قريش تدرك فداحة جرمها

(ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله المدينة، فأخبروه بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم ثم انصرفوا راجعين إلى مكة وقد قال رسول الله ﷺ للناس: كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد في المدة. ومضى بديل بن ورقاء وأصحابه حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بعسفان، قد بعثته قريش إلى رسول الله ليشد العقد ويزيد في المدة وقد رهبوا الذين صنعوا.

فلما لقي أبو سفيان بديل بن ورقاء قال: من أين أقبلت يا بديل؟ ـ وظن أنه قد أتى رسول الله ـ. قال: تسيرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي قال: أو ما جئت محمداً؟ قال: لا، فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن جاء بديل المدينة لقد علف بها النوى. فأتى مبرك راحلته، فأخذ من بعرها، ففته، فرأى فيه النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً.

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله، طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش؟ أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ. قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر، ثم خرج حتى أتى رسول الله فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر، فكلمه، أن يكلم له رسول الله، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب، فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به.

ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ ـ ورضي عنها ـ، وعندها حسن بن علي غلام يدب بين يديها، فقال: يا علي إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله. فقال: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

فالتفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بني ذلك أن

يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ، قال: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني قال: والله ما أعلم لك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك. قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً قال: لا والله ما أظنه ولكني لا أجد لك غير ذلك فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس إني أجرت بين الناس.

ثم ركب بعيره فانطلق فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته فوالله ما رد عليَّ شيئاً ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم وقد أشار عليّ بشيء صنعته فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس ففعلت قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا قالوا: ويلك! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك فما يغني عنك ما قلت؟ قال: لا والله ما وجدت غير ذلك).

فوراً بدأت قريش تدرك فداحة جريمتها، وأبو سفيان يعرف تماما تغير موازين الحرب، فتوجه فوراً للمدينة، لتعزيز الصلح الذي غدروا به، وتطويل مدته، فرفض النبي ﷺ ذلك، ولم يمنحه أي مجال، فهنا حق الوفاء لخزاعة، يكون بالعودة إلى مكة، وإزالة نظام الطغاة الكافر فيها، الذي تسبب في هذه الجريمة، وأكبر منها منعه لبلاغ الله سلما في أرضها.

قصة حاطب والعفو الإسلامي

(لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً، فجعلته في رأسها، ثم فتلت عليه قرونها، ثم خرجت به. وأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما صنع حاطب، فبعث عليَّ بن أبي طالب والزبير بن العوام ﵄، فقال: أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش، يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم.

فخرجا حتى أدركاها بالخليقة ـ خليقة بني أبي أحمد ـ فاستنزلاها، فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئاً. فقال لها علي بن أبي طالب: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك،

فلما رأت الجد منه قالت: أعرض، فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه فأتى به رسول الله فدعا رسول الله ﷺ حاطباً، فقال: يا حاطب ما حملك على هذا؟ فقال: يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ولكني كنت امرءاً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق. فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك يا عمر؟ لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. فأنزل الله تعالى في حاطب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

قصة حاطب بن أبي بلتعة، وهو الصحابي الذي راسل قريشا يخبرهم بعزم النبي ﷺ في فتح مكة، من أعجب الحوادث التي تحتاج إلى عمق في معرفة دلالاتها، فهذه الرسالة في الأصل والتي أقرَّ بها حاطب وأوحي للنبي ﷺ فيها، قبل ذلك، عمل جُرمي خطير، يُطلق عليه قديما وحديثا بأنه عمل خياني، ومع ذلك قبِل النبي ﷺ تبرير حاطب بأنه لا يملك أي عصبية في قريش تحمي عائلته، خلافاً لبقية المهاجرين، وأن هذه الرسالة لن تقدم ولن تؤخر في فتح مكة، ولكن ستكون يداً لدى طغاة مكة لتحييد أسرته عن بأسهم.

وهو تبرير لا يُقبل في الأصل، إلّا أن النبي ﷺ قَبِلَهُ ونهى عمر عن قتله، وقال إن شهوده بدرا تكفي لمسامحة خطيئته، ومن مجمل الحدث يتبين لنا أن النبي ﷺ ميّال للعفو وللتسامح، وحريص على أن يقر ذلك في أمته (كشريعة).

الأمر الثاني، أن ذوي الفضل الكبير يُقدر لهم شأنهم ويُتجاوز عنهم، حين تتفهم الظروف الضاغطة المؤثرة عليهم، ورغم أن عمل حاطب رضي الله عنه كبير جداً من حيث خطورته على المسلمين، إلا أن الدرس هنا يؤكد دفع النبي ﷺ لتقدير هذه الظروف المحيطة بصاحب الخطيئة، والتي من باب أولى تُقدر في أخطاء أقل من هذا المستوى، لو صدرت من معسكر المسلمين، حتى هذا الزمن.

الإسلام الدافئ في جسوره وإنسانيته

ورغم أن أبا سفيان فشل في مهمته، بل واجهته ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ، وقد كان في موضع التزعم للطغاة فأبت أن يستثمر مقامها عند رسول الله، لصالحهم، ولمشروعهم وليس لكونه أباها، بل الإسلام يدعوها إلى البِرِّ به.

لكن أبا سفيان طاف ببيوت الصحابة المهاجرين من أبناء عمومته، وتواصل بالذات مع آل بيت النبي ﷺ ولم يُرَدَّ عن ذلك، وظل يسعى بكل إصرار لتحقيق أي شفاعة أو جوار بين الناس، يوقف قرار الزحف إلى مكة.

ونلاحظ أن الإمام علي ﷺ كان يتواصل معه ويتحدث إليه ـ بل وينصحه ـ رغم حرج الموقف والتوقيت، والتاريخ المسيء الذي يحمله أبو سفيان قبل ذلك، وهذا يدل على أن العلاقات الإنسانية في الإسلام، تبذل مع المسالمين، وحتى المحاربين حين لا يكونون في موضع حرب ميداني.

فشلت مهمة أبي سفيان الأولى

وهنا رواية العباس المهمة يوم الفتح:

(قال: فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك فقلت: لعلي أجد بعض الحطّابة، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله، ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة.

قال: فوالله إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب قال: يقول أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها قال: فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي.

فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم. قال: ما لك؟ فداك أبي وأمي قال: قلت: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ في الناس وَاصَباحَ قريش والله. قال: فما الحيلة؟ (فداك أبي وأمي). قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، فركب خلفي

ورجع صاحباه، فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته.

حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: من هذا؟ وقام إليَّ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله، وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء، قال: فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان، أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه.

قلت: يا رسول الله إني قد أجرته ثم جلست إلى رسول الله، فأخذت برأسه فقلت: والله لا يُناجيه الليلة دوني رجل، فلما أكثر عمر من شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله أن لو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف، فقال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم.

فقال رسول الله ﷺ: «**اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به**» قال: فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي فلما أصبح، غدوت به إلى رسول الله، فلما رآه رسول الله، قال: «**ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟**» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله قد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد قال: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟**» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً.

فقال له العباس: ويحك! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تُضرَبَ عنقك، فشهد شهادة الحق، فأسلم، قال العباس: قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً. قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: «**يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها**»، **قال: فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله أن أحبسه.**

قال: ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول: سليم فيقول: ما لي ولسليم، ثم تمر القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة فيقول: ما لي ولمزينة، حتى نفذت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا يسألني عنها، فإذا أخبرته بهم قال: ما لي ولبني فلان، حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار ﷺ، لا يرى من هم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله: يا عباس من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً قال: قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: فنعم إذن).

كان النبي ﷺ يريد أن يعرف أبو سفيان مستوى فشله الذريع في مهمته، لكنه لم يرد أن يخسر دوره في تعزيز فتح مكة سلميا، حيث كان حريصا للغاية على هذا الأمر، وتجنب الدماء والحرب في بيت الله الحرام، وأهم من ذلك ختام مرحلة الدعوة الأكبر، في عودتها لمكة بعهد سلام وايمان وتصالح.

ولذلك تَرَك لعمه العباس فتح الباب لمهمة أبو سفيان الثانية وهي إسقاط أي رهان على مواجهة المسلمين عسكريا، رغم جزم النبي ﷺ بقوة النصر، وثوقا بعهد الله ثم قوة المسلمين، وبالفعل اخذه العباس إلى حيث مواضع الوية الجيش الإسلامي، المهاجرين والانصار، والقبائل المتعددة، كل يمر عليها وهم في حلقتهم وقوتهم.

وهو يردد مالي ولهم.. مالي ولهم!

وذهول أبو سفيان واضطرابه، هو ما سهل نجاح مهمته الثانية، بطلب السلم والنجاة، وتحذيره لبقية النظام من مواجهة المسلمين عسكريا، فنجحت خطة النبي ﷺ، ورغم أن أمير المؤمنين عمر ﷺ، حاول في حينه قتله لسجله الاجرامي السابق، إلا أن آل البيت بقيادة العباس منعوه، وأقره النبي ﷺ، وهنا نتنبه جيداً لحجم الأبواب التي يفتحها رسول الله للسلم والمصالحة، وحقن دماء الناس.

مجرم الحرب والقصاص

(وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن

يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم إلا أنه قد عهد في نفر سماهم أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد أخو بني عامر بن لؤي.

وإنما أمر رسول الله ﷺ بقتله لأنه قد كان أسلم وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحيَ فارتد مشركاً راجعاً إلى قريش ففر إلى عثمان بن عفان وكان أخاه للرضاعة فغيبه حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن الناس وأهل مكة فاستأمن له: فزعموا أن رسول الله صمت طويلاً ثم قال: نعم فلما انصرف عنه عثمان قال رسول الله لمن حوله من أصحابه: لقد صمت ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه فقال رجل من الأنصار: فهلا أومأت إلي يا رسول الله؟ قال: إن النبي لا يقتل بالإشارة.

وعبد الله بن خطل رجل من بني تيم بن غالب: إنما أمر بقتله أنه كان مسلماً فبعثه رسول الله ﷺ مصدقاً وبعث معه رجلاً من الأنصار وكان معه مولى له يخدمه وكان مسلماً فنزل منزلاً وأمر المولى أن يذبح له تيساً فيصنع له طعاماً فنام فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركاً.

وكانت له قينتان: فرتنى وصاحبتها وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ بقتلهما معه، والحويرث بن نقيذ وكان ممن يؤذيه بمكة.

ومقيس بن صبابة: وإنما أمر رسول الله ﷺ بقتله لقتل الأنصاري الذي كان قتل أخاه خطأ ورجوعه إلى قريش مشركاً، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب وعكرمة بن أبي جهل وكانت سارة ممن يؤذيه بمكة فأما عكرمة فهرب إلى اليمن وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام فاستأمنت له من رسول الله ﷺ فأمنه فخرجت في طلبه إلى اليمن حتى أتت به رسول الله ﷺ فأسلم.

وأما عبد الله بن خطل فقتله سعيد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي اشتركا في دمه وأما مقيس بن حبابة فقتله نميلة بن عبد الله ـ رجل من قومه ـ وأما قينتا ابن خطل فقتلت إحداهما وهربت الأخرى حتى استؤمن لها رسول الله ﷺ بعد فأمنها وأما سارة فاستؤمن لها فأمنها ثم بقيت حتى أوطأها رجل من الناس فرساً في زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها وأما الحويرث بن نقيذ فقتله علي بن أبي طالب).

ولم يُقتل يوم فتح مكة، إلا قلة من مجرمي حرب أساءوا إلى النبي ﷺ، بقبيح خطاب وإصرار عليه، أو بجرم فاحش، له خصوصية، ومع ذلك فإن من وصل اليه، وطلب الإجارة تمت إجارته في نماذج عديدة، منهم ابن عم المصطفى، أبو الحارث عبد المطلب وصاحبه، رغم قوة بغيهم.

ولنلاحظ حجم لطف هذا النبي العظيم، الذي حين ارتجز أبو الحارث شعراً محتفلا بنجاته بعد قبول اجارته، وقال فيه انه مطارد كل مطرد، ضرب على صدره النبي ﷺ، مذكراً في ممازحة توجيهية، وقال له بل أنت طردتني كل مطرد، فيُذكر قريش بما فعلوه من بغي وظلم لرسول الله، لم يمنعه من العفو عنهم.

دين الرحمة ونبيّه العظيم

كل من وصل للنبي ﷺ بما فيهم عكرمة بن أبي جهل وغيره، تم تأمينه رغم استحقاقه القِصاص، وفتح له باب السلام والإسلام.

إنها مهمة النبوة ورسالة السلم في الإسلام، قتل الناس أبداً ليس مقصد، بل رحمتهم هو المقصد، وتشجيعهم بكل قدرة ممكنة على وعي هذا الدين والإقرار به.

وحتى لو نطقوه ظاهرا فيُقبل منهم رغم سجلهم السابق الذي يستوجب القصاص، لتطمئن قلوبهم به بعد ذلك، كما جرى مع أبي سفيان الذي صدق اسلامه، وآخرين من مسلمة الفتح بعد حين، وإن تولّى بعضهم بعد ذلك ميراث جاهليته، فأمره الى الله.

المقصود أنّ الصحابة طفقوا يشفعون ويُجيرون ويستأذنون رسول الله، لما وقر في أنفسهم من عظمة هذا الدين.

مع من؟

مع من قاتلهم وشردهم وقتل واضطهد اخوتهم، لكنها النفوس العظيمة، التي أدركت معنى الرسالة والفوز بها، وإسعاد كل من يستطيعون في ظلالها ولو كانوا أعدائهم، وهذه قيم ومشاعر وسلوك لا تستقر، إلا مع رسالة بالغة العظمة والتحرير للنفس الإنسانية والعدالة الاجتماعية.

النبي يرعى تأمين مكة

نجحت الخطة لتأمين مكة سلميا، من قبل النبي ﷺ، وأصحابه، ورعوها ولم يتركوها لجهالة طغاة قريش، وأُعطيَ أبو سفيان حظاً معنويا ينقله عن النبي ﷺ، رغم أنه لا يمثل أي فارق عملي، فما دام من دخل بيته فهو آمن ومن دخل البيت الحرام فهو آمن، فما الحاجة لبيت ابي سفيان؟

لكن المقصود الذكي هو استثمار روح الزعامة والعصبية في هذا اللفظ، لتشجيع أبي سفيان لنقله قرار التأمين بكل طاقته لأهل مكة، وقد كان ذلك، فبلّغه أبو سفيان بالفعل، وانصرف اهل مكة لدورِهم، وحقق رسول السلام والإسلام، رسالته.

لحظة النصر والشكر والفكر

(عن عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى، وقف على راحلته معتجراً بشقة برد حبرة حمراء، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل).

دخل النبي ﷺ والمسلمون، في هذه اللحظة التاريخية مكة، وتوجهوا للبيت العتيق، إنه المنعطف الزمني الأكبر في تاريخ أمة العرب، رسالة الإسلام تعود عاصمتها اليها، وبلاغ البشرية لهدي ربها، يُعاد تأسيسه، ومكة التي بغى طغاتها على رسولها ورسول الإنقاذ يدخلها فاتحا، رحمةً وشكراً وخضوعاً.

هذا هو النبي يتقدم فوق ناقته، خاضعة رقبته ساجدة جوارحه، لا تبّر ولا تغطرس ولا تشفّي، وأين؟

في بلد طارده فيها أهله وقتلوا صحبته واستضعفوا حملة كتابه، واسترهبوهم وعذبوهم، وهذا بلال في سّمرته، يقف بين يدي رسول الله، ليعلن التحرير الإسلامي الكبير والعدالة الاجتماعية، والرشد الإنساني، من بكة، وأن لا فرق بين عربي وأعجمي ولا سيد ولا حر، إلا بالتقوى، رفعت الأقلام وجفّت الصحف.

شيبة أبي قحافة وخوف عكرمة

(عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما وقف رسول الله ﷺ بذي طوى قال أبو قحافة لابنه من أصغر ولده: أي بنية، أظهري بي على أبي قبيس قالت: وقد كف بصره قالت: فأشرفت به عليه فقال: أي بنية ماذا ترين؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً قال: تلك الخيل، قالت: وأرى رجلاً يسعى بين يدي ذلك مقبلاً ومدبراً، قال: أي بنية ذلك الوازع، يعني الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها، ثم قالت: قد والله انتشر السواد، فقال: قد والله إذن دفعت الخيل، فأسرعي بي إلى بيتي.

فانحطت به، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته، قالت: وفي عنق الجارية طوق من ورق، فتلقاها رجل فيقتطعه من عنقها، قالت: فلما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: **هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟»** قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره ثم قال له: أسلم، فأسلم قالت: فدخل به أبو بكر، وكأن رأسه ثغامة، فقال رسول الله ﷺ: **«غيروا هذا من شعره، ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته»**، وقال: أنشد الله والإسلام طوق أختي، فلم يجبه أحد. فقال: **«أي أخية، احتسبي طوقك فوالله إن الأمانة في الناس اليوم لقليل»**).

(فأما عكرمة فهرب إلى اليمن، وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام، فاستأمنت له من رسول الله ﷺ، فأمنه، فخرجت في طلبه إلى اليمن، حتى أتت به رسول الله ﷺ، فأسلم).

وفي موسم هذا النور، ومطلع هذا الخير، يستمر رسول الله ﷺ من تحقيق معالم رحمته، فيأتي أبو بكر صاحبه الخاص بوالده الذي علاه الشيب والكبر، فيستقبله رسول الله ويجلسه بين يديه ويدعو له، بل يقول لابي بكر هلا آذنتنا لنأتيه، أي اخبرتنا لنقصده في منزله ولا نشق عليه ببعد الطريق، ولأن الإسلام رسالة الله الأحد الحق العدل الرحمن الرحيم، الذي ليس لديه حسابات خاصة ولا عامة.

فيطمع كل الناس بعفوه، وبدأوا حياتهم الجديدة، فعكرمة بن ابي جهل، الذي فرّ صوب اليمن لمعرفته جرائم والده وشراكته شخصيا، ضد المسلمين

ورسولهم الأمين، تلحق به زوجه لتُثنيه عن المنفى وتخبره ببشارة رسول الله، لدرجة أنه يعطيها خاتمه ليطمئن عكرمة، فيكسب قلبه ويأتي لله طائعا مطمئنا، قد تطهر من تاريخ كفره وجاهليته، بعد أن رأى تسامح رسول الإسلام ودعوته.

الخطبة الحقوقية للبلاغ الإسلامي

(قال ابن إسحاق: فحدثني بعض أهل العلم: أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج. ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

كلها ثم قال: يا معشر قريش، ما تروني أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء).

وفي اوج التطلع لخطاب النبي ﷺ، كانت أعناق المكيين تستشرف ماذا عساه أن يقول، وهل هناك محاكم ثورية، أو تصفيات للمجرمين منهم، وهل هناك تصنيف لمواطنتهم، أو تحديداً لمواقعهم؟

على الإطلاق أجاب النبي المختار ذلك الجمع بعد أن سألهم:

ماذا تظنون أني فاعل بكم؟

يُذكرهم ذلك البأس الذي صبه أهل مكة على المسلمين المستضعفين، ثم يعلن فيهم واليهم، اذهبوا أنتم الطلقاء.

طلقاء لا محاسبة ولا تجريم ولا تحريض.

وهو بلاغ مستمر في تاريخ البشرية عند كل فتح إسلامي حقيقي يأخذ بمنهج النبوة، لا بمنهج الطغاة والغلاة، ولو ادعوا الإسلام وصفاء العقيدة.

كرّس الخطاب النبوي قضايا الحقوق والعلاقات الإنسانية، في الإسلام،

فأسقط الثارات والربا والظلم الاقتصادي والاضطهاد الاجتماعي بكل صوره، وهدم كل عصبية ليست للحق والعدل، وأعلن بوضوح مسلك المساواة في الحقوق والواجبات، ولا طبقات نفوذ وطبقات سُخرة، بل أمة ورسالة بكل مواطنيها وعترتها.

وحتى مراتب رعاية البيت من حجابة وغيرها، جعلها في ذات أوليائها من قرون، فدعاهم وسلم مفتاح البيت العتيق لهم، كما كان في الجاهلية فهو حقهم في الإسلام، لكن بعد تطهير البيت الحرام من رجز الأصنام.

فهذا الدين ليس فيه ثأر إلا ممن ظَلم حتى يؤخذ حق البريء، وينتصف للمظلوم.

ولذلك لم يعاقب الا من قبحت جنايته، ووصل اليه سيف العدل بعد أن تكرست جريمته ضد النبي والرسالة، وهي قلة قليلة أمام جموع غفيرة، ومن القلة مجرمين آخرين قُبلت الشفاعة فيهم، وما قصد أحد رسول الله وردّه، وهنا تبرز لنا أهمية، هذا التشريع في تاريخ المسلمين وواقعهم اليوم، وكيف يتعاملون مع خصومهم.

حُنين استكمال النصر
وإعادة التنظيم الداخلي

هوازن وثقيف

(قال ابن إسحاق: ولما سمعت هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة، جمعها مالك بن عوف النضري، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، واجتمعت نصر وجشم كلها، وسعد بن بكر وناس من بني هلال وهم قليل، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء، وغاب عنها فلم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب، ولم يشهدها منهم أحد).

فُتحت مكة سلماً، وتحوّلت أنظار العرب الى بيت إبراهيم الذي عظموه من جديد بعد أن عاد لذريته وصفوة الأنبياء، لبلاغ الرسالة للعالمين، لكن أكبر وأشرس رديف لنظام الطغاة في مكة لا يزال حاضراً، في قوته ومنعته، وبادر فوراً بالاستعداد لقتال النبي ﷺ وجيش المسلمين، وأرسل النبي من يتأكد الامر، لينظر هل تنجح مساعي السلم معه، فجاءه الخبر الأكيد بنوايا الحرب من الطائف، حيث هوازن ثقيف.

ذات الأنواط والتصفية الفكرية

(قال الحارث بن مالك: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية. فسرنا معه إلى حنين، وكانت كفار قريش ومن سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط، يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً، فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ؛ سدرة خضراء عظيمة، فتنادينا من جنبات الطريق: يا

رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، قال رسول الله ﷺ: الله أكبر قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى: «اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون «**إنها السَنن. لتركبن سنن من كان قبلكم**»).

وفي طريق المعركة، لغزوة حنين، وهي اليوم تأتي بعد فتح مكة وأول مشاركة لمسلمة الفتح، فبذات تأثيرات التخلف الجاهلي على المجتمع المسلم، فحيث كان لقريش شجرة في ذهابهم للطائف يعلقون عليها انواطهم.

كأعراف شعوذة غبية، طفقوا عليها، فتأثر بعض المسلمين الأوائل بها، وإن لم يقربوها لكن رجوا رسول الله أن يُعيّن لهم ذات أنواط، أي شجرة، ربما كان في نفوسهم الجلوس عندها أو تعليق آيات الذكر الحكيم، أو أي نوع يظهر لهم تراثا دينيا يضاهي تراث المشركين.

لكن كانت المشكلة الكبرى في أصل الفكرة واضطراب الايمان الداخلي، فالإسلام عقيدة تطهير من الشرك والخرافة، يستبدلها بجذوة ايمان وبحقيقة برهان، ويُقطع المسلم عن مثل هذه الاهتزازات والظنون، التي تصرفه عن الله ﷻ، وعن هديه الواضح اليقين، ولذلك نهاهم النبي ﷺ بقوة ووضوح، وفطِن الصحابة لهذا المعنى الصلب، وتذكروا معنى التطهر العقائدي كهدف بذاته لرسالة الإسلام الكبرى.

سفاهة المستبد وجنايته على قومه

ومن سياق السيرة، في عرض غزوة حُنين يتبين لنا، أن هناك توتر كبير وتأثر من داخل هوازن وثقيف ومن كل أرجاء الطائف، من انباء فتح مكة سلمياً، وهي التي لا تبعد أكثر من ٨٠ كلم، عن مكة، وعليه بدا القوم يتداولون الرأي، لكن مالك بن عوف وهو الزعيم الذي صادف ذلك الزمن ترأسه فيهم، أصّر على الحرب بل واصطحاب النساء والذراري، والأموال، خلف ظهور الخيل حتى يضطر كل مقاتل من هوازن وثقيف للقتال حتى آخر رمقه.

وهو ما ثبت فشله الذريع، وحذره دريد بن الصمة شيبة الخبرة فيهم، لكنه أبى وسخر من ناصحه، وهذا شأن المستبدين الطغاة، في كل زمن يصرون على مواجهات عسكرية وعنيفة، تورثهم هزائم داخل بلدانهم وخارجها، ولا يعتمدون الرأي ولا الشورى، فيتيه الناس تحت قولهم ورأيهم الأحادي الصلد.

انكسار المسلمين الأول

(أجمعوا وتهيئوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد. وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: أين أيها الناس؟ هلموا إلي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله قال: فلا شيء حملت الإبل بعضها على بعض فانطلق الناس إلا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

قال ابن إسحاق: فلما انهزم الناس، ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر - وإن الأزلام لمعه في كنانته -، وصرخ جبلة بن الحنبل: ألا بطل السحر اليوم).

ولأمرٍ قدره الله حتى يعي المسلمون دروس واقعهم، ويباشرون حق تعبده بالأسباب وحسن التوكل معا، وان لا يغتروا بقوتهم وكثرتهم، نجح مالك بن عوف في تحقيق الكمين للمسلمين، فباغتت هوازن الجيش الإسلامي، وتراجع بالفعل وانكسر أول الأمر، هنا خرج واقع المشاعر، من بعض مسلمة الفتح وظهر حقيقة موقفهم وأن الدخول في الإسلام لم يستقر في قلوبهم.

الحكمة من كسب مسلمة الفتح

وعليه قال بعضهم ما قال سخرية أو فرحا بهزيمة المسلمين، وكان النبي ﷺ يعلم ذلك، حين أسفرت الحرب عن النتيجة النهائية ونصره الأكبر، وهو يوزع عليهم أموالا ضخمة، من ثروة المحاربين التي غنمت من هوازن وثقيف.

وهو توجه سياسي عميق لمصلحة الأمة والدولة الإسلامية، وليس لاستحقاقهم أبداً، ولا لمكانتهم، فرسول الله يعلم أن المجتمع المكي المهم، لا يمكن أن يستقر، دون أن يندمج هؤلاء فيه، وأن يُكفى المجتمع المسلم الجديد شرورهم، هذا مادياً، أما روحياً فهو مدخل يغني تلك النفوس الجشعة، فتنصرف للتفكر في هذا الدين والنبي الذي منحهم هذه الثروة، ولم يهتم بها ﷺ.

وقد حصل بالضبط، ما رجاه رسول الله وأمِنت مكة من بغيهم، ولم يطلب منهم تجديد عقيدتهم ولم يحكم عليهم بردة، لما لاكوه، وانما جعله مسؤولية ذاتية فيهم، وفعلاً حسن إسلام غالبيتهم أيما إحسان، وبقيت في بعضهم ما بقي من آثار جاهليته، وتكبره ومطمعه الدنيوي.

الكتلة الصلبة والمواقف الحرجة

جاء في السيرة: (عن العباس بن عبد المطلب قال: إني لمع رسول الله ﷺ آخذ بحكمة بغلته البيضاء قد شجرتها بها، وكنت امرأ جسيماً شديد الصوت، ورسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: «**أين أيها الناس؟ فلم أر الناس يلوون على شيء**». فقال: يا عباس، اصرخ: يا معشر الأنصار: يا معشر أصحاب السمرة، قال: فأجابوا: لبيك لبيك، قال: فيذهب الرجل ليثني بعيره، فلا يقدر على ذلك.

فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه ترسه ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ. حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة، استقبلوا الناس فاقتتلوا وكانت الدعوى أول ما كانت: يا للأنصار، ثم خلصت أخيراً: يا للخزرج، وكانوا صبراً عند الحرب فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون فقال: الآن حمي الوطيس).

حينما دعا النبي ﷺ بصوت العباس أصحاب السمرة، أي المهاجرين والأنصار الذين بايعوه، فانفلتوا اليه مسرعين لبيك.. لبيك.

كان يُقدم لنا درساً مهماً، أن القاعدة الصلبة للدعوة والإيمان هم من يعوّل عليهم في ثبات الموقف العسكري الحرج، وهو ما تم وقلبوا المعركة في حنين، بثباتهم وايمانهم.

لكن هذا لا يعني كما يظن البعض أن تترك كل أمور السياسة للصالح التقي الذي لا يحسنها، ولا قيادة الحرب للضعيف فيها وهو عابد زاهد، ولا لأمر التفاوض وصناعة الدولة لمجرد سابق في الدعوة أو في التيار.

بل الأصل مداورة ذلك عند أفضل من يُنفذها، وتنويع برنامج الإدارة والتخصص، وهذا بالضبط ما فعله النبي ﷺ، مع بقاء خيوط الإيمان وجسر العلاقة القوي للطليعة الصادقة الثابتة.

(قال ابن إسحاق: وأعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم ـ وكانوا أشرافاً من أشراف الناس ـ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة بعير، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير، وأعطى حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس مائة بعير، وأعطى العلاء بن جارية الثقفي حليف بني زهرة مائة بعير، وأعطى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر مائة بعير.

وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة بعير، وأعطى مالك بن عوف النصري مائة بعير، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير فهؤلاء أصحاب المئين، وأعطى دون المائة رجالاً من قريش منهم مخرمة بن نوفل الزهري، وعمير بن وهب الجمحي، وهشام بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي، لا أحفظ ما أعطاهم وقد عرفت أنها دون المائة، وأعطى سعيد بن يربوع بن عنكثة بن عامر بن مخزوم خمسين من الإبل، وأعطى السهمي خمسين من الإبل).

عن أبي سعيد الخدري، قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة، حتى قال قائلهم: لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء.

قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي. قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، قال: فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له، أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم وجِدة وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم**».

قالوا: بلى الله ورسوله أمّن وأفضل، ثم قال: «**ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟**» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل، قال ﷺ: «**أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدّقتم أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار**».

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا).

هذه العطايا الضخمة لمسلمة الفتح، لم يشمل بها النبي ﷺ الأنصار، وهم من هم في سابقة الايمان والفضل، وهنا عقد معهم اجتماع خاص، صدّر فيه خطاب الوجدان الحق ومقام الإيمان، واكتفى بتبيين مقامهم وفهمهم للرسالة التي أراد، ولم يعوضهم أو يرضيهم مادياً.

كان مقصده ﷺ، أن يتبين الأنصار معنى مقامهم بين عينيه، وفي ميزان مولاه وانهم طليعته الخاصة ومهجره النهائي، فهنا العقل يقرأ الموقف الحق من الوجدان، الذي غرق بدمعه وغرق بحب رسول الله واختاروه بكل رضى وطمأنينة، بل عدّوه مكسبا تفيض به الموازين أمام كل ثروات الدنيا.

مستويات المجتمع

إن مستويات المجتمع، متفاوتة مختلفة، لها ظروفها وطبائعها، وهنا سر إدارة الدولة والأمة ومجتمعاتها في العالم الإسلامي، ودرس حنين هو قاعدة، فلا تنتظر من المجتمع أن يقبل بحالة الخلص الأتقياء، بل تعامل معه بحقوقه المادية القانونية، وأحسن إدارتك له، لا تجعل وعظك جسراً اليه بل حقوقه ومصالحه، ثم ابلغه خطابك.

أما الصفوة المؤمنة فلها حقها، وعليها مسؤوليتها إن كانت قبلت الرهان وتحملته، للأمة والدولة والمجتمع والدعوة في كل مكان، وفهم تباين الناس،

وطبائع الشعوب ضرورة، كما التعامل معهم بحساباتها، وأما التقوى فأمرها الى الله يجزي بها المتقين.

الصفوة والصادقون من مسلمة الفتح

وكان الحارث بن عبد المطلب الذي عفا عنه النبي ﷺ في ذروة الثابتين من مسلمة الفتح، يفدي رسول الله، كما أن الصفوة الخاصة، كانت تحيط به وتذب عنه، ومنهم أم سليم وزوجها أبو طلحة، كمؤشر لدور المرأة وشراكتها الحيوية، ومع هذا الظرف الصعب، لا يخلو هذا المشهد من ممازحة بين أبي طلحة وأم سليم مع رسول الله ﷺ، تتجلى انسانيته وبساطته في كل منعطف وسياق، هذا هو الرسول الأمين.

هذه القوة المنظمة من الصفوة، ولو قلّت لكنها كانت ترس المعركة وتغييرها الى نصر الله المبين، فانهزم العدو الجاهل وانتهت الغنائم الكبرى الى المسلمين.

العودة الى تشريع الأسر والعفو

(ثم أن وفد هوازن أتوا رسول الله ﷺ وقد أسلموا فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا من الله عليك قال: وقام رجل من هوازن ثم أحد بني سعد بن بكر يقال له زهير يكنى أبا صرد فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين، فقال رسول الله ﷺ: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا.

فقال لهم: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم، فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: «**وأما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم**».

فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بلى ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ).

(وقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن وسألهم عن مالك بن عوف ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال رسول الله ﷺ: أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل، فأتى مالك بذلك فخرج إليه من الطائف، وقد كان مالك خاف ثقيفاً على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ما قال فيحبسوه، فأمر براحلته فهيئت له، وأمر بفرس له فأتى به إلى الطائف، فخرج ليلاً فجلس على فرسه فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس، فركبها فلحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجعرانة أو بمكة فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل وأسلم فحسن إسلامه).

كان الأسر قائماً في أعراف العرب، بينهم وقبائلهم، كما هو في حروب العالم الدولي، ومع أن الأسر في الرجال والنساء كان كبيرا جداً، وأغرى مسلمة الفتح وغيرهم، إلا أن كل خطوات رسول الله في هوازن وثقيف، كانت تتوجه بكل قدرتها لإطلاقهم، ومن لم يرضَ أُرضي بالمال، الذي استخدمه النبي ﷺ لحرية الأسارى ولقوة الدولة المسلمة بعد حنين.

بل وحتى مالك بن عوف الزعيم المستبد الأرعن، أرسل له النبي ﷺ، من يعرض عليه العفو والإسلام، ففعل وحسن اسلامه، لم يقبل رسول الله ﷺ أن يختتم هذا الفصل المهم، بذاكرة اسر مؤلمة في قلب الحجاز وبيضته، ولكن أكد على تشريع العفو الكبير وإطلاق النساء والرجال.

وأول ما بلغ النبي ﷺ تخوم الطائف، زحف اليه العبيد المملوكين لأهلها، فطلبوا العتق فحررهم وأسلموا لله، وحين طلبت الطائف بقبائلها عودتهم لهم، رفض رسول الله ذلك، وقال هم عتقاء الله، نعم فالإسلام ورسوله محررون لا مستثمرون.

ونهى النبي ﷺ عن قتل النساء والأطفال كونهم غير محاربين بالضرورة، واما السلم العام فيشمل كل من سالم المسلمين ولم يحاربهم، ولذلك ساءه قتل خالد لامرأة فنهى عن ذلك كل النهي، انه دين الرحمة والعفو والإحسان.

الرسول الإنسان ولا إكراه في الدين

بعد استقرار الأمور لكل محيط الحجاز ودولة الإسلام، خرج النبي ﷺ من مكة، وترك فيها الصحابي الذكي العميق الفهم والرأي، معاذ بن جبل ﷺ، يفقه أهلها في الإسلام وأحكامه، ثم توجه للجعرانة ليُحرم بالعمرة ومعه فئام من المسلمين، وبقيت الطائف على شركها، ولم تُجبر على دين الله ولا الإسلام والعمرة مع رسول الله، والذي تحقق بعد ذلك فيهم، واقبلوا على دين الله وهدي الإسلام.

أي أن الطائف التي أُمّنت وعُفي عن ذويهم وأهلهم وردّوا إليهم، لم يُشارطوا على الدخول في الإسلام، وإن أسلم بعضهم، وهي مركزية مهمة في فهم دلالات الدعوة، التي متى ما تحقق لها إمكانية البلاغ فتكتفي به، وتُرسل بعثها الفكري الذي دائما يحقق هدفه فيُقبل الناس عليه أفواجاً، ويترك المعاهدون المسلمون بين أظهر المسلمين.

ثقيف تأتي مختارة طائعة

(وكان من حديث وفد ثقيف أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم اتبع أثره عروة بن مسعود الثقفي، حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول الله ﷺ كما يتحدث قومه: إنهم قاتلوك، وعرف رسول الله ﷺ أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان منهم، فقال عروة: يا رسول الله، أنا أحب إليهم من أبكارهم، وكان فيهم كذلك محبباً مطاعاً فخرج يدعو قومه إلى الإسلام، رجاء أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف لهم على علية له، وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم، فقتله).

وظلت الطائف وثقيفها على هذا الوضع من البقاء على الشرك، ولكن ضمن مواطنة الدولة المسلمة وأمانها فترة من الزمن، وكان عروة بن مسعود الثقفي وهو أحد زعمائهم، قد أدرك سر هذه النبوة فأراد ان يدعوهم مرة أخرى، سوى ان النبي ﷺ أدرك إثر التعصب الجاهل على هؤلاء فحذره، ولكنه أصر فتركه لما اختار فقدم عليهم يدعوهم فرموه، فقتلوه.

الرسول يحتوي الجهل الأحمق

(ولما قدموا على رسول الله ﷺ، ضرب عليهم قبة في ناحية مسجده كما «يروون»، فكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ، حتى اكتتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذي كتب كتابهم بيده، وكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد، حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية ـ وهي اللات ـ لا يهدمها ثلاث سنين.

فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم حتى سألوا شهراً واحداً بعد مقدمهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يتسلموا بتركها من سفهاءهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها، حتى يدخلهم الإسلام فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها، وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: **«أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه»** فقالوا: يا محمد فسنؤتيكها وإن كانت دناءة).

إن هذا الحدث يكشف لنا إشكالية تعنت النفس البشرية عن قراءة الحق البين وفطرة الله في ذاتها التي تهديها، ولكن نلاحظ ان النبي ﷺ ترك ثقيف تستوفي أقصى عنادها، وفتح لهم الأبواب مجددا، رجاء تحقيق الهدف الأكبر وهو اسلامهم.

وبالفعل قدموا عليه، وشارطوه قدر استطاعتهم للتخلص من واجبات التدين والعبودية الحق، في ذات الوقت أصروا على بقاء اللات ٣ سنوات، صنم من حجر يعبدونه ويرجونه، ويتوسلون لرسول الله الا يهدمه!

فرفض النبي ﷺ، أي تنازل أو تسامح في ترك هذا الرمز المعبود في الطائف، دون الله، فهذه مساحة لا يمكن أن يتفاوض عليها، انها مسالة إقرار مبدأ التوحيد، أمام صنم يُعبد اليوم وهم متعلقون به، وليس أثر أو حجارة من غابر الزمن، فمهمة الإسلام تحريرهم من هذه الجاهلية الغبية.

وفعلاً رضخت ثقيف لذلك، فأسلمت ثم وجّه النبي ﷺ أصحابه لهدم اللات، وصرخت نساؤهم وصبيانهم، لكنها صرخة الألم الغبي، الذي

استفاقوا منه لحقيقة التوحيد وعظمته، وتعزز الإسلام فيما بعد بينهم، لكن من المهم أن نركز على المساحة وتفهم الطبيعة التي مارسها النبي ﷺ مع عنادهم.

كعب بن زهير وأولوية التسامح

(ولما قدم رسول الله ﷺ من منصرفه عن الطائف، كتب بجير بن زهير بن أبي سلمى إلى أخيه كعب بن زهير يخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأن من بقي من شعراء قريش ابن الزبعري وهبيرة بن أبي وهب قد هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة، فطر إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض. قال ابن إسحاق: فلما بلغ كعباً الكتاب، ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان في حاضره من عدوه فقالوا: هو مقتول.

فلما لم يجد من شيء بداً، قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ، وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه، ثم خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة، فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، فصلى مع رسول الله ﷺ، ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ فقال: هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه. فذكر لي أنه قام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه، فوضع يده في يده ـ وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه ـ، فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم» قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير).

(قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أنه وثب عليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: دعه عنك، فإنه قد جاء تائباً نازعاً عما كان عليه).

الشعراء عند سيد المرحمة

وفي عودة النبي ﷺ من الطائف، وظهور قوته الكبرى، كان كعب بن زهير الشاعر المعروف، تورط في النيل من النبي ﷺ، وطلب للعقوبة، لكنه كان

يدرك أن من اتى رسول الله طالبا العفو لم يخب عنده، ولذلك كاتب أخيه، وتيقن الأمر، وفعلا دخل كعب المدينة سرا وقلبه بين الاشفاق والرجفة والخوف، لكن الأمل برسول الله أكبر.

وهل ضاع أمل أحد مع رسول الرحمة؟

تقدم كعب بين صفوف المصلين، وجلس الى رسول الله ومد يده اليه فصافحه، وسأله العهد الذي يعطي الناس فأجابه به بلا تردد، حينها حلّقت نفس كعب بالهدى والعفو النبي العظيم وتلا قصيدته التي سطرها التاريخ بمداد من نور، يشهد لنبي الرحمة والعدل المبين.

تبوك وتعزيز الاستقلال الإسلامي

(ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك، أتاه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية، فكتب رسول الله ﷺ لهم كتاباً فهو عندهم.

ثم إن خالداً قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ، فحقن له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله).

حققت غزوة مؤتة رسالة ضمن الهدف الذي شرحناه لخطة النبي ﷺ، وفي توجيه إنذار ضمني لتخوم معسكر الغرب القديم، الذي هيمن على شمال الجزيرة، وعبرها كان يتدخل في حالة الوضع العربي المهلهل، ولكن كان لا يزال بحاجة لتأكيد هذا المعنى بقوة، لطرد النفوذ الغربي، الذي كان يخشى من صناعة مخططات جديدة له، تطوق دولة الرسالة ورسالة البلاغ الإسلامي.

ولذلك عزم النبي ﷺ على تبوك، وحدّدها لأصحابه مبكرا خلافا لما يتخذه في غزوات أخرى، وأعلن التجهيز للنفير، في توقيت صعب من حيث شدة الحر ونضوج الثمرة، وتحري المسلمين في المدينة لقطافها.

غير أن الوضع الاستراتيجي العام بحسب توجه النبي ﷺ، كان يستدعي هذه المبادرة، ولعل ما يمكن قراءته هو ان رسول الله ﷺ، حرص ألا تتمكن الروم، وهم الغرب القديم من تنظيم حلف عسكري سياسي جديد، عبر

عملائهم في شمال الجزيرة، وتستقطب القبائل العربية، التي لم تدخل الإسلام او لم يتوثق فيها.

رجال العسرة العظام

وهذا التحدي الكبير برزت فيه شخصيات عظيمة، أولهم ذي النورين أمير المؤمنين وشهيد القرآن والتسامح السياسي مع الامة، عثمان بن عفان ﷺ، فهذا الجيش الضخم لم يكن ينقصه الرجال، بعد فتح مكة وغزوة حنين، ولكن كان يحتاج الى تجهيز معيشي وعتاد مسلح ورِكاب.

ولك أن تتصور شخصية أي تاجر في هذا العالم، يضع بيضة ثروته وبضاعته في قافلة، ثم تعود في أفضل توقيت لتسويقها، ويَهبُّ له التجّار ليشتروها، فيهبها كاملة في سبيل الله ورسوله، تلك فقط هي الأنفس العظيمة، وحسبك بحِبِّ رسول الله وبنتيه عثمان بن عفان طليعةٌ فيها.

معركة الامتحان والمواقف

ولشدة ظروف المعركة فقد تعرض الصحب الصادق كما المنافق لموقف اختبار صعب، هو في حد ذاته درسٌ كبير لواقع تحمل المسؤولية لدى المسلم، ومرة أخرى طبيعة النفس البشرية التي تنزع الى الراحة، وتجنّب المشقة حتى في أصحاب رسول الله ﷺ.

وهنا فالصحب يخطؤون ويقصرون فيعتذرون، لكنهم لا يكذبون ويخونون، فأما من تخلف من المنافقين عن تبوك، فاعتذروا لنبي ﷺ بأعذار كاذبة شتّى، وتُركوا لظاهر موقفهم، هكذا تتعامل الدولة المسلمة مع مواطنيها، وإن سبق في العهد الأول كتاب الله العزيز يفضح نواياهم، فلم يترك لنا في هذا الزمن تشريح نوايا الناس أو اتهامهم.

عاملهم رسول الله بعدالته وتسامحه، وأُقر على ذلك واستغفر لفئام من الناس، لا نعرف اليوم هل كلهم من اهل النفاق ام من ذوي الضعف والأعذار، اما كعب بن مالك وصحبه، فمهما تحدثنا عن درسها الوجداني فلن نوفيها حقها، كما مرت معنا، لكن هذا الصدق الذاتي المؤلم الموجع، وتفاصيل صراع الوجدان، ثم الصبر على التوبة، يقدم ملحمة مهمة في فهم النفس البشرية

المؤمنة لكل جيل، كما هي حكمة الله العليم الذي تاب على هذه الأرواح الخيّرة، حين صدقت مع الله ورسوله.

إن شخصيات مرت بقصة تبوك، كأبي ذر ﷺ وما أوحى به النبي ﷺ، منذ تلك الساعة وهو يُحيّي مقدمه حين تعثرت به راحلته، فيخبر الأمة عن منهج ابي ذر الفريد، الذي قد يُكلفه الكثير.

مع من؟

مع عثمان بن عفان العظيم الآخر، ولسنا هنا في موضع تفصيل فكر سيدنا أبي ذر وتشديده على الحقوق الاقتصادية والعدالة الاجتماعية بقوة في النظام الإسلامي، بحسب النموذج الذي آمن به.

ولسنا أيضاً في صدد مناقشة موقف سيدنا عثمان، في فسح المجال لثراء اقتصادي لا يفتح له الباب المحرّم، إنما باب المباح الواسع بحسب اجتهاده ﷺ، والذي يرى البعض أنه اتخذ قاعدة، لأول بغي بني أمية على المسلمين بعد ذلك، وجذوراً للأحداث الكبرى.

المهم هو أنهما ﷺ، صحابيي رسول الله وحوارييه، وسِعتهم صحبته والاجتهاد في دينه وحسن الأمانة، واختلفوا في تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي، الذي كان محكماً بصورة أكبر في عهد الفاروق عمر، وتبقى مساحة الاجتهاد في غير القطعيات من طبيعة مرونة النظام الإسلامي.

ولذلك فهي رسالة أخرى، عما نكرره دائما من طبيعة تعدد القراءات والاجتهادات وفهم خلافات الصحابة دون حساسية مفرطة، ولا سوء ادب مع مقامهم، والاعتذار في حقهم، لكن مع تبيين دلالات الإشكالات الكبرى التي حددها رسول الله ﷺ، في مسار التوريث، حين يكون غصباً لحق الأمة في صالحيها ليحكموها.

تبوك تنتصر

تحقق للنبي ﷺ، كامل الهدف في غزوة تبوك، فرضخ له وسلّم الجزية وأعلن استقلاله عن الغرب، زعيمان عربيان في آيلة قرب العقبة وفي تبوك، كانا ضمن موظفي الغرب القديم، وبالتالي فتحت أبواب الدعوة لشعب شمال

الجزيرة العربية، وهيّئت البوابة الى العالم الشمالي، لتبليغ الرسالة، وكأنما أمّن ﷺ، دولة الإسلام ومحيطها وهيأ العرب وجزيرتهم، لحمل البلاغ للإنسانية جمعاء، قبل رحيله للملأ الأعلى.

أركان الجزيرة وعمقها
يزحف سلماً للإسلام

رسالة القوة ترسخ في وجدان العرب

ما أن أنهى رسول الله ﷺ، غزوة تبوك بعد الطائف، إلا انهالت عليه وفود عرب الجزيرة من عمقها في نجد ومن شرقها في الأحساء، التي كانت تسمى البحرين، ومن كل نواحي الجزيرة وكبرى قبائلها.

وهنا سنلاحظ أن تسلسل دروس السيرة وفكرها الرئيس، يأتي منسجما مترادفا، في قصة الرسالة والرسول، وخلاصات كل مرحلة، وهي هنا تثبت ما دوناه من مقدمات فكرية، تصل للنتيجة النهائية، من توجيه حركة الكفاح المسلح ضد الطغاة والمستبدين الرافضين لعبور الرسالة، لكي تكون ترس يزيل جدار الصد عن الدعوة واستماع البلاغ الإلهي والانقاذي للإسلام، وهي هنا تعطي نتيجتها، فتتقاطر الوفود لسماع الرسالة ووعي الدعوة، وتهيئ الجزيرة لإكمال رسالة البلاغ للعالم خارجها.

لقد تم تأمين الجزيرة بالفعل وإن ستمرت الحاجة لحمايتها، لأن طبيعة المجتمعات البشرية تحتاج الى رؤية القوة التي تحمي الحق، وهو ما يساهم في قدرة الرسالة على البلاغ وتأمين علاقة البشرية سلميا، كما أن العدل هو نطاق الاختبار للقوة، والعدل مقصد أعظم، أي الطرق تؤدي اليه فهو مشروع بدائرة الاجتهاد الكبرى في الشريعة.

أهم العناصر في تعامل الرسول مع الوفود

وليَ رسول الله والدولة الإسلامية الأولى أمر جزيرة العرب وقبائلها، فدولة الإسلام هي مرجعهم اليوم، وعلمت العرب، أن العهد الأكبر مع هذه الدولة، هو الشراكة في رسالة الإسلام بالإيمان بها، وليس أي مصلحة مادية ولا عصبية جاهلية، ولا تحالف قبلي، ولذلك طفقت القبائل الى هذا العهد.

وهذا الإيمان فيه القوي والضعيف والجهل الكبير، وقبله الرسول ﷺ منهم، وهيأ لهم من يعزز تعليمهم، لكن هذا الامر كان يحتاج زمناً، فيما كانت وفاته ﷺ، بعيد هذه الفتوح والوفود، ولذلك ارتد بعض العرب، لقوة جاهليتهم، وعدم توثق الايمان في قلوبهم، إلا من استوطن الفكرة، وكان لديه تأسيس يعي رسالات الأنبياء، كما جرى مع حاضرة بني عبد القيس في الأحساء، رغم بعدها عن مركز النبوة.

وكانت للعرب عادات وأعراف في إعلان العهود والدخول فيها، ومهرجان خطب واشعار، فتركهم النبي ﷺ بل ندب من الصحابة من يرد عليهم، كنوع من التقدير بالمثل والمحاجة السلمية معا، لأن ذلك ادعى لطمأنينتهم.

إن هذا السياق هو سياق اجتهادي، يراعي المصلحة لا نص فيه، فكيف تُبلّغ الدعوة وكيف تُعقد العلاقات مع الشعوب والجماعات وكيف تُهيء المنابر بينهم، وكيف تخاض رسالة الخطاب الحضاري بأعراف كل زمن، هذا أمر واسع، يقاس فيه على أحوال أهل المِصر والعصر، وهو اليوم لازمٌ للوعي والفقه الدقيق في زمننا الحاضر.

لقد كانت اركان تعامل النبي ﷺ مع الوفود، التشجيع والتراحم، وتقدير ذوي الهيئات، وفتح الباب للكل حتى من تولى، كما هي قصة بنت حاتم الطائي وأخيها عدي، وكيف حُوّل أسرها، الى إطلاق ثم وفادة وصلح مع زعماء طيء، كما أن ترك الزعامة فيهم وبينهم كوفود متعددة من العرب، ويطلب منهم تحقيق شروط الإسلام، ورعاية المجتمع عبره، كان ظاهرة.

وإن أوكلت بعض المهام القيادية الكبرى للأقاليم لأمراء النبي ﷺ، واستلام مستحقات الدولة من الخراج والزكاة ضمن مساهمة كل جهة وإعادة توزيعها لمصالح الفقراء، بعد ان يترك لكل ناحية ميزانيتها الاقتصادية.

الفارق الحضاري للتعامل مع الشعوب

ولو تعمقنا في هذه الناحية، وتقدمنا لما بعد رحيل رسول الله ﷺ للملأ الأعلى، بعد أن وصلت دعوة الإسلام لأفريقيا في حياته وبعدها، فسنرى أمراً مهماً للغاية للفارق الحضاري للتعامل مع شعوب أفريقيا، بين المسلمين والمستعمرين الغربيين النصارى، لقد ترك النبي ﷺ أقاليم افريقيا تُحكم بأشخاص زعمائها، ولكن بشريعة الإسلام العدل بينها، وكل شخصية منها، مناط أمورهم يُقيّم بموجب هذه الشريعة.

ولم يسعَ المسلمون أبداً في العهد الأول لاحتلال أرض افريقيا السمراء، ولا قهر أهلها، ما داموا اعطوا السلم أو قبلوا الإسلام، فهنا الهدف العظيم، وهي الرسالة التي تساوي بين البشر، وليس المصالح وثروات الاستعباد التي ارتكبت عبرها أوروبا أشنع صور العبودية والاضطهاد، بل واختطفت جزء من شعوب افريقيا، ليكون جذوراً للعبودية الكارثية، فقط بناء على لون سمرتهم وتصنيفهم كعالم آخر.

أفريقيا السمراء أخت العرب

إن الأخوة التي عقدها الإسلام بين العرب والأفارقة، كانت أخوة مطلقة تجعل كلمة الدين والتقوى هي المعيار، وتحاكم كل منهم بشريعة العدل الإسلامي، في شعوبهم، أما الغرب فقد صنع من الفرق العرقي واللون عقيدة قومية للغرب الأبيض، نعم تحرروا اليوم من بعض قيودها، عبر المناضلين الحقوقيين الكبار، كمارتن لوثر كنج وغيره، ولكن لا تزال آثار هذه العقيدة مؤثرة، وراسخة في الجذور التاريخية.

أما المسلمون الجاهليون الذين يتدثرون بهذا التفريق كنوع من عصبية القبلية الجاهلية المعاكسة لنهج الإسلام، فهو داء كريه، مسقط ومعرّى ومدان في شريعتهم بكل وضوح، بنص نبيهم وقائد رسالتهم، مع التأكيد أن الإسلام لا يعتبر أيضا الأبيض الغربي او الشرقي في وضعية صراع ولا تنافس مع العالم الجنوبي، ولكن في الإسلام الوحدة جامعة عادلة، وكذلك معيار التعامل الإنساني.

رسول الحقوق والوداع المقدس

معالم اكتمال الرسالة

ومع تتابع الوفود وتعزيز المصالحات العربية وتوثيقها، وتوطين الإسلام في أرضها، بدا لرسول الله ﷺ، أنه قد شارف تبليغ رسالة الله للأرض، وحقق في أعلى مستوى دوره كمبعوث للرحمة الإلهية للبشرية، ولذلك سعى ﷺ، لتثبيت القيم الأساسية في الإسلام في مؤتمر الحج الأكبر، فكانت حجة الوداع.

والحج في مناسكه وفي شعائره نموذج مختلف عن كل تجمع والتقاء بشري، إنه يظهر الإنسانية الموحدة بمعايير التقوى، ويبرز المساواة في توحيد الزي، ويُلغي صور التفاخر والطبقات عن الجميع، ويؤكد لهم كلهم، معنى قيمة التآخي في الإسلام، والتراحم والتعاضد، ويذكرهم بأن الدنيا رحلة، وأن هناك وراءهم محشر عظيم لا يجب أن تغيب عقولهم ووجدانهم عنه.

هذا التذكير بالمحشر العظيم هو أحد أهم وسائط التعبد الحقوقي كما هو التعبد السلوكي للبشرية في الإسلام.

لماذا؟

لأنَّ طبيعة النفس البشرية في ميلها للمصالح وتجنب العواقب، تحتاج الى تحريض ضمير مستمر، لا يكفي معه أحياناً معيار المدح او الذم الظاهري، بمقدار ما يعيش هذا الضمير محفزاً لتحقيق الخيرية والعدل بين الناس والعدل في نفسه وحسن سلوكه مع الخلق بشرا وحيوانا ونباتاً وجماداً.

فيستحضر رحلته الكبرى من الدنيا وحضوره هذا المشهد المهيب يوم الحج لتجديد حياته ودينه في وجدانه، لكن مشكلة الأمة، الجهل الذي سيطر على المسلمين لقرون، وحوّل شعائر الحج لديهم لمناسك يتصارعون فيها وحولها، دون وعي لمقاصده الفكرية والسلوكية العظيمة، الذي تعيد الذات الإنسانية وكأنها ولدت من جديد.

ميثاق الحقوق الأعظم والموسم الأضخم

(قال ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله ﷺ على حجه، فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم، وخطب الناس خطبته التي بين فيها ما بين،

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل رباً موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله.

وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية، أما بعد، أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم أيها الناس: إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله.

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة.

ومضى رسول الله في خطبته ومنها:

واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيّناً، كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لأمرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت؟ فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد».

وهنا يقرن النبي ﷺ، إعلان ميثاق الحقوق الشامل في أكبر موسم واضخمه، بعد أن أرسل وحفز لحضور حج هذا العام، ليتلقّى المسلمين منه، ومن ثم البشرية منهم حقائق هذا الدين ومسارات دستوره وميثاقه الحقوقي، الذي كان يستفيض بقوة في خطاب الوداع الملهم، وحجته الأخيرة.

وهنا مع ايذان رسول الله للأمة بقرب رحيله حين أشار الى أنه لن يلقاهم بعد عامهم هذا، تسيطر مشاعر حزن وأسى واعتصار وجداني، استشعرته الأمة في حينها، لكنها مشاعر لم تتوقف حتى اليوم حين نستذكر هذه اللحظة.

فهنا الأرض تودع سراج السماء المنير، ووجدان الروح وضوء العقول، ومنقذ البشرية وقد تساءلت هل رحل مبعوث السماء، وأي فقد أكبر من ذلك؟

الأسس الفكرية لخطاب الوداع

كان من الواضح اننا نقرأ خطاب حجة الوداع في بنود ميثاق عام، كله يحمل تقريرات حقوقية رئيسية، للعلاقة الحقوقية في الإسلام، من أول حقوق النساء والمستضعفين، الى اسقاط الظلم الاقتصادي الربوي الذي يصنع تكتلات برجوازية تحتكر مال الإنسانية، الى العدل، ونبذ التعصب واسقاط الموروث الجاهلي الاحمق من ثأر وغيره.

إنه إعادة لصناعة فكرة الانسان في عالم الرسالة، وربطه بالخيرية لا العصبية وبالعدل لا الاستبداد، وربطه بمراقبة الله والفوز في الدارين، وكأن النبي ﷺ، يلخص لهم قصة نبوّته وحضارة الإسلام ومقصد المولى الكريم من توحيده وإخلاص العبادة له، بنبذ كل طاغية بشري، او نفس أمارة بالسوء تظلم ذاتها وتظلم الآخرين.

المبادرة للبلاغ العالمي

في هذه المرحلة باشر النبي ﷺ دعوة العالم، وكان من الطبيعي أن يراسل القيادات المهيمنة على أكبر جغرافية في العالم المأهول والمعلوم، في حينها، امبراطورية الروم وامبراطورية فارس، ومقوقس الإسكندرية ونجاشي الحبشة في افريقيا السمراء، والبحرين الاحساء ـ ساحل الشرق العربي ومحيطه.

الرسائل سلمية، تعرض الرسالة الإسلامية ورحمتها للعالمين، وتدعو للدخول فيها والشراكة في هذا العهد، ولم تفرض الحرب ابتداء ولا المواجهة، لكن فلسفة التبشير الإسلامي تقوم بالضرورة على تبليغ العالم بهذه الرسالة، ليتحقق لهم فرصة التعرف عليها.

ولكن من المتوقع وفقا لتاريخ البشر، ونظرية الصراع أن تواجه هذه الدعوة ويحال بينها وبين الناس، وفي حينها يُقدّر مسار وصول البلاغ بحسب الزمن ووسائطه، متى ما تحقق توصيل البلاغ ومتى تيسر تامين العلاقات سلما، وتجنب حروب المعتدين فان ذلك من هدي الدين، ولا تشرع الحرب في الاسلام لجغرافية ولا غنائم، ولكن لردع المعتدي وقاطع الطريق على خطاب الرسالة الى العالم.

وجاء في السيرة ان: النبي خرج ﷺ، على أصحابه ذات يوم بعد عمرته التي صد عنها يوم الحديبية، فقال: أيها الناس إن الله قد بعثني رحمة وكافة فلا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم؛ فقال أصحابه: وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟ قال: دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثا قريبا فرضي وسلم، وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وجهه وتثاقل، فشكا ذلك عيسى إلى الله، فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التي بعث إليها.

الرابطة مع المسيح والانبياء

وفي التفاتة مهمة من النبي ﷺ، ذكّر أصحابه بحواريي السيد المسيح عليه السلام، وهو آخر نبي قبله، كان ذلك في معرض تأكيد حمل رسالة البلاغ لكل العالم، وتذكيرهم بمهمة الحواريين المنصفين والخاطئين، حين اختلفوا على دعوة المسيح، وأهمية حسن بلاغ الدعوة الإسلامية ووصولها للعالم.

. كما أنها تذكرة بوحدة الأديان السماوية في أصولها العقائدية وبلاغها الكبير، الذي ختم بالإسلام والذي أضحت شريعته هي الأساس للمنظومة القانونية، والأخلاقية والتعبد الشامل، ودائرة الاجتهاد فيه تسع بقية رحلة الزمن باسم كل الأنبياء، الذي بات يمثلهم رسول الله ﷺ وشريعته.

ليلة الحزن الكبير

قال ابن إسحاق:

(فبينا الناس على ذلك، ابتدئ رسول الله ﷺ بشكواه الذي قبضه الله فيه إلى ما أراد به من كرامته ورحمته، في ليال بقين من صفر أو في أول شهر ربيع الأول).

(فكان أول ما ابتدئ به من ذلك، أنه خرج إلى بقيع الغرقد من جوف الليل، فاستغفر لهم، ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح ابتدئ بوجعه من يومه ذلك، عن أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل فقال: يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي، فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى.

ثم أقبل علي، فقال: يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة. فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة قال: لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف. فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه).

بدأ النبي الخاتم العظيم، يستشعر ألم الاغتيال اليهودي الذي نفذته زوجة سلام بن مشكم وعفا عنها، عطّل الباري ﷻ أثر هذا السم، ولكنه جعله في خاتمة حياة الأمين مكرمة له ليكون الشهيد الرسول، وكان قرار النبي الكريم، أن يلتحق بالملأ الأعلى ولو خير في تأخيره، ولو عرض عليه كنوز الدنيا وملك أخيه سليمان النبي وأكثر، لكن طبيعته ووجدانياته وعمقه الإنساني اختارت حياة المساكين، في ثوب أكرم العالمين، وهو سيد من أعلى بيوتهم صفوة ونخبة في العرب والعجم.

وكان أول رسائله العودة إلى أحبته في بقيع الغرقد، حيث مراقد الصحب والرفقاء النجباء، يستغفر لهم ويستبشرون بخطاه، وما أزكى خطى الأنبياء، ومبعوث الضياء، استغفر لهم ولاقى أرواحهم وعاد له الألم الشديد.

الرفيق العظيم

(ثم غمر رسول الله ﷺ، واشتد به وجعه، فقال: هريقوا على سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم. قالت: فأقعدناه في مخضب لحفصة بنت عمر، ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول: حسبكم حسبكم).

ثم (أن عائشة قالت: لما استعز برسول الله ﷺ قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، قلت: يا نبي الله، إن أبا بكر رجل رقيق، ضعيف الصوت، كثير البكاء إذا قرأ القرآن، قال: مروه فليصل بالناس، قالت: فعدت بمثل قولي، فقال: إنكن صواحب يوسف، فمروه فليصل بالناس).

اشتد المه ﷺ، فلم يقدر على الخروج الى الناس فيصلي بهم، وقلوبهم تتطلع الى سترته وحجرته، لا يصدقون أن يغيب عنهم في صلاتهم، فكيف يغيب عن دنياهم، خرج إليهم يتهادى بين آل البيت حتى وصل المنبر، حرص أن يُثبت لديهم قيم الدين الكبرى وأن رسالة الرسل هي المقصودة لا ذواتهم، لم يعلموا من هو الذي ذكره النبي ﷺ، وقد خيره الله بالدنيا وما عنده فاختار ما عند الله ﷻ، إلا أبا بكر، علمَهُ فبكاه دون الصحب الذين لم يكونوا يتصورون أن يفارقهم.

بكى أبو بكر فخاطبه الرسول، على رسلك يا أبا بكر، على رسلك أيها الرفيق العظيم، لا حظّ لأحد في هذه الدنيا من حسن رفقة وايمان كحظ أبي بكر، هكذا معاني كلامه ورسالته ﷺ، والرفيق العظيم هو المناط اليه المرحلة الانتقالية الكبرى في تاريخ البشرية، من آخر الأنبياء الى أو الخلفاء، فأمر ﷺ بسد كل الفتحات إلا فتحة أبي بكر.

ورغم كل الدلائل وقوتها، في ترجيح خلافة ابي بكر إلا أن النبي ﷺ لم يسمّه، كأكبر ادانة وردع لدعاة التوريث، وغصب شورى المسلمين، لم يتركها توريثا في آل بيته ولا في أخص صحبه، فكيف بمن يخلفهم، ولذلك امتنع عن تسمية ابي بكر حتى لا يكون تشريعا، وإن أوحى لهم في غير تكليف ملزم بخيرية ابي بكر لذلك، وقد كان ﷺ وارضاه.

صلّى أبو بكو بالناس، بعد تأكيد متتابع من النبي ﷺ، فأطل عليهم وأشرق نوره بين صفوفهم، ليطمئن أن الله قد أقر عينه فتم نوره وأحسن بلاغه وها هي صحبته يؤمهم الرفيق الأمين، وشدد على بعث أسامة في جيش التأديب

للروم، لأنه يشرع لهم ان الرسالة باقية وإن رحل الرسول، فإنه دين الله المعبود، مهما غاب رسله وغادر ارضه صفوته، انه بعث السماء لأهل الأرض، لا يجوز أن تعطل ولا تغيّر حين يلتحق الأنبياء بالرفيق الأعلى.

اشتد الوجع عليه، وهو يردد في آخر لحظات حياته، الصلاة الصلاة، رابطة العبد وربه، رابطة ما بين الأرض والسماء، وما ملكت يمينكم، أي من لا يزال في العبودية بعد أن فتح لهم كل باب للحرية، وكل مسار للتحرير والفداء لأنفسهم يوصي الناس بهم وبالعدل معهم، إنه رسول الرحمة والمستضعفين.

لحظة الحقيقة

(قالت عائشة: مات رسول الله ﷺ بين سحري ونحري وفي دولتي، لم أظلم فيه أحداً، فمن سفهي وحداثة سني أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي).

(عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، زعموا أن رسول الله ﷺ مات).

ارتفعت روحه ﷺ للملأ الأعلى، مطمئنة مرضية، لكن الصدمة كانت كبيرة فمن زوجه الحبيب عائشة، الى عُمر وبقيّة الصحب، لم يفق المسلمون بسهولة من وقع الحقيقة بين عينيهم، إنها أيضا رسالة للحالة البشرية التي تكتنف الصحابة من حزن وغم وغضب وأسى، وعاطفة كما شرحناها سابقاً.

وللزهراء مقام مقدم على الجميع، في خصوصية علاقتها به ﷺ وهي من تبقى من أبنائه، فإن حزنت وهي سيدة نساء المسلمين، وبضعة المصطفى الأمين، وغمت الأرض عليها في خير خلقها ومبعث السماء إليها، فلها العذر كل العذر، ومن ذلك أن ترى ان لها حق في ميراثه، لم يبلُغها عنه خبرٌ بلغ أبي بكر.

وما حاجة أبي بكر في موضع أرض وسهم مال، دون آل البيت ﷺ، إنما كان ذلك إنفاذاً لأمانة تركها رسول الله بين يديه، وأن الأنبياء لا يورثون، وهذا الشعور فيها، لا تثريب عليه، عند الله وعند ابي بكر والمسلمين، فللزهراء مقام أي مقام، وغصة أي غصة على أبيها وسيد العالمين.

ومسعى العباس ليكون الأمر في آل البيت قبل وفاته ﷺ، إن كان لهم فيه حق كما قال، ومسعى الأنصار بعد وفاته ﷺ، إنما هو جزء من طبيعة الحاجة الاجتماعية وكل عصبية بشرية، لكن الإسلام يقوّمها ويهدي الى سبيل الحق فيها.

حضر أبو بكر رجل المهمة، وما على الأرض رجل كمثله في فقد حبيبه ونبيه، إلا أن خصوصية ابي بكر وإيمانياته اليقينية، كانت ترسه وعزيمته، فأقبل على رسول الله وقبّل بين عينيه، والوجدان يصرع فيه، وحقٌّ لوجدان المسلمين أن يعصر في حبيبهم وحبيب ربهم.

لكن أبا بكر أكمل الله به عزيمة الرسل فيما اوصوا به، فدثر نبي الله وقد عظّمه حيا وميتاً، وخطب الأمة فيما أدرك من أمانة ربه ونبيه، فاستيقظت للخبر اليقين، فدُفن الأمين الحبيب، وسؤال الزهراء، حاضر الى اليوم يا أنس كيف طابت نفوسكم أن تهيلوا الترب على نبيكم.

لم يكن سؤال اعتراض فهي تعلم أنه وحي السماء، ولكنها بأبي هي وأمي كانت تتساءل كيف نقدر على دفن نور عيوننا وقلوبنا.

لكن هذا المشهد الحزين، لم يكن ليغيّر الحقيقة العظمى، والمعرفة الكبرى، التي ترك عليها النبي ﷺ، رسالته لأهل الأرض، وهي رسالة النجاة والنجاح ورشد العقول والقلوب، وأن ما أشفق عليه كل اشفاق، هو أن ينقذ هذه البشرية، من كل دعوات السوء وأن يُذكّرها، بتمام رسالتها الوجودية في الحياة، لماذا خُلقت وماذا بعد الرحيل والموت، وماهي؟

هي رسالة الله في عبادته وتوحيده، وإقامة العدل فيها، ونبذ كل ظلم مسيء من ظلم الاستبداد الى ظلم الشرك العظيم.

خاتمة

أختم هنا الكتاب، ولست أدعي أنه مرجعٌ فكريٌّ للسيرة النبوية، فأعرف مقامي، وأعرف مقالتي، لكنني احسب، أنها محاولة لقراءة فكرية تُضيء بعض المسارات لأسئلة المسلمين وغير المسلمين المعاصرة، في سماء الفكر ولغة العالم اليوم، وكل ما أرجوه أن يتقبل الله هذا العمل ويعفو عن الزلل.

والخطأ البشري أمرٌ قدري في هذا الكتاب وغيره، لكن أملنا بالله أن يسدد الجهد وينفع بهذه الوريقات، لتكون سراجاً يهدي لما هو أبلغ منها، ومقدمة لمن يُحسن هذا الفكر والصناعة خير من كاتبها، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلاة الله وسلامه على مبعوث رحمته للعالمين.